المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الماضى فى الحاضر

عارف الله يسيم



1247

ترجمة: على رؤوف المحدوف

مراجعة: شمس الدين كريم

تقديم: محمود فهمى حجازى

الإبداع القصصى

الماضي في الحاضر

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- سلسلة: الإبداع القصصى
- المشرف على السلسلة: خيرى دومة
- العدد: ١٢٤٧
- الماضي في الحاضر
- عارف الله يسيم
- شمس الدين كريم
- محمود فهمى حجازى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب

Жар жағасы

Ғарифолла ЕСІМ

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.comTel: 27354524-27354526 Fax: 27354554

الماضي في الحاضر

تـــأليف: عـــارف الله يسيـــم
ترجمة: على رؤوف المحدوف
مراجعة: شمس الــدين كــريم
تقــديم : محمود فهمى حجازى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الماضي في الحاضر / ترجمة: علي رؤوف المحدوف
القاهرة: ، ط ١، ٢٠٠٨
٣٠٨ ص، ٢٠ سم (المركز القومى للترجمة)
١ - القصص الروسية
(أ) المحدوف، على رؤوف (مترجم)
(ب) السلسلة
(جـ)العنوان ٨٩١,٧٣

رقم الإيداع ١٤٢٨ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 977- 437 - 809 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

هذا كتاب قازاقي مترجم إلى العربية في إطار جهود جديدة ومشكورة لتعريف المثقف العربي بآداب الشعوب الشرقية. والقازاقية هي لغة القازاق، وهي اللغة الوطنية بجمهورية قازاقستان – كما يسميها أهلها، أو كازاخستان كما يسميها الروس. هي لغة شعب صديق، تنتمي مثل اللغات القرغيزية والأزبكية والتركمانية والآزرية والتترية إلى مجموعة اللغات التركية الحديثة، إلى جانب لغة جمهورية تركيا. ومنذ نحو ألف عام كان مؤلفون قازاق، ومنهم الفارابي الفيلسوف والفارابي اللغوي والجوهري مؤلف الصحاح والصغناقي الفقيه قد ألفوا بالعربية. وبعد ذلك مرت قرون وتعددت الدول الحاكمة وتغير الإطار الثقافي ثم تحول الواقع اللغوي ثم عدل نظام الكتابة وتكونت حواجز بين آسيا الوسطى والثقافة العربية. ولكن استقلال جمهورية كازاخستان في سياق ما حدث للاتحاد السوفيتي سنة ١٩٩١ كون موقفًا جديدًا، من سماته استئناف الصلة بالعالم الإسلامي مع التوجه العام إلى جعل الحياة على النمط الغربي الحديث. زاد الاهتمام باللغة العربية وأسست عشرة أقسام جامعية لتعليمها في جامعات مختلفة، منها جامعة نور مبارك في إطار اتفاق رسمي بين الحكومتين

المصرية والقازاقية. وبدأت الجامعة حركة الترجمة بين اللغتين، وترجمت عدة كتب عربية إلى القازاقية، وتترجم حاليا عدة كتب قازاقية إلى العربية. ونرجو أن تأخذ هذه الحركة أبعادا علمية وأدبية متعددة من أجل الصداقة والفهم المتبادل وبناء المستقبل.

الكتاب الذى نقدمه اليوم مجموعة قصصية لمؤلف معروف فى جمهورية كازاخستان بأنه أستاذ كبير فى الفلسفة. إنه عارف الله يسيم، عميد كلية الفلسفة والعلوم السياسية بالجامعة الوطنية القازاقية المعروفة باسم جامعة الفارابي منذ سنة ٢٠٠١. كان أستاذا زائرا فى جامعات كثيرة، وشارك في عدد كبير من المؤتمرات ونظم مؤتمرات دولية كثيرة، هو شخصية علمية مرموقة نشر كتبا قيمة ومئات المقالات والمقابلات الإعلامية. له اهتمام كبير برائد الفكر القازاقي الحديث أباي (المتوفى). كتب عنه عدة مؤلفات، أولها سنة ١٩٩٤، وآخرها تعليقات مفصلة على كتاب الكلمات الذي ألفه أباي كشف فيها عن فكر أباي ونقده للمجتمع ودعوته إلى الأصالة والتجديد. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بعنوان:

Garifolla Yesim, In Insider Critique of the Kazkh People and Nation, Reflecitons on the Writings of Abai Kunanbai – auhli, Los Angeles. 2007

إن قائمة أعمال عارف الله يسيم تضم نحو ثلاثمائة عنوان، بين كتاب ومقال علمي ومقال ثقافي. من أهم مؤلفاته كتاب عن الحكيم أباي (طبع سنة ٢٠٠٠ ثم ٢٠٠٤) ثم كتاب: الإنسانية (طبع سنة

٢٠٠٣)، ثم: كتاب أساسيات دراسة الدين (طبع سنة ٢٠٠٣ بالقازاقية وبالروسية) ثم: كتيب فلسفي عن أباي (طبع سنة ٢٠٠٤ ثم ٢٠٠٦) ثم لمؤلف كتاب فلسفة الكلمات (طبع سنة ٢٠٠٥)، ثم كتاب: الفلسفة القازاقية، هرم فى السهوب، أو فلسفة الحب (طبع ٢٠٠٥)، ثم كتاب النهضة القازاقية (طبع ٢٠٠٦). ثم كتاب: فلسفة السياسة (طبع سنة ٢٠٠٦). وكل هذه الكتب ألفها باللغة القازاقية الصاعدة في بلاد القازاق، وترجم عدد كبير منها إلى اللغة الروسية، وهي اللغة الثانية ولغة التعامل والعلم فى البلاد. وأصبحت هذه المؤلفات القازاقية من رموز الإنتاج الفكري في عهد الاستقلال. وترجمت له مؤلفات أيضا إلى لغات أخرى، منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والصينية. وأعماله الأساسية ذات طابع فكري.

أما هذه المجموعة القصصية التى تنشر له في ترجمتها العربية فقد قام بها اثنان من جامعة نور مبارك، قازاقي ومصري، وهما د.على رؤوف المحمدوف من قازاقستان، وتولى الصياغة العربية د.محمود فؤاد أبو العينين من مصر، وراجع الترجمة أ.د. شمس الدين كريم نائب رئيس الجامعة من جمهورية كازاخستان.

هذه المجموعة القصصية نشرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي،

حوادثها تمثل تلك البدايات الصعبة لتكون تلك الدولة الكبيرة، وفيها أيضا بذور الضعف. نجد فيها إشارات إلى الصراع بين القوى السياسية المتنافسة الحمر والبيض، وصراع القوى المعارضة لهم من القوميين والإقطاعيين وغيرهم. وفيها صور من البطش المحلي للموظفين ورجال الأمن، وفيها صور لما يحدثه البعض من ظلم وعسف وتدمير بتقارير مفتعلة، وفيها نمط من حياة غارق فى الشراب، وفيها نمط من الجنس ودفاع ومقاومة. ونجد في هذه المجموعة أيضًا موقفًا سلبيًا رسميًّا من الدين ورجال الدين وأبنائهم، ولكن الناس يتمسكون بالحد الأدنى منه والدعاء للميت، وبعضهم يحاول اختلاس الوقت لأداء الصلاة، وكلهم أمل فى تجاوز الظلم في الدنيا إلى العدالة فى الآخرة. صورة السجن والمعاناة والخروج بلا عودة واضحة فى عدة قصص.

قد يجد القارئ العربي صعوبة فى تتبع بعض أسماء الشعوب هنا، منهم القازاق والتتر والروس والكالموك وغيرهم من شعوب الاتحاد السوفيتي، أو في تتبع العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والقوى العالمية المعادية له في سنوات ما بين الحربين وسهولة اتهام أفراد بالتجسس لمصلحة قوة من تلك القوى. إنها صور من الماضي تجاوزها الاتحاد السوفيتي بعد ذلك بعد استقرار النظام بنشر التعليم

وبالتقدم العلمي وبقوانين جديدة وبعلاقات أفضل فى المجتمع ومع الخارج، ولكن عناصر الفساد الداخلي وعدم الأمان الفردي والخوف من المبادرة والنفاق وبطش السلطة كانت من أسباب انهيار تلك الدولة العملاقة.

لقد ظهرت هذه المجموعة القصصية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بثلاث سنوات أي سنة ١٩٩٤ باللغة القازاقية، ثم ظهرت بعد ذلك باللغة الروسية سنة ٢٠٠٣. إن المؤلف وهو أستاذ للفلسفة جعل عمله امتدادًا لتراث أدبي فلسفي، وأشار فى مقدمته إلى قصة حي بن يقظان لابن طفيل وإلى أعمال أدبية فلسفية أوروبية لفولتير وجوته. ونجد في ثنايا عمله أرسطو وأفلاطون، وقصصًا تدور في الإطار الفارسي القديم.

إنها رؤية من جمهورية كازاخستان المستقلة لمرحلة مبكرة من المعاناة تجاوزتها حوادث وتطورات، ولكن الصورة الأدبية تبقى أمام القارئ تسجيلا وتصويرا، وأملا في مستقبل أفضل، وها نحن فى تلك الدولة الصاعدة بعد الاستقلال نعيش عصر الثورة الكبيرة والانطلاق الحضاري والوفاق الاجتماعي وحوار الأديان وبناء المستقبل.

مقدمة المؤلف

هناك حالات كثيرة يترك فيها العلماء مفاهيمهم ودرجاتهم العلمية ويقومون بمحاولات للتعبير عن اكتشافاتهم بلغة النثر، لأن الوصف التصويري الفلسفي – يقدم إمكانية أفضل للتعبير عن الأفكار الذاتية والمنطقية أحيانًا.

وقد كان الفيلسوف الإغريقي القديم أفلاطون أول من استخدم الإمكانيات النثرية في أبحاثه العلمية. حيث كانت حواراته عن الوقت والفضاء مثالاً رائعًا للتفكير العلمي والتصويري.

بعد أفلاطون وجد النثر الفلسفي استمرارية كطريقة في أعمال المفكرين العرب في القرون الوسطى. فعلى سبيل المثال ترك لنا ابن طفيل قصة "حي بن يقظَان" كمثال رائع للنثر الفلسفي. ولعلم القارئ الكريم فقد ترجم كاتب هذه السطور قصة "حي بن يقظان" إلى اللغة القازاقية، وتم التوصية بها لمساعدة الدارسين للفلسفة ككتاب دراسي منهجي خصوصًا أن الباحثين في أعمال ابن طفيل يؤكدون أن فكر ابن طفيل في القصة كان كما ورد في الترجمة تمامًا.

لا يوجد في هذه القصة أقسام مستقلة للفلسفة والدين، وذلك لأن النثر يخلط في ذاته وبشكل رائع بين الخيال، والوهم والواقع، وهو ما يعطي لأفكار الكاتب وضوحًا متميزًا، ويعكس مفاهيمه الفكرية وتصوراته الخيالية.

بعد ذلك وفي القرن الثامن عشر، ربما تحت تأثير ابـن طفيـل كتب دانييل ديفو قصة "روبنسون كروزو" التي اكتسبت شهرة واسـعة جدًا.

وأصّل فولتير هذا الأسلوب في قصصه "زاديـج أو مـصير"، "ميكراميجس" "كانديد أو التفاؤل"، "قيصرة فافيليون" والكاتـب ديـرو في "موناهين" وفي "ابن الأخ امو".

وكتب بأسلوب النثر الفلسفي أيضًا كل مـن كـامي، وسـارتر. مثلا، تذكرني مسرحية سارتر الفلسفية "الذبابة" بقصة "فاوست" لجوته. ونحن لا نستطيع أن ننسب جوته إلى طبقة الفلاسـفة المتخصـصين، ولكن ليس هناك أدنى شك لدى أي إنسان في أن جوته ذو فكر عميق.

أنا أتحدث عن هذا لأنني شخـصيًا اسـتخدمت أسـلوب النثـر الفلسفي، المعروف منذ عهد أفلاطون، وأعتزم من خلال قصـصي أن أنضم إلى معسكر من تحدثت عنهم فيما سبق. ولكني أريد أن أشير إلى أنني لم أمارس التقليد الأعمى. وكل مـا سـتقرؤونه – أيهـا القـراء المحترمون – في هذا الكتاب الصغير تم بشكل تلقائي ودون تعمد.

تقلـيد الأشياء السطحية، يجنب الإنسان عناء الجهد الذي بدونه لا يمكن أن يكون هناك عمل حقيقي. إن الكتابة ليست عمـلاً إجباريًـا يفرض على الإنسان من خارجه، بل إنه صادر عن القلـب ويمارسـه الإنسان استجابة لقلبه وطلبا لراحة روحه. لهذا فـإنني لا أسـتطيع أن أجيب بوضوح على السؤال حول سبب كتابتي للنثر الفلـسفي عنـدما

أبتدئ بالتفكير فإن الأفكار تبحث عن متنفس لها، وعندما تجـده تـشق طريقها خلاله بتيار خضم تسير فيه كالنهر، وبالنسبة لي فإن هذا النهر هو النثر الفلسفي.

يصعب على الإنسان دومًا الحديث عن أعماله، ولكنني سأسـمح لنفسي أن أتحدث عن بعض القصص الواردة في الكتاب.

الجزء الأول يسمى "الذنب" وقد تحدث الكثيرون عن الذنب، ومع ذلك فإن هذا الموضوع لا حدود له. ما سبب حدوث ذلك؟ ولأنه يستحيل التخلص من الذنب فإن الإنسان محكوم عليه بالذنب، ولذلك فإن المشكلة ليست في كيفية التخلص من الذنوب بل في درجة الذنب، وإدراك العواقب الناجمة عنه، والتوبة منه. وفي هذا الجزء نورد قصة تانسولو بطلة قصة "تانسولو" (المصير). فهل يمكننا نحن البشر أن نقرر إيجابية هذا التصور من عدمه؟ بإرادة القدر تلعب كل شخصية الدور المخصص لها وكل شيء أعد مسبقًا، وكل شيء في مكانه وكل ما يحدث إنما يحدث بإرادة القدر.

ترى تانسولو مصيرها في طفولتها، وكل ما يحدث في الحياة يحدث كما سبق ورأت، ولذلك فقد اعترفت هذه الشخصية بالمصير المكتوب عليها، ولكنها مع ذلك قاومته، حتى تمكنت من الانتصار على هذا المصير مع أنها دفعت عمرها ثمنا لهذه المقاومة. لكن ألم تنجح تانسولو فى مقاومتها نجاحا عظيما، أوليس النجاح هو التضحية بالذات في سبيل ما تؤمن به؟ لقد كانت تانسولو مستعدة لمثل هذه التضحية بالذات، وحياتها تجبرنا على أن ننحني أمام عظمة الروح والمحبة القوية للحياة لدى هذه المرأة المقاومة لمصيرها

رغم قوته وضعف البشر الأزلى أمامه. لقد فرض اسم "المصير" نفسه على قصص الجزء الثاني من هذا الكتاب حتى خضعت له واندرجت تحته.

الجزء الثالث من الكتاب بعنوان "الكذب"، وهو - أيضًا - اسم ذو دلالة عميقة، فالذنب يعتمد على الكذب. الدولة التي أساسها الكذب ينتج عنها ذنوب لا نهاية لها، وتنتشر مآسيها بسرعة كبيرة انتشار الجراد في الحقل.

ليس من محض الصدفة أن يسمى الجزء الرابع من الكتاب "العقاب" فقد قال الفيلسوف والشاعر القازاقي أباي(١) "في الكلمات(٢)":

"لو أدرك الناس أنهم يقفون على هاوية الحقد والخبث

للبثوا طول عمرهم يحذرون".

هذا هو اختصار لتلك الأفكار التي أردت أن أشاطركم إياها – أيها القراء المحترمون – قبل أن تأخذوا هذا الكتاب في أيديكم.

---

(١) كاتب وشاعر ومفكر قازاقي. ولد في كازاخستان في مقاطعة سيمي ١٨٤٥م، بدأ تعليمه في المنزل على يد والده الذي كان زعيمًا لإحدى العشائر القازاقية، ثم أرسل إلى إحدى المدارس الدينية الإسلامية حيث تعلم العربية والفارسية، وتعرف على الآداب الشرقية. كما أتقن اللغة الروسية وبعض اللغات الأوربية. خلف والده على زعامة عشيرته، شارك بنشاطاته المتعددة في الحياة الفكرية في عصره، ترجم أعمال بوشكين، وجوته، وبايرون إلى اللغة القازاقية، وعرف بانتقاده للحياة الاجتماعية في بلاده، حتى وفاته عام ١٩٠٤م

(٢) يقصد كتاب "الكلمات السود" لأباي، وهو مجموعة من الحكم، ويعد من أهم كتب أباي.

الجزء الأول

الذنـــب

تانسولو

أمي، أمي، هكذا تعالى صوت الطفلة المختنقة من شدة البكاء، فخرجت بايبيش من الخيمة تجري وهي متعثرة بعطفات الفستان الطويل الذي ترتديه، وكانت ابنتها الصغرى تانسولو المحبوبة من كل سكان القرية مذهولة ومتعبة وفَزِعة، وهي تجري من جهة البحيرة بكل ما أوتيت من قوة، فانطلقت بايبيش للقاء ابنتها وما كادت تصدق أنها تحتضن جسم ابنتها اليافع، وبادرت بسؤالها بصوت خافت: "ماذا بك يا حبيبتي؟ ماذا بك؟"، وفي نفس الوقت هرع الناس إلى المكان بعد سماع صوت الطفلة الباكية، ولكنهم لم يفهموا ماذا حدث، فوقفوا بعيدًا عنهما يُسرّ بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى الأم وابنتها، عندها انتبهت بايبيش ونظرت إليهم بغضب فأخذوا ينصرفون، إحدى نساء القرية أخذت تانسولو بحنان من يدها وأدخلتها إلى الخيمة، ووضعتها في السرير وخرجت بهدوء.

جلست بايبيش بالقرب من سرير ابنتها، وأخذت يدها، وقاست دقات القلب التي كاد يخبو صوتها، وجاء إمام القرية وصلى داخل الخيمة، ثم دعا الله، وقرأ المعوذات لطرد الأرواح الشريرة عن الطفلة المذعورة، لكن الطفلة لم يعد إليها وعيها. عندها استدعت بايبيش

العجوز المنجمة التي كانت معروفة في المنطقة بأنها تنجم وتتوقع المستقبل.

دخلت العجوز الخيمة ودارت حول سرير تانسولو ثلاث دورات، وكانت تردد بصوت منخفض كلمات الإعجاب بجمال الطفلة، بعد ذلك جلست على ورق التنجيم وأخذت المريضة بيديها ونطقت بمجموعة من الكلمات بلغة غير مفهومة، ثم وضعت أذنها على صدر الطفلة، وقامت ورفعت يديها إلى السماء ثم مررتها على جسم المريضة بحذر شديد، وأشارت إلى بايبيش بالانصراف. لو حدث هذا في وقت آخر لما أعجب ذلك بايبيش ذات الشخصية القوية والإرادة القاطعة، ولكنها في هذه الظروف انصرفت دون أن تحرك ساكناً. ووقفت خارج الخيمة ترهف السمع لما يدور داخلها.

كانت تانسولو آخر الأطفال الذين طال انتظار الأسرة ميلادهم، لذلك فقد كانت الأسرة تدللها كثيرًا، وتحقق لها كل رغباتها، ولم يكن أحد يستطيع أن ينهرها عن شيء.

كانت الطفلة في العاشرة من عمرها، وقد نمت صحيحة سليمة، قوية، لذلك فإن سقوطها المفاجئ قد جعل بايبيش في هذه الحالة من الذعر، وكانت مستعدة لأي شيء من أجل أن تشفى طفلتها الأثيرة.

أخذت المنجمة العجوز تقلب جسد الطفلة تانسولو من جهة إلى أخرى، وتغني أغنية رتيبة لا تكاد تنتهي وقد جعل صوتها الواهن والمرتعش والحزين الأم تتعب ويضيق صدرها، أحيانًا كانت العجوز

تلمس بيدها أوتار الدونبرا وينتج عن ذلك صوت حاد وشديد، كان في كل مرة يفزع بايبيش.

كانت كلمات الأغنية قازاقية، ولكن العجيب أن معنى الأغنية كان يفلت من بايبيش، وكأنها لا تفهمها مع إنصاتها الشديد؛ فقد كان عقلها في واد آخر.

مر وقت طويل، وفجأة توقفت العجوز عن الغناء، ووضعت كفها على جبهة الطفلة وأخذت تسألها.

- إلى أين ذهبت يا تانسولو؟

أجابت الطفلة بصوت لا يكاد يسمع دون أن تفتح عينيها: " إلى ساحل البحيرة".

- هل صعدت إلى القمة المرتفعة؟ قولي لي!

انتفض جسم تانسولو: "نعم".

تراجعت العجوز إلى الخلف قليلاً، وبدأت تغني من جديد، وبنفس الطريقة - كما في المرة الأولى - توقفت فجأة عن الغناء، وانحنت نحو المريضة وواصلت أسئلتها:

- ماذا رأيت هناك يا طفلتي؟ من رأيت؟

أجابت الطفلة: العجوز الفقيرة، وشهقت مواصلة بكاءها، وبعد فترة فقدت وعيها مجددًا.

واصلت العجوز الغناء والأسئلة من جديد..

- متى رأيتها؟ كيف كانت؟ شابة أم عجوزًا؟ هل كانت ملاكًا أم روحًا شريرة؟

- كانت قبيحة، يا جدتي، وعجوزًا جدًا ومخيفة، أنا خائفة منها يا جدتي إنها قادمة إلي، خبئيني خبئيني...

فقالت المنجمة: آه أيتها المسكينة، آه أيتها المعذبة دون ذنب..

لم يكن مفهومًا إلى من توجه منجمة القرية كلامها، للطفلة المذعورة أم إلى العجوز التي تأتيها في الغيبوبة والتي رأتها الطفلة المذعورة عند البحيرة.

وحانت من العجوز نظرة إلى باب الخيمة فرأت بايبيش التى تحاول أن تواري جسمها خلف الخيمة ولكنها لم تستطع أن تمنع وجهها من أن يطل داخلها لتطمئن عينيها على الطفلة المذعورة، قالت المنجمة:

تانسولو بخير، فقد خافت فقط، عندما تستيقظ لا تسألوها عن شيء؛ يجب أن تنسى ما رأت، أطعموها جيدًا لأنها ضعيفة، اذبحوا كبشًا أسود واطبخوا لها شربة منه.

- الله يسمع منك، الله يحفظك..

قالت بايبيش هذا وولجت إلى الغرفة مسرعة، ونظرت إلى العجوز المنجمة، ولم تشعر بالارتياح رغم كلمات العجوز المنجمة المطمئنة لها، فقد استغربت لتصرفاتها غير الطبيعية، فقد كانت العجوز قلقة بشكل واضح من شيء ما.

فقد جلست العجوز على ورق التنجيم وقامت عدة مرات، وكانت العجوز تقف على قدميها بصعوبة شديدة، وكانت تتنفس بسرعة وعمق وكأنها توشك على الغرق، وكادت تختنق بدموع حبيسة داخل صدرها المضطرب، وامتلأت عيونها بلون أحمر وكأن الدم يكاد يخرج منها بدلا من دموعها الحبيسة.

أخذت العجوز تفتش في أشيائها فأدركت بايبيش أنها تريد أن تنجم، وبما أنها هي أيضًا كانت من المعجبين بمختلف طرق التنجيم، فقد جلست واستعدت للتنجيم بدأت العجوز ترمي حبات الفاصوليا وتقول بصوت منخفض:

الجمال يجلب للمرأة السعادة والحزن، ستسير ابنتـك بطريـق الحياة وطريق الموت، يبدو أنها رأت اليوم مصيرها. الفقيرة المسكينة – هي تانسولو، وفجأة قالت:

يا إلهي ماذا أفعل؟ لا يحق لي أن أتنبأ بالمستقبل، وتوقف الدم في عروق بايبيش تكاد تتوسل إلى العجوز أن تكمل. ولكنها لم تنبس ببنت شفة، وربما لاحظت العجوز ذلك، فلم تتوقف عن الكلام ولكن غيرت مجراه بمهارة، وتابعت: آه لقد أصبحت عجوزًا، ثم ردت على

نظرة بايبيش المتوسلة وقالت فى حزم ورقة: لا يا بايبيش، لا أستطيع أن أقول لك شيئا وسأنصرف من التو حتى لا أتنبأ بشيء.

بذلك لم تعط العجوز الفرصة لبايبيش بالكلام فوقفت واجمة ترقب العجوز وهى تمرق من الخيمة رغم جســدها الواهن الذى يكاد لا يستجيب لرغبة العجوز فى الهرب من هذا الموقف، ومنذ تلك اللحظة لم ير أحد العجوز المنجمة في القرية، اختفت كما تختفي الإبرة في البئر، وتناقل الناس مختلف الأحاديث عنها وعمّا حدث، ولكنهم مع مرور الزمن نسوها، ونسي الجميع القصة الغريبة لاختفائها أيضًا.

وحدها بايبيش لم تنس ولو للحظة واحدة التنبؤ الغريب والمخيف لمستقبل ابنتها الحبيبة، وحاولت أن تبني سعادتها بأسرع وقت ممكن، وجاء الخطاب يطلبون يد الفتاة للزواج، وكانوا من أصل معروف تتشرف الأسر بإهداء بناتهم إليهم، فهم أحفاد البطل سيجنجير.

عندما رأت بايبيش لأول مرة خطيب ابنتها تنهدت: "الحمد لله العلي القدير، إنه قوي جميل، ذكي، وهو مناسب جدًا لابنتي تانسولو".

(٢)

مرت السنون الواحدة تلو الأخرى، وكبرت تانسولو وتحولت إلى فتاة آسرة، تضج بالأنوثة ويتوجها الخجل، وتحت مختلف الأعذار أخذ الشباب يصلون إلى القرية التي تعيش فيها، وبمجرد أن يروها يطيلون الإقامة علهم

ينظرون إليها أو يتحدثون معها أو لعل أحدهم يأسر قلبها، ولكن عبثا يحاولون أو ينتظرون، فقد ظلت تانسولو غير مبالية بمشاعرهم، فقد كانت غارقة في حبها لخطيبها الذي تصورته من وصف عمتها له، وكانت تكرر في نفسها اسمه الذي بدا لها جميلاً جدًا. جويكين، وكانت ترى في أحلامها النسوية أنها تقعد إلى جواره، وترسم في مخيلاتها صورة لأول لقاء، ويديه القويتين تحضنها وتضمها إلى حضنه الدافئ، وكانت هذه الأفكار تجعلها خجولة وتحمر وجنتاها، وكانت تفكر فيه في مضجعها وتنام مع حلمها في لذة رائعة، ذات مرة همست عمتها في أذنها بأن الخطيب يريد أن يلتقي بخطيبته سرًا.

في ذلك الوقت عاشت تانسولو في عالم من السعادة المفرطة، وفي تلك الأيام كان هناك حدث كبير؛ فقد كانت الحرب الطويلة مع الكلماكيين تشتد أحيانًا وتخف أخرى إلى أن حل السلام ودعا الطرفان بعضهم بعضًا للضيافة، وجرى تنظيم مسابقات مختلفة وألعاب.

أثناء إحدى هذه الفترات السلمية دُعي والد تانسولو للضيافة عند الجيران الكلماك وقد عاد راضيًا وسعيدًا بحسن ضيافة جيرانه، وردًا للجميل دعاهم أيضًا للنزول ضيوفًا عليه وقد تم استضافتهم لمدة أسبوع كامل، وطفق الشباب يغنون ويمرحون ويشاركون في المسابقات العديدة التي تم تنظيمها ابتهاجا بهذه الضيافة وإكراما لضيوفهم الكرام. وتبارى الشباب فى إظهار قدراتهم الرياضية وعلى وجه الخصوص في مسابقة الرمي بالقوس التى حازت إعجاب الجميع.

ذهبت تانسولو مع عمتها إلى هذه المسابقات، ووقفت تشاهد المباراة، وترقب القائم الطويل الذى ربطت في نهايته صرّة من القماش الأحمر مملوءة بالنقود الفضية، وقد خرج عشرة فرسان لقنص هذا الهدف. كان الفرسان ينقسمون إلى فريقين، خمسة من القازاق وخمسة من الكلماك، وكان الرماة كالمسيرين بيد القدر لأمر غير معلوم، فلم يصب أحد منهم الهدف، ورمى جميعهم في نفس النقطة من القائم دون إصابة الصرّة الحمراء، وهنا أبدى الحضور استغرابهم من ذلك فقد كان الفائز سيحصل على جواد ممتاز جائزة له. وكان الجواد حاضرا أمام أعين المتبارين يمسك بزمامه اثنان من الشباب الأقوياء.

أمر حكم السباق بالمواصلة وحول وجهه تجاه الناس المتجمعة منتظرًا لمن سيدخل المسابقة من جديد أملا فى الجائزة المغرية، وفي تلك اللحظة خرج من جموع الضيوف شاب متوسط الطول، عريض المنكبين، ولديه سمات قائد المستقبل، ولم يكن يتجاوز هذا الرامي العشرين من عمره، كما كان جميلاً ممشوق القوام، ووقف بثقة وعظمة واعتزاز. صمت الناس للحظة، ثم عادوا للضجيج: "إنه بيك بنفسه!"

- ما هذا وكأنه ليس لديهم رماة عاديون بسطاء؟

نظرت تانسولو أيضًا إلى بيك مع من نظر، لكنها فجأة قطعت نظرتها إليه، وطأطأت رأسها من الخجل، كان سبب خجلها أن خطيبها جويكين - الذى لم تره بعد - قد قفز إلى ذهنها في تلك اللحظة،

وتمنت لو اتضح أن خطيبها جوكين كان بهذا الشباب والجمال والقوة، لو أنها اختارت شكلاً لخطيبها لاختارته مثل هذا الشاب الماثل الآن أمام عينيها.

قالت تانسولو لنفسها معاتبة:"كيف أقارن بين جويكين وبين شخص من الكلماك كائنا من يكون؟". عضت الفتاة على شفتيها من الندم، ولمحها الشاب الفارس، وظن أن خجلها البادي على سمات وجهها الصبوح من النظر إليه، فانتعش واستطالت قامته أكثر وأكثر فرحا بما ظن، ومنذ ذلك اليوم الذي رأى فيه هذه الفتاة وهو يبحث عن لقاء معها.

كان هناك سبب سري لعدم إصابة الهدف من جميع الرماة. فقبل وصول الكلماك إلى قرية تانسولو حذر كبار القوم في القرية رماتهم من أن يصيبوا الهدف، قائلين إنه ليس من الأدب أن نأخذ نحن الجائزة في الرمي.

دعوا الجائزة للضيوف، ولكن سهامكم الخمسة يجب أن تصيب نقطة واحدة في أسفل القائم، وفي نفس الوقت قام الكلماك بإنذار رماتهم بنفس الشيء، ولكن هنا برزت رغبة القائد الشاب بيك، الذي كان يعرف بأن الجميع يتطلعون إلي مشاهدة هذه المسابقة بما فيهم تلك الفتاة الناضرة تانسولو.

الآن يقف هو وسط الدائرة شابًا جميلاً قويًا، ونظر إلى الجموع الصامتة توجه إليه أحد خدمه منحنيًا ليقدم له القوس والرمح، لكن بيك

الشاب، أدار ظهره إلى رام من القازاق، وأخذ منه القوس والسهم، شد بيك القوس، ودار فجأة ودون أن يطيل التصويب إلى هدفه، أطلق السهم من القوس إلى أعلى، وسقطت صرة القماش المملوءة بالنقود الفضية عند قدميه، أخذ بيك القطعة وتفحصها جيدًا ثم تقدم تجاه تانسولو وقدم القطعة للفتاة الخجولة.

صفق الحضور لتصرف الفارس، وأخذت النساء تدفع تانسولو إلى الشاب بيك وتقنعها بقبول هديته، تقدمت تانسولو وأخذت صرة القماش من رأس السهم وتقابلت نظراتهما للحظة واحدة، وحدث بينهما الحوار الخاطف.

- قالت إحدى العيون "أنا متيم بك".

- وقالت الأخرى: "إن قلبي ملك لشخص آخر".

تنفس بيك بصعوبة.

في نفس الوقت بدأت لعبة أخرى، وارتفعت الأصوات والضجيج، لكن تانسولو جذبت عمتها من يديها، وانصرفت إلى خيمتها، وانفطرت بالبكاء.

- ألا تكوني قد وقعت في حب بيك؟ سألتها العمة بقلق شديد، وضمتها إلى حضنها وهي تنظر في عينيها. مسحت تانسولو دموعها، وتنهدت مخفية وجهها في حضن عمتها وقالت: "ليأت جويكين بسرعة، إذا كنت فعلا خطيبته فلماذا يتأخر؟"

وهنا فقط أدركت العمة أنه حان موعد زواج حبيبتها، وتم إرسال الرسل إلى الخطيب وفي وقت قصير وفي إحدى الليالي الصيفية القصيرة وجدت تانسولو نفسها بين أحضان خطيبها الدافئة، وقد كانت سعيدة جدًا ولكن في كل مرة تتذكر فيه شكل الفارس الشاب بيك، ينقبض قلبها، وتشعر بشيء يضايقها. أرادت تانسولو أن تقول لجويكين، لكن عمتها منعتها من ذلك.

- لا تقصي عليه كل أسرارك، وإلا فإنه سيمل منك بسرعة، ويتزوج عليك امرأة أخرى.

هذه الكلمات أزالت الغبار عن عيون الفتاة، مع أن تانســولو لا تتصور كيف يمكن لجويكين أن يتوقف عن حبها.

كما تشتعل النار من الشرارة، اشتعلت الحرب في المراعي بسبب عبارة عفوية قالها شخص ما، والكلمة الطائشة اللامبالاية قد تشعل الحرب بين الأصدقاء، وهذا أمر عادي. وبلمحة برق اختفت الحياة السعيدة المسالمة والأمان والاحتفالات المشتركة وغيرها من ملذات الحياة الآمنة، كل هذا اختفى في لحظة، وبدأت موجة جديدة من الحرب والعداء بين القازاق والكلماك. وفي مثل هذه الظروف ليس هناك مكان للمرح، وهل يستطيع الفارس أن يجلس إلى جوار عروسه والحرب دائرة؟

لذلك اعتلى جويكين صهوة فرسه، وانطلق كالفرسان الشجعان إلى المراعي المحروقة بنيران الحرب المشتعلة بين أصدقاء الأمس.

(٣)

في نفس الوقت الذي كان فيه الرجال من الطرفين يطارد بعضهم بعضًا في المراعي، كان كثيرًا ما تظل النساء والشيوخ والأطفال دون حماية، ويتعرضون للغزو والهجوم. وهذا ما تعرضت له قرية جويكين.

ففي يوم ما بالقرب من موعد الغداء هاجم الأعداء القرية، وكان قائدهم هو ذلك الفارس الشاب نفسه "بيك" الذي قدم يومًا ما هدية لتانسولو.

اختار الكلماك أجمل نساء وفتيات القرية، وكانت منهن تانسولو، هجم الأخ الأصغر لجويكين "ديفير" للدفاع عن تانسولو زوجة أخيه، ولكن الكلماك رفعوه على رؤوس رماحهم وألقوا به على الأرض. وتدفق الدم من عنق الطفل كالسيل الأسود وتوفي في الحال وأدركت تانسولو بفزع أنها كانت سبب وفاته.

لقد أحست بالذنب لأنها يومًا ما أعطت هذا الوحش بنظرتها الخجولة أملاً بأن تبادله الإعجاب وقررت في نفسها بحزم: "لا، أقسم ألا أغض من بصري أمامه، ولن أخجل".

(٤)

قامت العجوز الصينية بفحص الأسيرات، وجردت تانسولو من ثيابها، وتفحصت الجسد العاري أمامها جيدًا بعدها همست لإحدى

النساء التي يخدمنها بشيء ما، وخرجت تلك المرأة وبعد وقت قصير عادت، نظرت إليها العجوز الصينية بتساؤل، حركت الخادمة رأسها بالإيجاب. وعند ذلك خاطبت العجوز الصينية تانسولو قائلة بحقد غامض: "في رحمك جنين، سننزله، بعدها سوف تخدمين سيدنا بيك، كما يشتهي".

غضبت المرأة الشابة وثار دمها وأرادت أن تهجم على العجوز الملعونة، لكنها تمالكت نفسها في الوقت المناسب، وعضت على شفتيها بأسنانها وقالت: "اسمعي كلامي أيتها العجوز الحمقاء، أنا أريد أن أقابل بيك، ونحن معًا سنقرر ترك الطفل أم لا، اذهبي وأبلغيه كلامي هذا"، كانت العجوز مذهولة، ولم تدر بماذا تجيب، فمن يعرف ربما تصبح هذه الفتاة خليلة بيك المفضلة، عندها لن تجد خيرًا أبدًا.

خرجت العجوز تعرج، لتبلغ بنفسها كلمات الأسيرة إلى بيك. أما تانسولو فقد استغربت لشجاعتها وحزمها، وأخرجت من جيبها المبلول خنجرًا صغيرًا وأخفته في كم ثوبها. وتذكرت كيف أصرت على عدم قبول الخنجر كهدية من جويكين، مؤكدة له بأن المرأة التي يحميها رجل مثله ليست بحاجة إلى أي خنجر.

لكن جويكين قال: "للمرأة الجميلة الكثير من الأعداء، فليكن الخنجر دومًا معك وسأكون أنا مطمئنًا". تنهدت تانسولو متذكرة مقاطع من أيام حبهما السعيدة، بعد ذلك وقفت وتوجهت بخطوات ثابتة إلى بيك.

جلس بيك وحيدًا في الخيمة الرئيسية في جو من السعادة والغبطة مع الجميلة التي وقع حبها في قلبه منذ النظرة الأولى التى رآها فيها فى سباق الرمي.

قال بيك وهو يمسح تحت أذن كلبه الممدد عند قدميه: "تانسولو، أليس هذا هو اسمك؟ ها قد التقينا ثانية". ولم يكد ينهي بيك كلماته، حتى قفزت كلبته من بين يديه، وفتحت فمها لتبتلع شيئًا أحمر داميًا لم يكن قد وصل إلى الأرض، رفع بيك رأسه، وذهل عندما رأى الدم ينزف من وجه تانسولو.

عندما استوعب بيك ما حصل قام، قفز من مجلسه، واقترب من تانسولو، وفك بقوة يديها اللتين تغطي بهما وجهها، وما رآه جعله مرعوبًا. بدلاً من الأنف الجميل، كان هناك فتحتان داميتان، هذا يعني أن ما بلعته كلبته التى يداعبها كان أنف تانسولو الجميلة التى كان يطمع فيها، وقد قطعته بيدها دون تردد بالخنجر الحاد.

بغضب شديد أخذ بيك السيف وشهره فى وجه هذه الفتاة المتسمرة أمامه، وبعد لحظة كانت كلبته المدللة المخلصة ملقاة على القطيفة القابعة على أرض الخيمة من جديد. وهو ينظر إليهما متسمرا فى مكانه.

لم تبال تانسولو بالدم الذي يتصبب من وجهها، ولا بنظرات بيك الذاهلة الجائلة بين وجه الفتاة الدامي والكلبة التى استلقت على الأرض بعد أن التهمت أنف الفتاة التي يصبو إلى امتلاكها واحتوائها بين

أحضانه في لذة حالمة. قالت تانسولو بصوت لا يكاد يسمع:

"بيك، لدي رجاء واحد فقط، اسمح لي أن أقوله"، وكأن هذه الكلمات قد أعادت الشاب البطل الذى أسقط في يديه رغبته الجارفة، فقاطعها قائلاً: "هذا فيما بعد أما الآن فيجب إيقاف الدم".

تم تضميد جرح تانسولو وإعادتها إلى خيمة بيك الذى أعطى أوامره لخدمه من الكلماك بالانصراف بهدوء.

– بيك إني أعلم، أنك شخص كريم الأصل، وأملاً بطيب أصلك فقط تخليت عن جمالي ولم أتخل عن حياتي، وأظن أنك ستفهمني.

– لقد أحببتك، ولو أنك لم ترضي أن تكوني لي، لأعدتك إلى ديارك.

– ليس من السهل على الإنسان أن يتمسك برغبته في الحفاظ على جنينه يا بيك، أنت نفسك لا تصدق أنك كنت ستطلق سراحي.

– تانسولو منذ أن رأيتك لأول مرة لم تهدأ نفسي، وعندما علمت أنك قد تزوجت فقدت عقلي نهائيًا، سامحيني لقد جعلتك تتعذبين، واسمحي لي الآن أن أخدمك، مُريني تجديني طوع أمرك.

– بماذا تستطيع أن تقسم على ما تقول؟

– بمشاعري النقية تجاهك، وبقلبي المحب لك.

– لا أستطيع الآن أن أبادلك المشاعر، فكل من سينظر إليَّ من

الآن وصاعدًا سيترنح خوفًا من بشاعتي، وسأحظى برحمة الناس فقط.

- مستعد لتحمل أي عذاب معك، يا تانسولو، اعلمي أنك الآن حرة طليقة وكل ما تأمرين به سينفذ.

- إذن اسمع، ليس لي عودة إلى دياري. وسأظل هنا، أطلق سراح الأسيرات واختر واحدة منهن أمة لك، واصرف الأخريات. وإذا أنجبت الأمة ولدا أعطني إياه، وأرسلها بعيدًا أو زوجها، وأنا من سيربي ابنك، وكلما نظرت إليه سأتذكرك، وأنت كلما تذكرت ابنك ستفكر في، وهذا سيكون تطوعك في الحياة الذي سيبرد عذاب الحب. بين الأسيرات اللواتي ستطلق سراحهن توجد فتاة اسمها ساجيلة. سلمها خنجري وقل لها إنني لم أعد من الأحياء، واطب منها أن تخبر زوجي بأنني سآتيه في المنام، وسأقول له خبرا مهمًّا. وأرجو منك شيئًا آخر: بعد خمس سنوات خصص لي فرسين أصيلين من بين خيولك، وسأهتم أنا بالباقي، إنني واثقة بأنك ستنفذ كل ما طلبت منك.

(٥)

بعد هذه الكلمات خرجت تانسولو، وبعد فترة من الزمن أنجبت ولدًا، أوفى بيك بوعده وسلم الطفل الذي وضعته الأسيرة التى تسرى بها لتانسولو لتربيه، وزوج الأسيرة وأبعدها مع زوجها، وبعد فترة قصيرة قُتل بيك في إحدى المعارك، فقد كان لديه في آخر أيامه عادة غريبة وهي أنه لا يلبس الدرع أثناء المعارك، وكأنه زهد فى الحياة، ولم يعد له فيها رغبة.

بعد مقتل بيك ظهرت كثير من القصص التي تحكي عن فارس ينظر للموت بعينيه. وأضافت تانسولو إلى تلك القصص قصة أخرى من عندها عن زوجها جويكين وكانت كثيرًا ما تحكي هاتين القصتين على ابنيها.

مرت خمس سنوات، وبدأ الولدان يشعران أنهما فرسان، وكانا متصادقين إلى درجة كبيرة، وكثيرًا ما تعاركا مع أطفال آخرين، وكانا دومًا منتصرين، ذات مرة جاء رجل عجوز من الكلماك يقود فرسين، وأشرف على تعليم الولدين ركوب الخيل، ولكن بعد عامين توفي العجوز. وعند الموت بحث بعينيه عن تانسولو أراد أن يقول لها شيئًا لكن لسانه خانه، فحاول أن يبلغ الرسالة بالعلامات لكن تانسولو لم تفهم شيئًا، فحمل الكلماكي العجوز سره معه إلى القبر.

مرت عدة سنوات أخرى، وكان الولدان قد ذهبا للصيد مثلهم مثل الكبار وكان عمر كل منهما خمسة عشر عامًا، كلاهما كان يدعو تانسولو "عمتي". وذات مرة رأى ابن جويكين أن تانسولو تستعد للسفر.

- عمتي، إلى أين أنت ذاهبة؟
- يا ابني لقد كبرت وأصبحت رجلاً مستقلاً، فهل تعرف من أين أصلك، وأين جذورك، لا أريد الآن أن أكون عائقًا في طريقك.
- عمتي لقد كنت لي أمي الثانية، ولن يكون عدلاً أن

تتركيني، أرجوك أن تظلي.

قالت تانسولو وهي متأثرة جدًا: "نعم هذه حقيقة، لقد كنت لي أعز من ابني"

- عمتي، أين سأراك؟ ومتى سنلتقي؟ لقد قلت لي إنني سأجد والدي، فأين سأجدك أنت؟
- عندما تجد أباك ستجدني.
- لا تتحدثي بالألغاز يا عمتي، لا أستطيع أن أفهمك.
- هذه ليست ألغازًا يا ولدي، وفيما بعد ستعرف كل شيء.
- عمتي لماذا لم تحدثيني مطلقًا عن أمي؟ إذا كنت تعرفين والدي جيدًا، فلماذا لا تعرفين شيئًا عن المرأة التي أنجبتني؟
- لا يا ولدي لا أعرف شيئًا عن أمك، ولن أقول لك إلا أنك يجب أن تصبح فارسًا شجاعًا وإنسانًا ودودًا، وأن يكون لديك روح كريمة؛ لأن هذا يعني أنك ستكون ابنًا يستحق أمه.

- مسكينة أمي، كم أريد أن أراها، وأسمع صوتها، يبدو أن أمي أجمل امرأة في العالم.

لم تسمع تانسولو بقية الكلام، حيث دارت وانصرفت، جرى الشاب نحوها ورفعها من الأرض وأخذ يدور بها، سقط الغطاء ورأى

الشاب الوجه دون أنف واختفت سعادته، سارعت تانسولو بأخذ المنديل وغادرت، راقبها طويلاً وحتى الجرح العميق الذي في وجهها لم يستطع أن يخفي الجمال الذي عاش سنين طويلة وانفتح له للحظة واحدة، شعرت تانسولو بأنه يتابع أثرها فعرجت وانحنت فجأة وكأنها تريد أن تنفي تخميناته. واختفى اللغز الذي ظهر فجأة تلقائيًا.

(٦)

دارت الأيام دورتها، وشفيت الجروح القديمة بالتدريج، تزوج جويكين بعد أعوام من الجهد والذكريات والعزاء، وأنجب أطفالاً، كان أصغرهم دورين في الثامنة من العمر. وبدا وكأن كل شيء ذهب دون عودة، لكن جروح نفس جويكين استمرت تئن طويلا وكأنها لم يقدر لها أن تندمل، وذات مرة ظهرت في القرية عجوز مجهولة، وبمجرد ظهورها بدأت تحدث أحداث غريبة.

ربما لأنها عجوز مريضة، كان وجهها مغطى دومًا بمنديل لذلك لم يكن يُرى إلا الجزء العلوي من الوجه، لم يُعر جويكين اهتمامًا بالمرأة العجوز الفقيرة، معتمدًا بأنها كغيرها من الفقراء الذين يجوبون العالم، ولكن الغريب في الأمر أن ابنه دورين كان قد تعلق كثيرًا بالعجوز، فكثيرًا ما رآهما وهما ينشدان معًا الأغاني. وكان جويكين يشعر أن في صوت المرأة العجوز نغمة مألوفة فى أذنه، وكانت هذه

النغمة قريبة عزيزة على قلبه لكنه لا يجد سببًا لذلك.

وكانت العجوز بمجرد أن ترى جويكين تستعجل بالانصراف وهي تنحنى علها تختفي عن ناظريه، ولكن جويكين كان مشغولاً عن التفكير فيها، فقد كان يعتقد أن الارتباط العجيب بينها وبين ابنه الصغير ما هو إلا شغف أطفال.

ذات مرة لاحظت الزوجة أن زوجها صامت ويفكر كثيرا على غير العادة.

– ماذا حدث لك يا زوجي العزيز؟ ألست مريضا؟ واقتربت منه لتدفئه بجسمها.

– لا ليس هناك شيء، فقط رأيت حلمًا مزعجًا، لذلك فأنا قلق إلى حد ما.

– الشيوخ يقولون إن الحلم شيء يعلق فى الذاكرة فيقفز إلى العين فى النوم، أو هل تريد أن أدعو العجوز الفقيرة، لتفسر لك الحُلم إذا كان يقلقك؟

بمجرد ذكر العجوز اعترض جويكين قائلاً: "لا، ليس هناك داعٍ، فقط تعبت في الأيام الأخيرة". لكن في صباح اليوم التالي كان الزوج أكثر قلقًا وعبوسًا.

– ما الذي يحدث لك يا زوجي الحبيب؟ يبدو أنك مرهق جدًا.

– لم يعد هناك ما يمكن إخفاؤه يا زوجتي، فاليوم الثاني على

التوالي أرى في المنام تانسولو، فبعد أن ذهب كل شيء أدراج الرياح منذ زمن بعيد، تعود إليَّ من جديد في الحلم.

- لابد أن ندعو الإمام يصلي فى الخيمة ويذبح على روحها حتى تنصرف فى أمان ولا تعود مرة أخرى.

جاء إمام القرية دون تأخر، وعندما سأل: على روح من ندعو، صاح جويكين بصوت مرتفع ودون شعور: "على روح تانسولو".

جاءت العجوز أيضًا لتأكل من الخبز الذي أعد على روح الميت، وفي ذلك الوقت كانت تساعد في البيت حتى انصرف الجميع ونام أهل البيت فى أمان وهدوء بعد أن صرفوا الروح التى تقلق نوم رب الدار.

في الصباح الباكر مدت الزوجة المحبة كل جسمها لتداعب زوجها بعد الليالي التى أنهكته فيها الأحلام المزعجة لكن الزوج لم يستجب لنداء جسد الزوجة، وحينما أدارت وجهها إليه لترقبه، لم تجد جويكين بالقرب منها.

أحرقت الغيرة فى لحظة قلب المرأة، وقفزت من مكانها لترى مع من يقضى الزوج هذا الوقت من الليل، وخرجت غاضبة من الخيمة، فرأت زوجها وهو ممدد الجسد وحيدا أمام الخيمة، يرقب السماء بعينيه فى ذهول، وكأنه شارد الذهن يفكر في شيء ما، تنفست الزوجة الغيور للحظة فقد سرى عن قلبها أن ما شكت فيه لم يكن حقيقة، لكنها ما لبثت أن عاودها القلق على زوجها مرة أخرى، ولم

تدر أيهما كان أفضل لديها، أن تراه مع امرأة أخرى ينعم بوقته، أم تراه ذاهلا على هذه الحال. أرادت الزوجة أن تقترب من الزوج البائس لتسري عنه، لكنه أشار إليها بيده أن تعود.

عادت المرأة إلى مرقد الزوجية البارد الذى تركته غاضبة من لحظات، وبعد أن ذهب عنها غضبها على زوجها، واستحال إشفاقا ورحمة على الرجل البائس، لكن لم يطل بها التفكير، فغفت ونامت من جديد.

لكل إنسان في هذه الحياة مشاكله، فكم من أعمار كان مصيرها الهلاك في القدر المحتوم، وهذا جويكين دخل في صراع مع مصيره، وهو الآن يفكر في حياته، وفيما حدث معه في الآونة الأخيرة، حتى النوم لم يسلم له، فقد تتابعت عليه الأحلام تطارده في منامه. وكان غريبًا له أن يشعر بمختلف الأحاسيس التى لا يفهمها، وكأن عيونا لا يتبينها ترقبه من المجهول، وها هو الآن مثلا يشعر بالندى البارد وطل الصباح ويمكنه الآن أن يأخذ من فوق الصحيفة الممتدة على جانب الخيمة قطعة من الحليب المجفف ليتذوقها. هل هذا واقع أم حلم؟ بالطبع هذا يحدث معه في الواقع، فكيف يمكن أن يشرح ما يحدث معه ثلاث ليالٍ متتابعة وأنه يرى حلمًا واحدًا فقط؟

عزيزي القارئ سنترك الآن جويكين وحيدًا مع أفكاره وسنحاول بأنفسنا أن نرفع الحجاب عن السر.

فأنتم دون شك قد عرفتم أن العجوز الغربية الفقيرة التي وصلت

إلى قرية جويكين – هي نفسها صديقتنا القديمة تانسولو. فعندما قصت لابنها كل شيء، وأمرته بحزم أن يأتي في وقت حددته بنفسها، توجهت هي الأخرى إلى قرية زوجها، وعندما اقترب الموعد الذي حددته لوصول ابنها بدأت تانسولو بالعمل والتأثير، حيث كانت تضيف المنوم إلى مشروب الزوجين وتنتظر حتى يناما، ثم تأتي إلى مخدع زوجها جويكين وتغني له أغاني عن حياتها وعما حدث لها.

كانت تنظر إلى التقاسيم التي تحبها كثيرًا في وجه جويكين، ولا تستطيع أن تمسك دموعها التي تتصبب على خديها وكانت تمسحها بيدها بصعوبة حتى لا تُكتشف، وكانت تتمالكها رغبة جامحة في أن تضع وجهها على صدر جويكين وأن تذوق طعم شفتيه وتشم عبق جسمه.

استمرت هذه الآلام ثلاثة أيام، ولكن بعد أن بكت وقالت كل ما تريد ارتاحت وكأنها تحررت من ثقل كل السنين الماضية التي حملتها في صدرها.

أصبحت تانسولو الآن سعيدة، كما كانت في شبابها. وقد رأت دورين على شاطئ البحيرة، وعلمت أنه لن يراهما أحد هناك، كانت تعطف عليه وتغني له وتحكي له القصص عن الفرسان، وكانا سعيدين معًا.

كانت تانسولو تعرفه أن جويكين كان يسمع أغانيها من خلال الحلم. لكن منذ أن ذكر جويكين أنها أصبحت روحًا، أدركت أنه من

الآن ليس لها مكان بين الأحياء، لقد رأت في صباح اليوم الثالث كيف أن جويكين المفزوع مما رأى في الحلم خرج من الخيمة ووقف طويلاً، ثم تمدد على صفيحة تجفيف اللبن.

كانت تانسولو المخلوق الوحيد الشاهد على آلام جويكين النفسية، كما كانت الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يشعر بتلك الآلام ويتبادلها معه، ولكنها أصبحت غير قادرة على فعل ذلك الآن، وفي النهار رأت جويكين بعث وراء ساجيلة، وهي الفتاة التي كانت أسيرة معها لدى الكلماكيين.

كاد قلب تانسولو يطير من السعادة، كالطيور الحائمة قريبة من السماء، ولم تجد لنفسها مكانًا من السعادة المفرطة، وجرت المرأة العجوز تجاه المراعي سعيدة مرحة وقلبها يملؤ صدرها بدقاته السريعة.. ولو أن شخصًا ما رآها تسير بخطوات سريعة راقصة واتزان وتمايل لرأى جمالاً لا يضاهيه جمال.

لكن لم يكتب لأحد أن يرى ذلك الجمال، وهكذا تحققت كلمات العجوز المنجمة التي قالت منذ زمن بعيد: إن الجمال يجلب الحزن والشقاء إلى جانب السعادة.

عندما كانت تانسولو تحاول أن تختفي عن أنظار الناس حدث في الخيمة الحوار التالي:

- ساجيلة، إن الأمر قديم وربما أنه من الصعب عليك تذكره والحديث فيه. ولكني أرجوك أن تتذكري، هل رأيت بنفسك موت

تانسولو، ودفنتها بيدك. قولي لي كل الحقيقة ولا تخفي شيئًا.

– آه، أيها المسكين المعذب، كم مرة قصصت لك هذه القصة، جرى الكثير من الماء منذ ذلك الحين، فما الذي أستطيع الآن أن أقصه عليك، فقد نسيت الكثير، ومن الأفضل ألاّ نحيي الآلام القديمة.

– أنا أيضًا نسيت يا ساجيلة، ولم أتذكر. ولكني منذ ثلاثة أيام أراها في منامي.

– (منبهرة): روحها، لا بد أن روحها تطلب الراحة.

– لا، إن في الأمر سرًّا مخفيا عني؟

– ماذا كنت أستطيع أن أفعل، وأنا ضائعة أسيرة؟ كما طلب مني قلت.

– ماذا، ماذا تقولين، من طلب منك؟

– لا، لا شيء، أنا فقط أقول إننا جميعًا بيد الله العلي القدير.

– لا تتهربي، تحدثي مباشرة، هل رأيت بنفسك تانسولو وهي ميتة؟ وهل شاركت في دفنها؟ ومن الذي أعطى لك الخنجر؟

– خنجر، أي خنجر؟

– هذا الخنجر (يسلم الخنجر لساجيلة).

– (رُعبت، وصاحت) لا، ليس لدي ما أقوله، لن أقول شيئًا.

– ساجيلة ستتحملين إثمًا إذا أخفيت السر. يجب أن أعرف الحقيقة كاملة، يا عزيزتي.

– ليغفر لي الله فقد أقسمت باسمه.

– لمن أقسمت؟

– لقد أعطيت قسمًا لبيك الكلماكي، الله يغفر لي. فقد مات في المعركة.

– لقد رأيت بأم عيني مقتله في المعركة، ربما كان يجب أن يموت من سيفي أنا، ولكن ذلك لم يحدث.

– اسمع سأقول لك ما أخفيته كل السنوات الماضية، فأنا لم أر تانسولو ميتة، وقد أعطاني الكلماكي الخنجر، وقال لي إن تانسولو قد قتلت نفسها، وأن عليَّ أن أقص لك وفاة زوجتك، وكأنني رأيت ذلك بعيني وشاركت في الدفن وقد أخذ مني عهدا أمام الله على ذلك، ولم أستطع أن أخل به.

صمت الجميع لفترة طويلة

– ألم أقل لك حينها إنه بعد خمسة عشر عامًا ستأتيك علامة؟ وأنه بعد خمسة عشر عامًا تانسولو ستأتيك في المنام؟ قال لي ذلك بيك الكلماكي.

– لقد نسيت ذلك، والآن أتذكر كلامك، فقد مر خمسة عشر عامًا تمامًا.

– أعتقد أن تانسولو حية.

– هكذا إذن؟

– لم أرها ميتة ولم أدفنها بيدي، ولم يأخذ مني بيك العهد من محض الصدفة، إن في الأمر سرًا غريبًا.

– إذا صدقت رؤيتي فإنني قريبًا سألتقي بابني، لقد أخبرتني تانسولو بذلك.

– لقد شعرت بأن شيئًا مهمًا سيحدث.

– مهما حدث سأظل أنتظر ابني، لقد قالت لي تانسولو إن ابني يشبهني، فقد كانت حاملا به عندما افترقنا.

– نعم أنا أيضًا كنت أعرف ذلك.

– لقد طلبت مني تانسولو في الحلم ألاّ أرحل إلى أي مكان، قبل أن يصل ابني، لقد خافت ألاّ يلقاني، لذلك لا بد أن أنتظره هنا.

نظر جويكين طويلاً إلى ابنه باحثًا فيه عن شبه من تانسولو، لكنه لم يجد فحزن كثيرًا، وقطع أفكاره ابنه الأصغر دورين، الذي دخل إلى الغرفة، وصاح: "أبي، أبي لقد سقطت الخالة في البحيرة" وفي هذه اللحظة، ذكرته نظرة ابنه التي نظر بها تجاه دورين بتانسولو، هذه النظرة ذكرته بتانسولو لدرجة أنه لم يظل لديه ذرة شك في أنه ابنه.

سحب دورين ابنيه إلى الخارج متعجلاً. فجأة قلق الشاب، "من هذه؟ ومن أين جاءت إليكم؟ فحدثه جويكين أنها قد قدمت إليهم مؤخرًا، وأنها كانت متعلقة بابنه الصغير دورين، ولكن لماذا قفزت إلى البحيرة؟ فالماء بارد والبحيرة عميقة!

عندما صعدا إلى أعلى نقطة في الساحل، شحب وجه الشاب، وأخذ يحضن ثياب العجوز المتسخة الممزقة ويمسح بها وجهه ويبكي. غطت الدموع وجهه، فهو يبكي لأول مرة في حياته، ولم يكن لحزنه حدود.

سار الشاب بخطوات خائفة، وهو مازال يبكي نحو حافة الساحل، ونظر إلى أسفل فرأى المياه تتلاطم وتفور في هوة كبيرة بالقرب من الساحل.

وقف الابن والأب جنبًا إلى جنب على الحافة ولم يستطيعا أن يوقفا دموعهما، ولم يكونا بحاجة إلى كلمات ليفهم كل واحد منهما القصة كاملة، فقد وثبت الحقيقة إلي قلبيهما دون كلمات، فسالت الدموع الساخنة على وجهيهما، ولم يستطع أحد أن يلومهما لضعفهما.

مرت السنوات وكبر ابن تانسولو من جويكين وأصبح رجلاً قويًا، وفارسًا مقدامًا، وكتبت في ذكراه وشجاعته وإنجازاته قصص كثيرة وأغاني. ولكننا نتعمد عدم ذكر اسمه لأن قصتنا ليست عنه، وإنما عن قوة الحب العظيمة التي حملتها امرأة ضعيفة اسمها تانسولو في قلبها خلال كل تلك السنين.

في مكان ما خارج مينسك...

سمعت في طفولتي قصصا كثيرة من جدي عن شخص يدعى على خان، كان جدي يحترمه كثيرًا ويسميه "توريه"[١]. وكنت أستمع إليه بخوف خفى فلا أستطيع أن أجاهر أمام جدي بأنني أكره هذه الكلمة، ولا أستطيع أن أسمح للكلمة أن تعلق بقلبي فى حب ومودة كما علقت فى قلب جدي، فقد كانت كلمة "توريه" تعني لي إقطاعيًا ومصاصًا لدماء الفقراء.

كنت حينها أعتقد بأن "توريه" هم أعداء الشعب، ففي الحصص الدراسية في المدرسة، وكذلك في الأفلام السينمانية وفي الكتب يتحدثون عن أن "التوريه" أطلقوا النار على لينيين، وقتلوا البلاشفة، وهم ضد الاشتراكية عمومًا. لكن الناس كانوا يستمعون لقصص جدي عن علي خان "توريه" بكل اهتمام، وكان يبدو أنهم يفتخرون به ويعجبون بقصصه كثيرًا.

في الواقع، فإنني على الرغم من تعاملي بحذر مع طبقة "التوريه" فإننى كنت أحب الاستماع إلى جدي كثيرًا. في عام ١٩١٦ ميلادية أخذ جدي بالتعبئة العامة لخدمة الدولة وأرسل لحفر الخنادق،

---

(١) لفظ يطلق على سلالة جنس المغول وتعني "السيد".

ويتذكر جدي أن خط الجبهة كان يمر في منطقة ما خارج مينسك.

"كانت التعبئة من الشباب فقط، في النهار كنا نحفر الخنادق، وفي المساء نجتمع في الخيمة، نتحدث ونغني الأغاني، ونتذكر أهالينا الذين تركناهم خلفنا، ومناطقنا التى جئنا منها، ويحاول كل منا شد عضد الآخر، وكان معظمنا من منطقة سيميبلاتنسك[١] والبقية من أكتوبينسك[٢]، وتم تقسيمنا إلى مجموعات في كل مجموعة عشرة أفراد ولكل مجموعة قائد، وكنت قائد مجموعتي.

كانت مسئولياتنا الاهتمام بالضعفاء والمرضى، وإلى جانب ذلك فقد كان هناك اتصال دائم بين قيادات المجموعات. وكان المسئول عنا اسمه ميخائيل أو على الأقل كنا نعرفه بذلك الاسم، ولم يكن يتدخل في شئوننا. كان ميخائيل هذا يمتلك عينين صغيرتين غاضبتين، ويتحدث اللغة القازاقية بطلاقة رغم أنه لم يكن قازاقيًا، كما كان يبدو أن لديه جاسوسًا من بيننا، وكنا نشعر بذلك ولكننا ليس لدينا ما نخشاه، فليس لدينا أي أسرار.

كان قائد المجموعة من منطقة أياغوز يدعى بوغيمباي وكان يمتلك بنية جسمية ممشوقة كالفرسان، فقد كان طويل القامة، عريض المنكبين. وكان قد شارك في المسابقات الرياضية، وإلى جانب ذلك كان يمتلك صوتًا

---

(١) المنطقة التي كان يوجد بها للاتحاد السوفيتي المفاعل النووي في كازاخستان.

(٢) منطقة غرب كازاخستان.

نقيًا وقويًا، ويعزف على "الدومبرا"[1] وكان يتصف بالشدة والعدل. وكثيرًا ما تحدثنا معه بود وكان يقول: "انتظر يا "يسيكي"[2] سأعود إلى وطني، وأتزوج وأدعوك لحضور العرس".

وكان من ضمن العشرة التي يترأسها بوغيمباي أحد أقربائه ويدعى كاسينغازي وكان هزيل الجسم لكنه دائما فخورًا بنفسه، وكان يتعب بسرعة، وكثيرًا ما كان يعاقبه قائد المعسكر، ولولا أن بوغيمباي كان يدافع عنه لدفنه ميخائيل حيًا.

ذات مرة أثناء تناول العشاء وبين أصوات الملاعق والمضغ فجأة بدأ ضجيج وصياح، واتضح أن كاسينغازي أكل عشاء جاره بسرعة عندما ذهب الآخر لقضاء حاجة لمدة دقيقة واحدة، وعندما عاد الشاب إلى مكانه اكتشف بأن أحدًا ما قد أكل عشاءه، وهجم مباشرة على كاسينغازي وبدأ يخنقه. ولو لم يتدخل بوغيمباي لأفضت روح المسكين إلى بارئها.

غضب بوغيمباي كثيرًا من التصرف الدنيء لقريبه، وأخذه من عنقه ورفع قبضته لكي يلكمه، ولكنه رأى خوفه وعيونه تتهافت، وهو يترجاه أن يتركه، فتركه وقال بمرارة "آه يا ضعيف"، وانصرف.

---

(١) آلة موسيقية قازاقية تشبه العود ولكنها أصغر حجمًا وبها وتران فقط.
(٢) أسلوب الاحترام باللغة القازاقية لاسم إسيم.

أعطى بوغيمباي عشاءه لجار كاسينغازي، الذي بقي دون عشاء، ومنذ ذلك اليوم بدأت ألاحظ بأن بوغيمباي يعطي نصف وجبته لكاسينغازي الذي كان يأكل كل شيء دون أن يرمش له جفن، ودون أن يترك شيئًا منه.

ما الذي يمكن أن نقوله، فليس غريبًا أن هذا المسكين كاسينغازي كان سببًا في مقتل حاميه.

ذات مساء وبعد العشاء عندما كان بوغيمباي مسترخيًا ويعزف على الدومبرا وكنا نحن متفرقين ومستلقين على الأرض من التعب، دخل القائد ميخائيل العنبر غاضبًا كالثور الهائج وصاح قائلاً: "أيها الأوغاد وتغنون أيضًا"، وأخذ يضرب الشباب المسترخين على الأرض بالسوط مرة تلو الأخرى.

وقف بوغيمباي بسرعة وخطف السوط من يد ميخائيل، وقال له بغضب: "ميخائيل لقد طلبت منك عدم مد يديك". وهنا هدأ ميخائيل. وقال: "اسمعني يا بوغيمباي. لقد انتهيت لتوي من عد المعاول. هناك معول ضائع؟

وسيطر على المكان صمت تام، نعم ميخائيل على حق، فعندما سلم لنا الضابط أدوات العمل حذرنا قائلاً: "هذه أسلحتكم، وإذا كان سلاح الجندي هو البندقية، فإن سلاحكم هو المعول، وإذا أضاع الجندي بندقيته يقتل في مكانه، وإذا أضاع أحدكم معوله فإنه سيلقى نفس المصير".

قال بوغيمباي: "اصمتوا، وكل واحد يأخذ معوله، ويقف في الطابور". واتضح أنه لا يوجد معول لدى المسكين كاسينغازي.

حينها قفز إليه ميخائيل قائلاً: "أيها الوغد" وأخذ يضربه، ووقفنا نحن ننظر بصمت، فما الذي يمكننا أن نفعله. كاسينغازي مخطئ، ولكن بوغيمباي لم يتحمل، وقدم إلى القائد وقال: "مه، توقف، هذا يكفي".

فأجابه القائد: "كيف يمكنك أن تقول ذلك يا بوغيمباي؟ وأنت تعرف أنهم سيرسلونني بسبب ذلك إلى الجبهة".

كان كل شيء واضحًا لقد ترك كاسينغازي معوله في الخندق، وتدور الآن معارك ضارية هناك، ولا أحد يدري من في الخندق؟ قواتنا أم القوات النازية؟

أخذ ميخائيل يركل كاسينغازي القاعد على الأرض ويقول له:

- "اذهب لإحضار المعول أيها الوغد".

هنا ارتمى كاسينغازي على قدمي ميخائيل، وأخذ يبكي، ويقبل حذائه العسكري، عندها صرخ فيه بوغيمباي بغضب شديد: "أيها الأحمق لا تستطيع حتى أن تموت بكرامة". ودفعه تجاهي وغادر العنبر.

أدركنا أن بوغيمباي ذهب للبحث عن المعول، فذهبنا خلفه ولكنه كان قد اختفى في الظلام، فاضطررنا لانتظاره، وبعد ساعة

ونصف تقريبًا سمعنا صوته ضعيفًا يصدر من مكان ما، وكان بوغيمباي يناديني، فقمت بسرعة وجريت لملاقاته، وكان بوغيمباي يحمل المعول في يده وهو مبلول متسخ وزحف تجاهي ببطء شديد، وكانت تنبعث منه رائحة لذيذة، وأدركت أنه مصاب إصابة ثقيلة.

في هذه اللحظة وصل البقية، وحملنا بوغيمباي إلى العنبر، وهناك سخنا الماء وغسلنا بوغيماي، وربطنا جرحه، وكان حينها فاقدًا للوعي ولعله قد فقد الكثير من الدم وكان في خصره جرح عميق ناتج عن ضربة بالخنجر أو بسكين قوية وعندما استيقظ سألته عما حدث، وكان بوغيمباي يتنفس بصعوبة فتنهد بعمق وقال: "يسيكيه، لا أريد أن أتحدث عن هذا، فكل شخص يمكنه أن يطعننا".

عندها فهمت أن من أصابه هم من ضباطنا أو جنودنا المخمورين، ففي العادة كان الجنود يحسدون قوات المؤخرة، فيحاولون الإساءة إلينا بكل الوسائل، وربما أن هذا ما حدث لبوغيمباي.

جلسنا إلى جوار مرقد بوغيمباي طوال الليل، وقرأنا على روحه الآيات وانتظرنا لعله يستيقظ من الغيبوبة ولو لدقيقة واحدة فيودعنا، ولكن بوغيمباي مات مع الفجر دون أن يصحو من الغيبوبة.

عندما جاء القائد لم يتحرك أحد من الشباب من مكانه، وكان ميخائيل قد جاء برفقة الضابط الذي صرخ بغضب: "هيا قم أيها الوقح. ماذا حدث؟ زاد واحد أو نقص واحد".

قال هذه الكلمات وأمسك بعنق أحد الشباب الواقفين إلى جواره،

وأراد أن يدفعه للخارج، ولكن الشاب أبعد يده، بعدها قال الضابط شيئًا ما لميخائيل وانصرف. وهنا قال ميخائيل: "انتهى الأمر، أيها الشباب، يكفي لا تغضبوا الضابط لأن هذا لن ينتهي بخير".

بعدها خرج الاثنان، وبقينا واقفين ونحن نعرف أنهم لن يفعلوا أي شيء لأن موت شاب آسيوي لا يعني شيئًا للضابط الروسي، وما الذي يمكن أن يعنيه موت شخص في حرب تصب فيها الدماء كالسيل.

فجأة جاء ميخائيل يجري وقال: "أيها الشباب إن علي خان "توريه" قادم إليكم".

شعرنا بالارتياح عندما سمعنا بأن مندوب الحكومة القيصرية الذي وصل إلى الجبهة هو أحد مواطنينا علي خان، وتمنينا أن نلتقي به ونتحدث إليه، وهكذا تحقق حلمنا وسنلتقي به الآن.

عندما دخل بصحبة اثنين من الضباط الروس، أراد ميخائيل أن يقدمه لنا لكن علي خان منعه من ذلك بإشارة من يديه، وبدأ الحديث بنفسه وقال: "كيف حالكم يا إخوتي؟ الآن فقط وجدت الفرصة لألتقي بكم وأتحدث إليكم، علمت بأن فيكم قتيلاً، يرحمه الله، ما اسمه؟

أجبت: "اسمه بوغيمباي يا سيدي". ثم أضفت: إذا كان ممكنًا نرجو أن تسمحوا لنا بدفنه وفقًا لعاداتنا.

– ليكن ذلك ادفنوه اليوم. أنا أيضًا سوف أحضر الدفن، هل يوجد فيكم من يقرأ القرآن؟ يجب أن نقرأ على روحه.

كان فينا من يقرأ القرآن، وهكذا بعد الغداء دفنا بوغيمباي، وتركنا علامة على قبره، مع أننا كنا ندرك أن القبر لن يظل كما هو. لكن لم يكن أمامنا شيء نفعله. لا نستطيع نقل جثته إلى الأرض التى خلفناها وراءنا. وكما وعد فقد حضر علي خان "توريه" الدفن ودعا للميت بالرحمة وقرأ القرآن على روحه.

عندما عدنا إلى العنبر رأينا طعامًا على الطاولة، واتضح أن علي خان "توريه" قد ذبح خروفًا للعزاء، قعد جميع الرجال يقرأون القرآن، ويدعون للميت، ويذكرونه بالخير، وقد حدثنا علي خان "توريه" على طاولة العزاء بأن الحرب ستنتهي قريبًا وسيعيدوننا جميعًا إلى بلدنا.

لم أكن قادرًا على إخفاء احتقاري وأنا أنظر إلى كاسينغازي قريب "بوغيمباي" الفقيد كان يجلس وهو يلتهم طعام العزاء بشراهة، ويمضغه بملء فمه، وقد تلطخ وجهه بالدسم والشحوم، وهو يومئ إلى ولا يكاد يستطيع الحديث بوضوح لامتلاء فمه، والكلمات تتناثر من بين أسنانه مع نثرات الطعام: "لماذا لا تأكل الملفوف إنه مفيد جدًا، ويمكن أن يشفي من كل الأمراض". لكننى ما أجبت وجاهدت لصرف وجهى عنه.

بعد فترة وجيزة عدنا إلى بلدنا، ولكن شاء القدر أن يظل بوغيمباي البطل راقدًا على أرض روسيا البيضاء، وأن يعود الجبان الضعيف كاسينغازي إلى أرض وطنه سليمًا. وعندما ودع بعضنا

بعضا سألني صابر - وهو من منطقة بيسكارغاي - قائلاً: "لماذا تكون حياة الطيبين قصيرة بهذا الشكل؟". صمتّ ولم أجب عليه.

بعد ذلك تم القبض على علي خان "توريه" بتهمة "عدو الشعب" تهمة معدة لمن يخرج عن تعليمات الشيوعية، أو يحترم تقاليد الشعوب. وكنت دومًا أتذكر كيف أن على خان "توريه" في ذلك الوقت العصيب قعد معنا يقرأ آيات القرآن.

أنهى جدي قصته بالدعاء لروح على خان "توريه" وزملائه القدامى، ورددنا جميعا معه كلمة "آمين"، ومسحنا وجوهنا.

موت جايل خان

قرأت عن البيض[١] والحمر[٢] في الكتب، كما كان يمكن رؤيتهم في الأفلام وباختصار سمعت عنهم الكثير، أما عن المعارضين الذين يسميهم الشعب "بالسود"[٣] فلم أسمع عنهم إلا من كبار السن في قريتنا، وبالطبع فإنني ككاتب قصصي لا أنفع للعب دور كبير قريتنا، ومع ذلك سأحاول أن أنقل لكم قدر المستطاع ما ظل في ذاكرتي.

حدث ذلك في فترة تشكيل السلطة السوفيتية عندما تم تنظيم المجالس السوفيتية في المدن والقرى والبلدات وفي كل مكان. في تلك الفترة كان عدد الذين يحملون السلاح في الشعب أكثر من أولئك الذين يحملون المحاريث. فما كاد الشعب يتصالح مع المجالس الجديدة حتى دخل البيض إلى القرية فرارًا من الحمر، وشعروا بوجود السلطة السوفيتية وأخرجوا النشطاء إلى الساحة ورتبوهم في صفوف، ومن ثم أطلقوا النار عليهم، وأحرقوا المنازل، وهاجموا الناس المساكين كالسيل الهادر يدمرون كل ما يقف أمامهم، ثم اختفوا. ولم يكد الناس يتمكنون

---

(١) لفظ يطلق على الروس الموالين لسلطة القيصر ضد الشيوعيين الثائرين عليه.

(٢) لفظ يطلق على الثائرين الروس من الشيوعيين المناهضين لسلطة القيصر.

(٣) لفظ يطلق على القوميين من القازاق الذي كانوا يدافعون عن حق القازاق في حكم بلادهم ضد الروس سواء كانوا من أنصار القيصر أو من أنصار الشيوعية.

من التقاط أنفاسهم اللاهثة من عدوان البيض عليهم، حتى دخل الحمر من الجهة الأخرى للقرية، وبدأوا يبشرون الناس بالسلطة السوفيتية، وارتفع العلم الأحمر مجددًا على مبنى مجلس القرية، وتم البحث عن أولئك الذين سلموا النشطاء السوفيت إلى البيض، وصفّوهم في الساحة وأطلقوا النار عليهم.

قال أحد الحمر: "الكلاب يموتون موت الكلاب"، وقال آخرون: "للأسف ظل الأطفال المساكين وحيدين".

بمجرد أن شفيت الجروح، وبدأ الناس يمارسون العمل السلمي، ظهرت قوة مسلحة من جديد. وكان الشعب يسميهم "بالسود" على خلاف البيض والحمر، ولا يستطيع أحد أن يشرح سبب هذه التسمية، من المحتمل أن كبار السن كانوا يعلمون من هم هؤلاء الناس، ولماذا يحملون الأسلحة ويهددوننا بها.

في بداية الحكم السوفيتي كان في مجالس السلطة الكثير من الأشياء التي لم يوافق عليها الناس، وحاولوا بكل جهد أن يقاوموها، وتحدثوا بعقلانية عن ذلك. وكنت أنظر إليهم بحذر وتعجب، كيف يجرؤ هؤلاء الناس على الحديث في هذا الأمر؟ وعندما ذكرت أن لدى السود مرشدًا وقائدًا، وأنه بطل حقيقي واسمه جايل خان صرخ بي مدرس التاريخ فجأة ودون أن يدعني أكمل كلامي قائلاً: "إنه مخرب، مجرم هل تفهم ذلك؟"، واستدعى في اليوم التالي ولي أمري إلى المدرسة.

لم يتمكن أحد من إخماد "الحريق" إلا أخي الأكبر الذي يعمل في الحي واستدعي بشكل عاجل للمساعدة، وهكذا فإن هؤلاء السود "الباسماتشيين"[١] لم ينضموا للبيض أو للحمر، وكان عددهم قليلا، وكان اسم زعيمهم جايل خان، وكان المعارضون يكرهون النشطاء القرويين الداعين للسلطة السوفيتية، ولم تأخذهم بهم رحمة أو شفقة.

تعب دايرباي رئيس قسم الشرطة الجديد، فقد مر شهر كامل وهو يطارد المعارضين بجنوده القليلين الذين لم يتجاوزوا العشرات من الرجال، ولكن دون فائدة، فقد كان جايل خان يمتلك أنصارًا في كل قرية، وإلى جانب ذلك فإنه يعرف المناطق المحيطة كما يعرف راحة كفه لا يخفى عليه منها شق أو ربوة، وكان يلعب مع دايرباي المبتدئ كما تلعب القطة بالفأر، بل لقد تغيرت قواعد اللعبة، وصار جايل خان هو من يطارد دايرباي وليس العكس، فقد قتل السود عشرات الجنود من الشرطة من خلال عمليات سريعة متفرقة تنال من رجال دايرباي دون أن تحدث مواجهة حقيقية بين السود والشرطة.

أدرك دايرباي أنه لن يستطيع منفردًا القبض على السود في القرية، وبعد أن تعب وأرهق عاد إلى الحي.

كان دايرباي قد نشأ مع رئيس عصابة السود جايل خان في قرية واحدة، وهو يذكر جيدًا، كيف أن جايل خان كان في طفولته

---

(١) القوميون القازاق الذين قاموا على الفريقين الروسيين سواء فريق سلطة الثورة السوفيتية أو فريق السلطة القيصرية.

قاسيًا ومقاتلاً، وكان دومًا يلاحق الجميع ويقول لهم: "سأمسك بك في كل الأحوال" ويعض دايرباي على شفتيه متذكرًا مقاطع من مطاردته الفاشلة للسود، وأخذ يفكر: يجب عمل شيء، القبض على معارفه مثل أخيه الأصغر رحيم خان الذي يعتبر ناشطًا في الأجهزة الثورية، وبمجرد أن يتذكر دايرباي رحيم خان يشعر بالحسرة، فلطالما ضربه الأخير في طفولته، ولذلك ربما ظل نوع من الخوف منه في نفس دايرباي، ولو تم إرساله إلى مكان بعيد عن العين لطمأن دايرباي، ربما سجنه سيساعد، وهنا تذكر دايرباي جنديين قتلا، أحدهما قتله جابل خان إذن يمكن اتهام رحيم خان، وبذلك يتم الانتقام من الأخوين معًا، لم يستطع دايرباي الجلوس من شدة السعادة، وهكذا يقف رحيم خان أمام دايرباي ويبدأ بالكلام:

- استدعيتني فحضرت، ماذا تريد، أيها المدير دايرباي؟

فقال دايرباي متظاهرًا بعدم معرفة ما ينتظر جابل خان: رحيم، أنا وأنت تحت راية واحدة، وأريد منك النصح.

فقال رحيم خان: لا أريد أن أراك، ولا أرى أخي الصعلوك - وواصل حديثه دون أن يغير لهجته - في ذمتكم دماء الكثير من الناس الأبرياء ودموع الأمهات والأطفال، والفارق بينكما أنك تمثل السلطة، وهو مجرم أحمق ولكن إثمكم واحد فماذا تريد؟

قفز دايرباي وأخذ سلاحه ولكن رحيم خان لم يحرك ساكنًا.

أدرك دايرباي أنه قد بالغ، فقال بهدوء:

يا أخي لنترك الأحقاد القديمة، فليس الآن وقت تصفية الحسابات، أثبت إخلاصك للسلطة السوفيتية، ابحث عنه وقل له أن يسلم نفسه في هدوء، وإلا فإن إراقة الدماء لن تتوقف، فأنت تعرف أين يختبئ أخوك.

فكر رحيم خان، إن دايرباي على حق، فذنوب جايل خان تزداد يومًا بعد يوم، ويد السلطة طويلة ومن الأفضل أن يسلم نفسه وبسرعة.

قال رحيم خان متأففًا: نعم أعرف أين يختبئ.

- إذا كنت تعرف دلني، فقط أرني المكان، وسوف أتحدث معه شخصيًا.

- حسنا، لنفترض أنني وجدته لك، فهل تتصور أن يسلم جايل خان نفسه ببساطة؟ ورجاله يراقبون كل خطواتك، ولن تقبض عليه أنت بل إنهم من سيختطفك.

- نعم.. وأطال دايرباي التفكير. وأطبق على الغرفة صمت تام، أنهاه رحيم خان قائلاً:

- يوجد حل واحد فقط.

- فقال دايرباي بفرح: قله يا رحيم، أنت فقط دلني على مكانه، ويمكنك ألاّ تذهب معنا وسنتصرف بدونك".

قال رحيم خان وكأن أجداده ليسوا أجداد جايل خان: سيأتي أخي بكل تأكيد أيام عيد الأضحى إلى البيت، فهو لا يتخلف عن عادة الدعاء

على أرواح أجداده مطلقًا.

بدأ دايرباي يفكر، لماذا أصبح رحيم خان الذي انتفض في البداية عندما ذكرنا أخاه فجأة متفاهما معه بهذا الشكل؟ ألا يمكن أن يكون هذا فخا من رحيم خان؟ رحيم خان من نفس أصل جايل خان، فهل يمكن أن يخونه؟! لكن دايرباي تذكر طباع الذئاب الذين يقتلون إخوانهم المصابين والضعاف بأنفسهم قبل أن يصل إليهم أعداؤهم، فلربما أن رحيم خان أدرك أن نهاية جايل خان قد اقتربت فقرر القضاء عليه بنفسه؟

دار رأسه من كثرة التفكير، وكان هذا قد حدث معه من قبل، فبمجرد أن يفكر في شيء بعمق، يشعر برنين في رأسه. وفجأة تذكر قوة قبضة رحيم خان، وفكر ربما أنه جاسوس، لكن عقله ما هداه إلي شيء، وتعب من التفكير، وأخيرا قال لنفسه: "لا يهم، فيما بعد سوف أتصرف مع رحيم خان، في البداية أنتقم من أخيه".

كان لدى رحيم خان أيضًا ما يفكر فيه، فأخذ يفكر وقد بدت على وجهه قطرات العرق: يجب أن أقنع أخي بأي شكل، يكفي سفك الدماء، ومن جهة أخرى إذا لم أساعد الخنزير دايرباي الآن فإنه سيجد طريقة للانتقام.

لا أدري كيف تعطى السلطة لمثل هذا الغبي دايرباي، فهذا الأحمق بدون سبب كان يكره جايل خان، والآن سيحتفل بالنصر. وكل هذا بسبب أخي وهنا تخيل وجه أمه، وفكر في نفسه: مسكينة يا أمي،

فأنت لم تتخيلي لحظة أن أبناءك سيصبحون أعداءً، نعم إنه وأخاه عدوان، فقد وقف جايل خان منذ البداية ضد ممثلي السلطة، حيث بدأ المعارضة بالنقاش وبعد ذلك أخذ السلاح وانضم إلى المعارضة العسكرية.

لديه في فصيلته ثلاثون مقاتلاً نصفهم من الرجال الروس.

– سوف أساعدك للقبض على أخي يا دايرباي، فليس هناك حل آخر، وأنا أعرف بأن هذه حرب طبقات، وهنا لا يجب أن يكون هناك رحمة بالأهل أو الأقارب.

– رحيم، إني أقدر وضعك، من الصعب طبعًا أن تقف ضد أخيك. لكنك على حق فهذه حرب طبقات وسيتم القضاء عليها.

– لدي رجاء إليك، ألاّ تطلق النار على أخي يا دايرباي، وسلمه للمحاكمة فهو لن يقاوم.

– رحيم خان أنا لن أفعل شيئًا، لكنك تعرف أخاك، فبمجرد أن يراني لن يتمالك نفسه.

جايل خان سيسلم نفسه، وأنا أتحمل مسؤولية ذلك، وسأكون إلى جانبه ولن أسمح بإراقة الدماء.

– تذكر يا رحيم خان فقد قطعت وعدًا.

– دايرباي لا أحد يعرف جبنك وخوفك أكثر مني، لذلك فإني أحذرك فإن عيون الخوف كبيرة جدًا. خوفك قد يخيل إليك أن تصنع

أي شيء. تذكر سيأتي أخي دون سلاح فلا تخف، لكن إذا قتلته فإني سأقطع عنقك.

غضب دايرباي من سماع كلمات رحيم خان وشعر بعجزه أمامه، وحاول أن يتغلب على هذا الشعور بالعجز ولو في سريرته، فقال في نفسه: أيها الكلب، أنت أيضًا تريد أن تنهشني، سوف تدفع ثمن كلمتك هذه، أعطني وقتًا، وسأنتقم منك لكل شيء.

وما لبث أن رفع صوته:

– عم تتحدث يا رحيم؟ حقا إنه أخوك، لكنه ليس غريبا عنى، نحن أهل، اهدأ فلن أمسه بسوء إطلاقًا.

– لم يبق إلا عدة أيام ويحل عيد الأضحى، وبعد مناقشة تفاصيل العملية المقبلة افترق الرجلان.

سمعت عائشة صهيل الخيل تتعالى مؤذنة باقترابها من الحي، فظنت أن زوجها قد وصل لقضاء عيد الأضحى مع العائلة كعادته كل عيد وقفزت من مكانها لمقابلته، وبدلا من أن ترى زوجها رأت رحيم خان وهو ينزل من فرسه ببطء وبحس المرأة استشعرت بالخطر المحدق بزوجها، وتمنت لو تجد طريقة تبلغ فيها زوجها كي لا يأتي. أدرك رحيم خان ما تفكر به عائشة فقال: "لدي حديث مع أخي، لذلك جئت، لا تخافي فأنا وحدي".

بعد فترة وصل جايل خان فقالت عائشة فزعة: "أخوك ينتظرك

وأشعر أنه لم يأت بخير، أتوسل إليك أن تذهب وتنجو بنفسك؟".

– آه يا عائشة، لقد جاء أخي يوم عيد الأضحى المبارك، فكيف أترك البيت فى هذا اليوم، لا تخافي، لن يحدث اليوم شيء يسوء، وبعد ذلك سننظر ماذا يكون، أما اليوم فهو عيد، ويجب أن نحتفل به، بعد ذلك فليكن ما يكون".

نكس جايل خان بندقيته، وتوضأ على مدخل البيت، وهو يقرأ بعض آيات القرآن الكريم، ثم شرب بعض رشفات من كوب الشاي الذى قدمته له زوجته المذعورة، وأكل قطعة من رغيف الخبز الذى صنعته الزوجة بيدها احتفالا بهذا اليوم المبارك على عادة القازاق، ثم توجه إلى أخيه الذى يرقب عودته.

– "هه، ألا زالت سلطتك في مكانها؟".

صمت رحيم خان قليلاً، قبل أن يجيب على أخيه:

– هذه السلطة جاءت لتبقى طويلاً، هذا ما أريد أن أقوله لك، فارم سلاحك، وسلم نفسك، هذا سيخفف ذنبك.

– عن أي ذنب تتحدث؟ أنا أحلم بسلطة أخرى، أنتم لا تعترفون بسلطتنا، لذلك أنا وأنتم مذنبون بنفس القدر، وفي هذا نحن متساويان.

– سلطتك سراب لم تتحقق ذات يوم، إنك تدافع عن شيء غير موجود!

– هذا صحيح، أنا لا أعرف كيف يجب أن تكون سلطتنا لكني

أعرف جيدًا أن سلطتكم سيئة، فكيف تعتزمون حكم الشعب وأنتم جائعون وجهلة؟

- السلطة السوفيتية هي سلطة الفقراء، تذكر هذا جيدًا.

- ومن أكون أنا؟ غني أم ماذا؟ ألست فقيرا أنا أيضا؟! فلماذا ليس لي حق فى السلطة، بل صارت سلطة الفقراء تطاردني؟ كيف أصبحت أنا المذنب؟ اشرح لي ذلك؟ ولماذا يرسلوننا إلى سيبيريا، ويأخذون كل ما جمعناه بتعبنا وعرقنا؟

أراد رحيم خان أن يجيب، لكن قبل أن تخرج الكلمات من فمه، سمع صوت الشرطة تصل إلى الخيمة. فانفجر جايل خان.

- أيها الخائن، كيف هان عليك ذلك في مثل هذا اليوم، وقفز وأخذ بندقيته. فأخذ رحيم خان المسدس وصرخ فيه:

- لا تتحرك يا جايل خان، وإلا سأطلق النار عليك. أنت محاصر. فكر في الأطفال، إذا قاومت سيحرقون الجميع.

ومع هذه الكلمات أطلق رحيم خان عيارًا ناريًا في الهواء، وكان صوت الطلقة كافيا لدايرباي الذي هجمَ في نفس اللحظة على الخيمة ودون تردد شاهرا المسدس، وفي تلك اللحظة أدرك رحيم خان أن دايرباي قد يستغل هذه الفرصة ويقتل أخاه. فصرخ في دايرباي متوسلا: "سيسلم نفسه دون مقاومة" لكن دايرباي لم يبال بصراخ رحيم خان المتوسلة، وأطلق دايرباي طلقتين على جايل خان فانتثر دمه على

وجه رحيم خان، ودون أن يدرك هجم رحيم خان على دايرباي.

عندما وصل بقية الجنود كان رحيم خان يقف ويداه ملطختان بالدم وهو يحاول تنظيفها من شيء لزج عالق بها. وكان بجانبه دايرباي ممددًا ينفث أنفاسه الأخيرة، وعنقه مبتور. أحد الجنود ضرب رحيم خان على رأسه بمؤخرة بندقيته، وأطلق جندي آخر عليه النار من فوهة مسدسه.

يقال إن روح من يموت يوم عيد الأضحى المبارك تذهب إلى الجنة مباشرة، فهل أبواب الجنة مفتوحة للثلاثة أم لأحدهم فقط، لا أدري. كبار السن في قريتنا يفضلون الصمت في هذا الموضوع.

"عدو الشعب"

رواية إسيم

يحل الظلام ويُسمع صرير الباب، ويبدأ الرعب، يقف الحراس على باب الغرفة الصغيرة ولا يدخلون، ويحاولون إبعاد فتحات أنوفهم عن الهواء الخانق في الزنزانة ورائحتها العفنة، ويكتفون فقط بالنداء.

بعد دقيقة واحدة تخرج الضحية الدورية من عتبة الزنزانة. لا ندري إلى أين تؤخذ، ولكننا كنا نعلم أن من يخرج لن يعود ثانية. وأصبحت لدينا عادة، وهي أن نقرأ بعد مرور فترة من الزمن على خروج السجين المعوذتين وآيات قصيرة كنا نحفظها من القرآن الكريم على روح المسكين.

أجلس في هذه الزنزانة القذرة منذ ثلاثة أشهر، إذا كان حسابي للأيام ما زال صحيحًا فأحيانا كنت أختلف أنا وأخي القابع معي في هذا القبر الضيق على حساب الأيام، ولكننا كنا نتأكد بطريقة واحدة. ففي كل أسبوع يكون النداء على واحد من الموجودين، يأتون ويُخرِجون واحدًا من الزنزانة، ولا يعود إليها بعد ذلك.

حاولت أنا وأخي ألا نفكر فيما ينتظرنا عند سماع النداء علينا، أو ماذا يكون بعد خروجنا من هذه الغرفة. لكن خوفا صامتا كان يتسلل إلى نفوسنا بالتدريج، ونحن ندرك أنه سيأتي اليوم الذي سيطل فيه

حارس من باب الزنزانة وسينادي باسمي أو باسم أخي. الله وحده يعلم من سيكون الأول، يعتاد الإنسان على كل شيء حتى على مرارة السجن وقذارة الغرفة، بل الأكثر من ذلك، لقد كانت أمنيتي أن أظل أنا وأخي في هذه الزنزانة أطول وقت ممكن، ومن يدري لعل أمر الله يأتي ويتغير الوضع ويطلقون سراحنا، هكذا كنت أفكر، ولم يكن على وجه الأرض بقعة أفضل إليّ من هذه الزنزانة العفنة التي يجلس فيها أخي الأصغر إلى جواري.

دارت الأيام، يوم يليه آخر، وذهب الكثيرون إلى خلف الباب المزعج دون عودة، وكنا نعلم أننا لن نراهم بعد ذلك أبدًا. وكنا كالعادة ندعو لأرواحهم بالرحمة، ونودعهم في نفوسنا، فلم يكن الحراس يتركون لنا فرصة توديعهم في الزنزانة قبل الخروج، ونطلب لهم الرحمة، لكن كل واحد منا كان يفكر في مصيره المحتوم.

ذات مساء دخل الحارس ولم يقف – كالعادة – على عتبة الباب، بل دخل بخطوات سريعة إلى الزنزانة وتوقف في منتصف الغرفة القذرة، وقال: "سابينوف عليم". أظلمت الدنيا أمام عيني، فكم مرة دعوت الله برجاء وحيد: إذا لم يكن مكتوبًا لنا العيش معًا أن يأخذوني أنا أولاً. مسكين أخي، قام منحنيًا وتوجه نحو الباب، فقمت ولحقت به وأخذت أضع في يده قطعة من القماش.

– لا داعي.

وأبعد يدي عنه، ونظر إليّ وكأنه يريـد أن يعطينـي رسـالة بنظراته.

بعد خروج عليم سيطر الصمت على الزنزانة كالعادة، ودعا له الجميع بالرحمة وقرأنا على روحه القرآن. ووقفت وحيدًا بالقرب مـن الباب، ولم أستطع أن أصدق أنني لن أرى أخي مرة أخرى.

كيف يمكن ذلك؟ لماذا لم يكن لدي أي شعور بالخطر القادم، ليلة أمس رأيت في المنام بحيرة مالياباي القريبـة مـن بلـدتنا، وعنـدما استيقظت أخبرت أخي بأنهم سيطلقون سراحنا قريبًا وسنعود إلى بيتنا.

قال عليم: كل شيء بإرادة الله، لن يحدث لنا إلا ما كتب الله لنـا يا إسيم..

ولكن عيونه أضاءت، وبدت عليه السعادة، وحدثني فيما بعد أنه في تلك الليلة – أيضًا – رأى بحيرتنا مالبيـاي، وأدرك أنهـم قريبًـا سيطلقون سراحنا.

في تلك الليلة بقيت وحيدًا، وكان فكري مـع أخـي الأصـغر، وكنت لسبب ما واثقًا من أنه سيعود، شيء عجيب لمحته فـي نظـرة الوداع والعلامة الغريبة، هل هذه حقيقة أم حلم. لا أدري، ولكني كنت على ثقة بأننا سنلتقي.

هذا ما حدث ــ في الصباح الباكر فُتح الباب بهـدوء، وتملـك الذهول والخوف كل من استيقظ في الغرفة وما عرفوا كيف ينطقـون،

فقد عقدت الدهشة ألسنتنا جميعًا. رأينا عليمًا حيًا، معافًى، أما هو فقد اكتفى بأن أرسل إلينا ابتسامة دون أن ينطق بكلمة، ومدد جسده الضئيل وسط بقية الأجساد الملقاة على أرض الغرفة الباردة، وراح في نوم عميق.

لم يبقَ أمامي سوى أن أتمدد إلى جواره، وأنا أرتل بعض الآيات التي أحفظها من القرآن الكريم. منتظرًا أن يستيقظ أخي الصغير من رقدته ليحدثني بما حدث خارج هذه الغرفة. ولكنه لم يجب عن أسئلتي ولا أسئلة زملاء الغرفة التي طرحوها عليه محاولين معرفة ما يحدث خارج جدران هذه الغرفة اللعينة.

في مساء اليوم التالي استُدعي عليم مجددًا خارج الغرفة، ولكن أحدًا لم يقرأ القرآن على روحه هذه المرة، وفي الصباح عاد من جديد، واستمر الأمر على هذا الحال لمدة أسبوع كامل. في كل مساء يخرج عليم، ويعود في صباح اليوم التالي.

لم يتم استدعاء عليم بعد ذلك، وشعر الناس في الزنزانة بالمرح آملين بقرب الفرج، وبعد فترة قصيرة أطلق سراح عليم.

- "إسيم، قريبًا ستخرج أنت أيضًا من السجن".

بهذا همس عليم في أذني قبل خروجه من الزنزانة. وحينها رأيت لأول مرة الدموع في عيني أخي الأصغر الذي كان دومًا متزنًا ومتمالكًا أعصابه. بعد قضاء خمسة أشهر في السجن، عدت أنا أيضًا إلى أقاربي، ولا أستطيع أن أتذكر ذلك اليوم الذي التقيت فيه بأهلي

وأولادي بعد فراق طويل دون أن تذرف عيوني الدموع. وعندما هـدأ الوضع بالتدريج وعادت الحياة إلى طبيعتها، طلبت من عليم أن يحدثني عمًا حدث معه.

رواية عليم

هل تذكر ذلك التتري الفظ الذي لم تكن له ملامح على وجهه إلا آثار مرض الجدري التي تغطي وجهه؟ ذلك الرجل الذي حقـق معنـا ذلك الصيف؟ يُقال إن القتلة ومصاصي الدماء الـذين يقتلـون النـاس الأبرياء ليست أرواحهم كبقية البشر، وأن صـدورهم فارغـة بـدون قلوب، ولذلك فإنهم جبناء جدًا، والجبن في الإنسان هو الـذي يدفعـه للقسوة على الآخرين والعبث بهم، وكلما زاد عبثه بالناس أصبح الوقح أكثر جبنًا. هكذا كان مدير السجن قاتلاً ومصاص دماء.

بعد القبض علي قدموا بي للتحقيق أمامه، وحينما كنـت أجيـب عن أسئلة المحققين، انقض علي فجأة، ووضع وجهه أمام وجهي حتى تلاقت أنفاسي بأنفاسه الكريهة، وهو يصرخ "سوف أقضي عليك أيهـا النذل". أما أنا فقلت له فقط "إن حياتي بيد الله فقط وليست بيدك".

لم أكد أنتهي من كلماتي هذه حتى صفعني على وجهي بكل قوته وانهال علي بالشتائم، وهو يدفعني في صـدري حتـى وقعـت علـى الأرض، ونزف الدم من أنفي، وفقدت وعيي، وعندما استيقظت كـان وجهه القبيح أول ما رأته عيني، وكنت ممددًا على الأرض أما هو فقد

كان منحنيًا يتأمل وجهي بتمعن، وقد وضع قدمه على صـــدري، وقــد ضاقت أنفاسي، لكنني ما حولت نظري عنه، وبعد دقيقـــة واحـــدة لـــم يتحمل نظراتي فأدار وجهه وذهب إلى ناحية أخـــرى بالغرفـــة. بعــد لحظات عاد إلي مجددًا ولكن بوجه آخر، وفي يده منشفة مبلولة وقـــال لي: "سامحني، أيها العجوز، خذ امسح وجهك".

وقذف لي بالمنشفة فمسحت الدم من وجهي وقمت مـــن علـــى الأرض، وقعدت على كرسي التحقيق من جديد. أما هو فقد ظل صامتًا وهو يجلس على كرسيه خلف المكتب وهو يرسم شيئًا ما على الورق.

- يا بني.
- (حتى هذه اللحظة لا أدري إن كنت أنا من تحدث إليـــه، أم أن شخصًا آخر مستخدمًا صوتي)

هكذا قال لي عليم وهو يخبرني في بيتنا بقريتنا بسر خروجنـــا من السجن.

- يا بني، إن في بيتك إنسانًا مريضًا.
- أيها الوقح، ما شأنك أنت بذلك.

قالها منتفضًا وقد ضرب بكلتا يديه على مكتبه وكأنه عاد لجنونه من جديد. واستمر التحقيق معي وأنا أجيب عن الأسئلة كما أســتطيع، وهو يكرر تهديدى بأنه سوف يقضي علي، ولكن صوته كان مختلفـــا

هذه عن المرة الأولى. لكنه في النهاية أمر أن يعيدني إلى الزنزانة مرة أخرى.

في المساء التالي، عندما أخرجني الحارس من الزنزانة في تلك الليلة ذهب بي إلى الغرفة التي تم فيها استجوابنا، وهناك كان يجلس الشخص نفسه. لكن وجهه كانت له ملامح هذه المرة. وقال لي: اجلس أيها الشيخ، سوف أقص عليك، ونظر إلي المحققين الذين كانوا في الغرفة وقال: وأنتم أيضًا استمعوا إلي.

رواية مدير السجن:

كنت قبل الثورة أتعلم القراءة والكتابة في الكُتاب، وكانت أمي امرأة مؤمنة وكان والدي يعمل بالتجارة، لم تكن تجارته كبيرة، فنحن لم نكن أغنياء، لكن تجارته الصغيرة تلك كانت كثيرًا ما تأخذه خارج البيت، ونادرًا ما كان يوجد معنا، وكانت أمي هي التي تعنى بشئوننا، ومع ذلك كانت حياتنا جيدة.

فجأة جاء الحُمر، وانقسم العالم إلى قسمين. وفكر والدي أن يُلحقني بفرقة الخيالة في الجيش الأحمر عبر صديقه الروسي التاجر، وكانت أُمي قد حدثتنا أنها رأت في المنام والدها الذي أخبرها بأن الحمر سينتصرون على البيض، لذلك فقد نصحت والدي أن يضمني إلى فرق الجيش الأحمر.

تم تعييني قائدًا للفرقة علـــى جهــودي فــي محاربـــة البـــيض وحصولي على الأوسمة المختلفـــة وتزوجـــت، واســـتقرت حيـــاتي. ورشحت لعمل أكبر تقديرًا لجهودي، فالتحقت بجهاز المخابرات.

وصلت إلينا شكوى سرية أن أحد رجال الدين الصالحين واسمه "حضرة" كان يجمع الناس في بيته، وأنه يـــدعوهم لمقاومـــة الـــسلطة السوفيتية، وجاء الأمر إليّ أن أعتقله، وفي حالـــة المقاومـــة أن أقـــوم بالقضاء عليه.

الأوامر دومًا صريحة ولا يستطيع أحد أن يخالفها وإلا ســـيفقد رأسه، وليس عمله فقط وكان قد سبق لي من قبل أن اعتقلت أشخاصًا، ولكن هذه أول مرة أتوجه فيها لاعتقال أحد رجال الـــدين وخـــصوصًا أحد الصالحين. واستعددت للذهاب.

- حميد الله لا تذهب إلى أي مكان.

قالت لي زوجتي. سألت لماذا؟ فأشارت إلـــى بطنهـــا الممتلئـــة أمامها، وكانت تعرف جيدًا نوعية عملي، ولكنها بمجـــرد أن علمـــت بأنني ذاهب لاعتقال "حظرات" بدأت ترجوني ألاّ أفعل ذلك، وقالت:

- "لا تتحمل إثمًا ولا تغضب الله إننا ننتظر طفلاً، ارحم الطفـــل على الأقل، فإنهم سيلعنوننا". لكن هل يمكن لأحد موظفي المخـــابرات السوفيتية أن يستمع لزوجته؟!

في المساء أخذت اثنين من الجنود للمساعدة في تنفيذ المهمـــة، وتوجهت إليه، كنت أتوقع أن أرى إنسانًا عجوزًا متهالكًا، إلا أني رأيت رجلاً كبير السن لكنه قوي ومتزن.

اقتحمت الغرفة صائحًا: "ماذا تفعل أيها العجوز؟ هل تريـــد أن تقف ضد السلطة السوفيتية؟ سوف أريك كيف تكون معاداة الأغلبية؟".

فقال: يا ولدي إننا جميعًا بيد الله العلي القدير، وإذا كان مقـــدرًا لي أن أموت، فإن تلك إرادة الله، وأنا لا أقترب من سياستكم.

أدركت أنني إن لم أوقِف هذا العجوز فإنه سيغزو عقولنا، وربما أحاكم أنا بتهمة الاستماع إلى كلامه هذا. اعتقلت العجوز وأخرجته من القرية، وفي الطريق قابلتنا مقبرة فيها مزار، فقال لي العجوز:

- "يابني، إنك مسلم فاسمح لي أن أصلي على أرواح أجدادي للمرة الأخيرة".

تملكني غضب عارم من جرأة هذا الـــشيخ الـــوقح، وضـــربته بالسوط ودفعته، مطالبًا إياه ألا يتوقف، وأن يواصل السير وإلا لن يرى خيرًا، لكنه توجه نحو المزار دون أن يقُول حتى كلمة واحدة.

لا أدري الآن ما الذي حدث لي حينها، فقدت أعصابي وأمسكت بمسدسي وأطلقت على العجوز طلقتين دون تركيز، قفز أحد المرافقين من على فرسه وقال:

- "آه يا للأسف"

وجرى تجاه العجوز ورفعه، وكان العجوز يتلو آيات من القرآن قبل أن يُلاقي ربه وبعد دقيقة واحدة توفي، سمع سكان القرية صوت الطلقات النارية فهرولوا نحونا، فقال المرافق: "أيها المدير إن الموقف هنا خطر، فلنذهب".

في الطريق قررنا أن نقول إننا قتلنا العجوز عندما حاول الهرب، عدنا متأخرين، وفي الصباح ذهبت إلى البيت.

كان بانتظاري خبر حزين: عندما غادرت بدأت آلام الوضع لدى زوجتي فوضعت طفلاً ميتًا، ومع أن زوجتي لم تقل لي شيئًا، فقد كنت أشعر بما يختلج في نفسها، كانت تعتبرني المسئول عما أصاب وليدنا المسكين.

لم أتحدث مع زوجتي عن الأمر بعد ذلك، لكنها ظلت حزينة دائمًا، ولم تكلّ من مطالبتي بترك هذا العمل. كيف لا تعرف هذه المرأة أن رجل المخابرات لا يستطيع أن يترك عمله بسهولة حتى إن أراد ذلك.

بعد فترة من الزمن حملت زوجتي مجددًا، وأنجبت طفلة، أصبح عمرها الآن أحد عشر عامًا ولكن طفلتنا المسكينة تتعذب كثيرًا أمام عينينا، ففي كل مساء تصاب بنوبة صرع، ونقف نحن عاجزين أمامها عن أية مساعدة، ومع ذلك كنا نتناوب – أمها وأنا – البقاء إلى جانب سريرها يوميًا.

ذات مرة أخبرت زوجتي بأنه يوجد في السجن شخص يعرف أن ببيتنا مريضًا وأظنه معالجًا روحانيًّا. ومنذ أن سمعت زوجتي ذلك وهي تطالبني أن أحضرك إلى البيت.

أثناء التحقيق نظرت في عينك، فتذكرت ذلك العجوز "حضرة" والنظرة التي كانت في عينه وهو يلفظ أنفاسه، إنها النظرة ذاتها التي تطاردني، والآن أشعر بأنه لو أن "حظرات" نظر في عيني هذه النظرة قبل أن أطلق النار عليه لشلت يدي عنه، هذه هي حقيقتي أيها الشيخ، فسامحني إن استطعت، أما عقابي الذي أستحق على ما قدمت يدي، فلا أحد يستطيع أن يعاقبني أكثر مما أنا فيه الآن، وإذا شفيت ابنتي فسوف أطلق سراحك أنت وأخيك، وسأترك العمل في أجهزة الدولة. قالت لي المرحومة أمي ذات يوم وأنا طفل صغير لا أدرك بعد: "إن الله يغفر الذنوب جميعا"، وسأخصص بقية حياتي لخدمة العلي القدير.

متابعة رواية عليم

كانت زوجة مدير السجن طيبة كريمة ولطيفة، فقد دعتني عند ولوجي البيت لشرب بعض من الشاي الساخن لأتدفأ به من جو الشتاء القارص، لكنني رفضت، وطلبت أن أرى المريضة أولاً.

عندما نظرت إلى الطفلة أدركت أن لديها الصرع، وأن هذا المرض هو الذي سبب لها كل هذا الإرهاق والشحوب الذي كسا وجهها. أنا أيضًا كنت مرهقًا وشاحبًا من العيش والإقامة في السجن،

وأظن أنها على سوء حالتها كانت أفضل مني حالاً، لذا لا أدري من يعالج من.

بدأت أقرأ آيات القرآن الكريم وأنا أمسح بيدي فوق رأس الطفلة المستند إلى صدري، وكان جسدها يرتعد ويتصلب أول الأمر، لكن بعد فترة من الزمن شعرت بأن حالة الطفلة تتحسن، وأن أطرافها المتخشبة قد تراخت، وأنها تخلد الآن إلى النوم في هدوء. كان العرق يتصبب مني، فوضعت الطفلة في السرير للنوم، ونبهت والديها أن على أحدهما أن يلازم سريرها، وأن يشعرها بالأمان إذا ذعرت أثناء النوم.

خرجت إلى الغرفة الثانية وغسلت يدي، وجددت الوضوء، وأحضرت ربة البيت طبقًا كبيرًا مترعا باللحم ووعاء آخر مليئًا بالشوربة الساخنة، حاولت الاعتذار، لكن ربة البيت أصرت على أن أتناول الطعام، وكذلك أصرت على معدتي الخاوية التي يقرصها الجوع بصفة دائمة، وإن كان هلع المسجون القابع في زنزانة ضيقة ينتظر الموت يخفف من ألم جوعه.

سميّت الله، وأخذت قطعة من اللحم وأكلتها، وشربت بعض الشوربة، وصليت ثم قمت من مكاني، ولم يبق أمام صاحب البيت إلا أن يخرج بعدي ليعيدني إلى السجن وفي الطريق إليه لم نتبادل الحديث، فكلانا ما كان يعرف ماذا يقول للآخر. وهكذا تكرر ذلك عدة أيام، وفي اليوم السادس شُفيت الطفلة، وانتعشت وأصبحت مرحة سعيدة، فطمأنت ربة البيت على سلامة ابنتها، وعدت إلى السجن.

بعد فترة قصيرة استدعاني مدير السجن وقال إنك حُر طليـق، فأخذت أتوسل إليه أن يطلق سراح أخي الأكبر بدلاً مني.

فقال المدير: لا أستطيع، فقد قررت زوجتي أن تتركنـي هـي وابنتي، إذا لم أطلق سراحك فورًا، أعدك بأن يُطلق سراح أخيك بعد ثلاثة أو خمسة أشهر. وعلى هذا افترقنا.

مواصلة رواية إسيم

واصل عليم حياته الطبيعية بعد إطلاق سراحه، فكـان يعـالج الناس ويدعو لهم ويمارس مهام الإمام، لكنه في حياته الخاصة انعـزل عن الناس، وبدأ يتهرب منهم لأيام عديدة يقرأ فـي الكتـب المدونـة بحروف عربية التي احتفظ بها رغم منع السلطات لذلك وتجريمها لمن يفعله، ولم يكن يخرج من خلوته إلا لداع شديد ولقـضاء حاجـة مـن حاجات القاصدين الذين يلحون عليه.

أما أنا فلم أشأ أن أفكر بالعبادة والانعزال، بـل علـى العكـس حاولت أن أكون في خضم الأحداث وأن أعرف كل شيء وأشارك في الأحاديث والنكت والهزل.

كان ضيوفي غالبًا من موظفي المحافظة والحي، وكلما لاحـت الفرصة أمامي كنت أسأل عن مدير السجن – حميـد الله، وذات مـرة قال لي الشرطي السمين حسين الذي كان رئيس قسم الشرطة: "سجنوا

الغبي حميد الله، فقد ذهب إلى المسجد، وبجيبه البطاقة الحزبية" ولـــذلك فقد أعدموه، ودخلت زوجته المصحة.

طاف بعقلي طفلة حميد الله التي بفضلها بقينا أنا وأخي أحيـــاءً، أين هي الآن؟ وماذا تفعل بعد أن تيتمت وأصبحت وحيدة في هذه الدنيا بلا أم ولا أب. لكنني سكت، كما فضلت ألاّ أقول شيئًا لعليم عما جرى لهذه الأسرة.

رواية المؤلف

كم من الناس شُوهت حياتهم، وضاع مصيرهم، وكم قتل مـــنهم أثناء حكم السلطة السوفيتية الذي لطخ بدماء الأبرياء، وكم مـــن ظلـــم وقهر تواروا خلف قناع العدالة والمساواة. لقد كان ذلك هو الزمن الذي لم يخف الإنسان فيه من الله، بل خاف من الإنسان الذي يحمل الـــسوط والمسدس بيده، فقد حددت آلهة السلطة الجديدة قواعد الحياة والمـــوت، وسمموا الأنفاس التي يستنشقها الناس الأحرار فى أوطانهم فقط لأنهـــم لم يؤمنوا بصحة ما تقول آلهة الدولة من شـــعارات ودعايـــات، أولـــم يسلموا لآلهة المخابرات بحقها بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة من حياة المجتمع. لقد تخلصوا من إله، ولكنهم اخترعوا بدلاً منه مئات الآلهـــة. وهذه الشعارات والدعايات التي مات بـــسببها الملايـــين مـــن البـــشر البسطاء سقطت في ساعات معدودة، وانهارت السلطة السوفيتية التـــي وقفت لعقود من الزمان، لكن على قدمين من رمال.

في ذلك الحين لم يعد هذان العزيزان على نفسي الأخوان علـيم وإسيم أحياء، ولكني أذكر كيف أن إسيم أقعدني على قدميه ذات مـرة – وأنا ما زلت طفلاً صغيرًا – وقال لي: "لا تثق كثيرًا بهذه الـسلطة، فإنها لن تطول، اعمل، نفذ كل ما يأمروك به، ولكن حافظ على روحك نقية مؤمنة لزمن أفضل".

لم تكن تعجبني كثيرًا كلمات جدي، فمن أنا حتى لا تعجبني هذه السلطة الحمراء التي تحرر الشعوب، وتقضي على الفقر كما يقول لي المعلم في المدرسة وفي كل الكتب التي كنت أطالعها، ومن هو جـدي ليعرف أكثر من معلمي المدرسة ومن رجال الإذاعة ومن رجال الدولة كلها.

لكن ما كنت أستطيع أن أصارح جدي بما في ذهنـي، كمـا أن شيئًا ما داخلي كان يقول لي إن جدي يعرف أكثر. والدليل أنه يـشعر بما يدور داخلي، وأنني ما كنت معجبًا بما يقول، أو لعله كـان يـشك أنني ما زلت صغيرًا قد أنسى بسرعة ما يقول، فكان يكثر من تكـرار ذلك عله يثبت في ذهني، ولكنني أنسى كلامه، بل كنت أفكر حينها في نفسي قائلاً: "ماذا يمكن أن آخذ من رجلٍ أميٍّ عجوز؟"

لم أكن أدرك – وقتها – أن جدي إسيم كان من الرجال الأواخر من الجيل الخير الذي كان يمتلك داخل قلبه العلم الحقيقي، فقـد ظـل جدي وجيله مخلصين لمبادئهم، ولم يستسغ تعاليم القائد العظيم.

كنت ألبس رابطة عنق حمراء، وأغني أغاني عن لينين العظيم، وكان جدي ينظر إليَّ ويستمع إلى ما أترنم به وهو يتنفس بحرقة وألم، وكان يقول لي بصوت حزين، والحسرة بادية على قسمات وجهه: "أحسنت يا حفيدي، أحسنت!!"

الذنب

مر يومان منذ أن تأكد الحراس أن عبد الستار لم تعد في جسده الواهن حياة تذكر، فجروا جسده المتهالك على الأرض إلى الخارج، وقذفوا به في الغرفة المزدحمة.

لم يأكل عبد الستار منذ عدة أيام، ومع ذلك فهو لا يشعر بالجوع من شدة الألم الذي يعانيه، لكن عقيدته ظلت نقية، ولم يتزعزع إيمانه رغم كل ما لقي من صنوف التعذيب والإهانات.

كانت الأفكار تتزاحم في رأسه، وكان يدرك أنه لن يخرج من هنا حيًا، وأدرك أن ساعته قد اقتربت، وليس فيمن حوله من الناس من سيغلق له عينيه بعد الموت وسيدعو له بالرحمة ويغسل جسده ويصلي عليه قبل أن يواريه التراب حسب شعائر الدفن الإسلامية. توجه عبد الستار بقلبه إلى خالقه، وبدأ يتلو على نفسه الأدعية التي كان يتلوها من قبل على جثث المسلمين المتوفين، دعا ربه أن يرحمه ويغفر له ذنوبه.

مر اليوم الأول واقترب اليوم الثاني من الانتهاء، ولكن روح عبد الستار لم تشأ أن تفارق ذلك الجسد المُضنى، وفجأة تذكر كيف أن كبار السن يقولون إنه إذا حانت الوفاة، فعلى الإنسان أن يتذكر ذنوبه وأن يستغفر الله منها، حتى تفارق الروح الجسد، هل يريد عبد الستار أن يظل ممددًا دون موت؟

الذنب، الذنب، ما هو الذنب؟

قرر عبد الستار أن يتذكر ذنوبه التي ارتكبها طيلة حياته والتي منعت روحه من مفارقة جسده رغم أن الوفاة قد حانت لحظتها وهو لا يشك أن وفاته حانت. فلم يمت حتى الآن.

وعلى الرغم من محاولات التذكر فلم يخطر على باله شيء، هل حقًا لم يرتكب في حياته ذنبًا؟! هو لم يطمع يومًا فيما ليس له، لم يحاول أن يفرض إرادته على الآخرين، لم يسع يومًا لنيل درجة أو مال من الدولة، لم يشِ بأحد، ولم يتقرب لأحد، ما سرق، وما قتل ولا عذب ولا أهان أحدًا، هو يحيا على الأرض التي خلقه الله عليها، وعليها عاش آباؤه وأجداده من قبل، يأكل من خيرها ويعطي حق الزكاة، ويتصدق بما يستطيع، فما هو الذنب الذي منع الوفاة وجعله بين بين ليس من الأحياء ولا الأموات؟ إلا إذا كان قدومه إلى هذه الحياة ذنبًا! لكن لا، فهذه إرادة الله. أستغفر الله العظيم. لكن...

هل من الممكن أن تُرتكب الذنوب البشرية بإرادة الخالق؟ لا – والعياذ بالله – كيف يخطر على بالي – وأنا مسلم مؤمن بالله – مثل هذه الفكرة؟ خلق الله الإنسان لفعل الخير، وكل الذنوب بسبب الشيطان الرجيم الذي يوسوس في نفس الإنسان. هكذا يؤمن عبد الستار وهكذا يؤمن كل مسلم. لكن هل لي ذنوب بالفعل أمام الله؟

انتظر عبد الستار لحظة قبل أن يسترسل في أفكاره، إذا لم يكن لدي ذنوب فلماذا أموت في العشرين من العمر؟ لابد أنني آثـم أيـضًا كغيري من آلاف الأحياء على وجه الأرض.

- لا بد، نعم لا بد أن يكون هناك ذنب.

أغلق عبد الستار عينيه وأخذ يتذكر، وخطـرت علـى ذاكرتـه مقاطع مبتسرة مبعثرة من طفولته، لكنه عبثًا يحاول أن يمـسك بـأي شيء ربما تصرف بشكل سيئ مع أمه أو مع معلمه، ربما صفع طفلاً ما، أو خاصمه، أو صرخ فيه أو آلمه؟ لكن ذكريات طفولته التي مرت أمام عيني مخيلته كانت خالية من كل ذلك، وكأنها صفحات بيضاء في دفتر نظيف تناوله طفل لتوه ولم يخط فيه شيئًا.

لم يستطع المحتضر أن يتذكر ولو ذنبًـا واحـدًا ارتكبـه فـي طفولته... لحظة، لحظة هذه هي...وبمجرد أن تـذكر عبـد الـستار الأحداث منذ فترة طويلة احمرت وجنتاه خجلاً.

في قريته آخر سنوات الحرب، كان المُعـاقون الـذين أنقـذتهم إعاقتهم من مواصلة الحروب الغبية التي لا يعرف لماذا تندلع وتحصد الملايين من البسطاء في حين يقبع الذين أشعلوها في قصورهم آمنـين متخمين بالطعام. كان أولئك المعاقون مع الشيوخ، والأطفال، والبنـات الشابات يعملون معًا في أجران القمح، وكان يعمل معهم صغار الـسن الذين لم يحن وقت تجنيدهم بعد المراهقين مثل عبد الستار و.... أنـت

تعرف في كل قرية يوجد كسالى وأغبياء مثل كــويكين زميــل عبــد الستار.

ذات مرة، سحب كويكين عبد الستار على جانب وهو مــتحمس جدًا وقال له:

- اسمع، اتضح أنه لكي تُصبح رجلاً عليك أن تجــامع امــرأة، وأنا أيضًا كبقية الرجال أجامع امرأة وهذا شيء ممتع جدًا.

ضحــك كويكين بصوت عــالٍ عندما رأى احمــرار وجنتــي عبد الستار من الخجل، ولاحظ أن عبد الستار يحاول الانصراف، لكن كويكين أمسك يده وقال:

- "إيه، يا طفل، لم أنهِ كلامي معك بعد، فأنت أيضًا تــستطيع فعل ذلك اليوم أو غدًا.

- لا تثرثر يا كويكين وانصرف. قال عبد الستار. لكن كويكين لم يتحرك فاستدار عبد الستار لينصرف هو لكن كــويكين لحــق بــه وحدثه أنه سمع حوارًا بين شابتين في جرن القمــح، جنــات وألمــا[١] (هذان هما اسماهما)، وكانتا صديقتين متلازمتين، هما قررتا أن تقنــع جنات عبد الستار أن ينام معها، هذا هو الخبر المهم الذي أراد كويكين أن يبلغه لعبد الستار على عجل.

---

(١) جنات: اللفظ التركي للاسم العربي "جنة"، و"إلما" لفظ تركي بمعنى التفاح

- كانت جنات - من قبل - تظهر تجاه عبد الستار اهتمامًا ملحوظًا، تارةً تمد يدها إلي شعره وتلعب به، وأخرى تقرب طبق الطعام منه وتحاول أن تطعمه بيديها في فمه. لكنه ظن أنها تفعل ذلك مجاملة لأنها زوجة أحد أقربائه من بعيد. لكن الآن وبعد كلمات كويكين...

حل المساء، وبدأت تتحقق كلمات كويكين. لم تبتعد جنات عن عبد الستار ولو للحظة واحدة طوال الوقت. حاول هو أن يكون بعيدًا عنها قدر الإمكان، ونجح بعض الشيء في ذلك. لكن في الليل شعر عبد الستار بنفس ساخن لشخص ما بجواره، وقبل أن يفتح عبد الستار عينيه ليرى من بجواره، أخذه هذا الشخص في أحضانه، وضمه إليه بحرارة، أراد عبد الستار أن يصرخ، لكن اليد الساخنة أغلقت فمه.

- عبد الستار حبيبي، اسكت، هذه أنا جنات، تعال لنتسلى قليلاً ولكن لا تخبر أحدًا أبدًا. هكذا، هكذا يا حبيبي.

همست جنات بهذه الكلمات، واستلقت على ظهرها ساحبة عبد الستار معها بين ذراعيها البضتين، هدأ عبد الستار إلى حضنها الغض الدافئ لحظة، واستسلمت هي له، لكنه قام عنها وفر هاربًا، وحاولت هي أن تلحق به، لكن أثره اختفى بين قش القمح الذي يملأ المكان.

في الصباح رأى عبد الستار ضيفته الليلية ولم يكد يعرفها، لقد تغيرت كثيرًا وتورمت عيونها، وشحب وجهها، مسكينة؛ يبدو أنها بكت طوال الليل.

في اليوم التالي، لم يرها في العمل، فقد انتقلت جنات من العمل معه في جرن القمح إلى عمل آخر. لكن هل يعد هذا من ذنوبه؟!

يحاول عبد الستار من جديد البحث في ذاكرته النقية عن أي تصرف سيئ. ولكن ليس هناك ما يمكن حقًا أن يسمى إثمًا، فهو لم يشارك مطلقًا في العراكات بين الصبية التي كانت تملأ المراعي المنتشرة حول قريته كل يوم، بل أكثر من ذلك فكثيرًا ما كان يعتدي عليه بعض الأطفال ويضربه، لكنه ما كان يحاول الانتقام ممن اعتدى عليه، وكان يكتفي أن يقف صامتًا وينظر إلى المعتدي عليه حتى يفيق المعتدي لنفسه، ويكف عن حماقته.

اعتصر عبد الستار رأسه يبحث عن ذنب، وفجأة خالجته رغبة جامحة إلى حد الألم في أن يكون مذنبًا، لماذا لم يفكر بذلك من قبل: الإنسان المذنب يفارق الحياة بسهولة، بينما يصعب الموت على الإنسان غير الآثم، كالطفل الرضيع يفارق الحياة، لكنه يتمنى لو كان ارتكب ولو ذنبًا واحدًا في حياته، إلى درجة أنه شعر بأن هناك قوة وحشية تتحرك فيه.

بدأ الآن يتذكر جنات بأسف شديد، فلو أنه أذنب حينها لما كان الآن ممددًا في هذه الغرفة الباردة، فها هو كويكين المذنب حتى أخمص

قدميه يعيش سعيدًا، بل لقد نال درجة كبيرة في حياته حتى أصبح يعمل رئيسًا لمجموعة العمال في المزرعة القديمة التي يمتلكها أهالي قريته، ثم أصبحت مزرعة تعاونية تديرها الدولة، ما فائدة أنني لم أرتكب ذنبًا في حياتي؟ فأنا أفارق هذه الحياة نقيًا طاهرًا دون ذنوب. يجب أن أحاول النهوض، ربما عندها أستطيع أن أُذنب، ولكنه متسمر في مكانه، وكأنه قد تحول إلى حجر، فقط يده اليمنى تبدو عليها آثار الحياة.

تذكر عبد الستار مجددًا قريته.. آه، أين هي الآن؟

- "سأنتظرك" هكذا قالت له لحظة الوداع:

- "نعم، انتظريني، يا غالية".

قطع تفكير عبد الستار صوت الباب المُنفتح، وانحنى الحارس ذو الشارب لينظر إلى المعتقل الممدد على الأرض. كان والدي في مثل هذه الحالات حينما ينحني على جسد إنسان متوفى يقول: "أستودعك الله"، فقلت أنا لنفسي: ""أستودعك الله".

قرر عبد الستار أن يُمسك بشارب الحارس لعله يرتكب ذنبًا، فرفع يده اليمنى ولكنها ارتعشت وسقطت دون أن تصل إلى وجه الظالم. ما هذا العجز؟ وما الذي يجب عمله الآن؟

عندما خطرت لعبد الستار فكرة أن يركل الحارس، ولكن قدميه لم تتحركا، وفجأة جاءته خاطرة. "لكن هذا لا ينفع، لا فائدة من نزع

شارب الحارس، فليس ذنبًا أن أنتقم من هذا المجرم، على العكس فهذا ثواب، لأن هذا الوقح يستغل السلطة أمام عينيك، ويضرب المساكين والأبرياء، ويتلذذ بتعذيبهم ثم يقتلهم، لا لكي تكون إنسانًا يجب أن تكون نقيًا طاهرًا خاليًا من الذنوب، ولكن عندما تصبح كذلك، يُعتبر هذا ذنبًا".

بدأ وعي عبد الستار يخفت، والدنيا كلها تُظلم من حوله، وبدا له كمن تسيخُ به الأرض وتبتلعه في ظلامها الدامس، ولكن شيئًا واحدًا فقط ظل يتكرر في رأسه: يجب ارتكاب ذنب مهما كان الثمن، لكن قواه أخذت تنهار أكثر فأكثر، إنه لا يستطيع أن يرتكب ذنبًا جسمانيًا بهذا الجسد المتخاذل الواهن. عندها فكر: ربما يكفي أن أفكر في شخص صالح أفكارًا دنيئة، وسيكون هذا ذنبًا كافيًا للإسراع إلى الموت. ولكن حتى هذا يحتاج إلى جهد، وهو ما لم يكن موجودًا لدى عبد الستار.

الإساءة لإنسان ولو في نفسك إثم كبير، أن تكذب على شخص، أن تُخطئ، أن تُهين، أن تحتقر- كل هذه ذنوب، وليس هناك حدود لقدرات الإنسان خصوصًا في هذا المكان، فقد حدث أن تبول الحراس في صحن الطعام ضاحكين ثم قدموه للمعتقلين المساكين، أما الضرب والقتل فهذه أشياء عادية جدًا للحراس هنا، فكم ضربوا عبد الستار ولكنه لا يشعر بالحقد على الأيدي التي ضربته، فهم مجرد أياد وليسوا بشرًا، بل إنه ليُخيل إليه أن كائنًا ما يقبع هناك في أعلى نشر مرضًا خبيثًا، فأفقد الجميع عقولهم مؤقتًا. لقد كان جدي يقول:

"سيأتي الوقت الذي تُعادي فيه الأم ابنتها والأب ابنه".

وهذا هو الوقت الذي عاش فيه عبد الستار، هذا كل ما في الأمر. لكن ليس جميع الناس فقدوا عقولهم، فعبد الستار وأمثاله يبدو أنهم ما زالوا بوعيهم، لكن حياتهم أسوأ من حياة الكلاب، فليتهم فقدوا عقولهم مع من فقد.

- انظر، إن أحدهم جاهز هنا – مشيرًا إلى عبد الستار.

- ضعه على العربة كي ندفنه.

هكذا صاح الحارس ومساعده اللذان عادا إلى الغرفة:

اقترب المساعد من عبد الستار ليلقيه على العربة، لكنه قال:

- يبدو أنه لا يزال حيًا. أمر غريب، لا يزال ابن الأعداء هذا حيًا، يومين يرقد دون ماء!!.

- مهما يكن لن يبقى حيًا.

(هكذا علا صوت الحارس على حديث مساعده)

لم يقل المساعد شيئًا، فليس في الأمر جديد فكثيرًا ما حدث ذلك، فقد يحدث أنك تهيل التراب على جسد المتوفى فينهض أمامك وهو يسعل من التراب.

- لكن حتى متى ننتظر. هيا.

أخذ الاثنان عبد الستار وألقياه بين مجموعة من جثث المــوتى، وقع عبد الستار على جثة امرأة ميتة، فتــذكر أينــا، الــروح النقيــة الطاهرة، وفكر في نفسه سأظن بها السوء، وحاول أن يقارنها بجثــات ولكنه رأف بها، ثم قرر أن يصرخ بكل قوته "أينا!".

سمع الحارس هذا الصوت المنخفض جدًا، فضرب عبد الــستار على رأسه بالمعول. فجأة ظهر أمــام عينه ضوء ســاطع، فاعتقــد عبد الستار أن هذا الضوء يأتي من أينا، بعد ذلك فقــد عبــد الــستار الذاكرة وخفت الضوء واختفى. وأخذت العربة المليئة بالموتى طريقها تجاه الغابة.

رواية الأم

كانت أمي تحدثني كثيرًا بالقصة التالية، لأنها كانــت معاصــرة لهذه الحال. في الحقيقة لم أكن أحب أن تتذكر ذلك، رغم أنها كثيرًا ما تفعل. كنت أفكر، ما الذي يمكن أن تفهمه هذه المرأة الأمية في صراع الطبقات وهذه الأشياء الكبيرة التي كنا – نحن المتعلمين – لا نفهمهــا إلا بمشقة كبيرة.

كنا في المدرسة نغني الأغاني عن جيــشنا الأحمــر الــشجاع، ونهتف "نحن الطلائع الحمراء"، وكنا نحلم أن نكون مثــل بودينــوف، وفاراشيلا – اللذين كانا قدوتنا في الطفولة. أما رواية والدتي فقد كانت تخالف تمامًا تصورنا حينها للجــيش الأحمــر، الــذي زرع الخــوف والخنوع في نفوسنا كأطفال.

كان لأُمي أخ أكبر في الخامسة عشرة من عمره يُدعى كابيدين، وكان أطول من أقرانه، رغم أنه كان ضعيفًا، وكان ذا طـابع بـسيط وخجول، حتى إنه تحمر وجنتاه من الخجل والحياء إذا مـا احتـاج أن يحادث أحدًا. عندما كانت أُمي تروي قصته، كانت تتنفس بحسرة كبيرة وتغرق في تفكير عميق.

حدث ذلك في سنوات العشرينيات أيام الفتن الكبـرى، عنـدما كانت السلطة في القرى تنقل من الحمر إلى البيض والعكس، وأيًا مـن كان يحكم القرية وينال السلطة، فإن السكان كانوا يطعمونه ويـسقونه، ويستقبلونه كما يُستقبل الضيوف الأعزاء، ولكن كلا الطرفين، بمجـرد أن يأكل ويشبع ويرتاح يبدأ بمطاردة نساء القرية من زوجات وعذارى ومحاولة إغوائهن، بل اغتصابهن، والويل للرجال إن حاولوا منع هـذا الفجور الذي لا يرضاه المسلم أو حتى أي إنسان عنده كرامة.

لذلك فبمجرد أن يصلوا إلى القرية كانت النساء الشابات يـذهبن إلى الغابة ويختفين هناك، وفي المساء كن يأتين ليأكلن ويـشربن ثـم يعدن إلى الغابة عند الصباح، وكان يظل في القرية الشيوخ والأطفـال فقط.

في مثل هذا الوقت العصيب وصل الحمر إلـى القريـة، لكـن عددهم في هذه المرة كان كبيرًا جدًا لدرجة أنه بدا وكأنهم ملؤوا العالم، وانكمش أهل القرية داخل أنفسهم، وكأنهم شعروا بالمصيبة التـي لا يبـدو لها نهاية فلن تمر هذه المرة كما مرت من قبل. وكان أغلبية الحمر من

العرق الروسي، ونادرًا ما تجد فيهم أحدًا ينتمي إلى العرق التتري أو القازاقي.

قال الضابط الذي يرتدي ملابس مليئة بالأحزمة شيئًا ما للجندي القازاقي الواقف خلفه، فصاح ذلك الجندي مخاطبًا خالي كابيدين "أيها الغبي، اذهب واسق الخيل، امش، تحرك".

كان سقي الخيل أمرًا طبيعيًا بالنسبة لكابيدين، فقد كان سائسًا ماهرًا، وكم رعى وسقى خيول البيض والحمر بنفس العناية حينما يتغلب أحدهما على الآخر فيطرده ويجثم هو على صدر القرية. لكن هذه المرة كان عدد الخيول كبيرًا جدًا لدرجة أنه لن يستطيع أن يسقيها منفردًا.

أخذ كابيدين بعناء وتعب يغرف الدلو تلو الآخر من فوهة البئر القريبة، ويصبه بسرعة في المسقى، ولكن مهما عمل فإن الماء لا يكفي كل هذه الخيول المجهدة والشرهة إلى الماء. فقد أحد المشرفين على الخيل صبره، فهجم على كابيدين صارخًا "هيا أيها الكازخي الحقير أسرع". وأتبع صراخه بضربتين من السوط الذي يلوح به دائمًا في وجوه الأهالي. ترنح كابيدين قليلاً، ثم استند على قائمة البئر، وقف قليلاً، ثم فقد وعيه من التعب، وأُغمي عليه.

في الوقت نفسه جمع المفتش ذو الملابس الجلدية سكان القرية، وأجرى معهم تحقيقًا عبر المترجم:

- من يساعد البيض عندما يأتون إلى هنا؟ وهل جاء الباسمتشي[1] إلى القرية، وهل لديهم أقارب هنا؟"

حاول أهالي القرية المذعورون مما رأوه من الحمر وهيئتهم القتالية هذه المرة. أن يجدوا كلامًا يرققوا به قلب المفتش الصارم ذا الملابس الجلدية وأن يجعلوه رؤوفًا بهم، مبدين استعدادهم لمساعدته. ربما كانوا يقولون ذلك خوفًا من الحمر، لكن البيض أيضًا قد أزعجوا سكان القرية، ولكن كيف تنطق بذلك، ومن يضمن أن البيض لن يأتوا بدلاً من الحمر مرة أخرى؟.

عندها سوف يبدأ الاستجواب من جديد، وتطرح نفس الأسئلة التي تطرح اليوم، ولكن من البيض هذه المرة. لا، الأفضل أن نصمت، وكأننا لا نعرف شيئًا، ولم نسمع شيئًا.

لم يقتنع المفتش بالإجابة الصامتة فأخرج من بذلته الجلدية السوط، ولوح به فوق رأس العجوز توراميس، الذي قال مفزوعًا: "ذلك هو من سقى خيل البيض"، مشيرًا بيده على كابيدين الممدد بالقرب من البئر فاقدًا لوعيه.

أمر المفتش مباشرة اثنين من جنود الجيش الأحمر أن يرفعوا كابيدين من إبطه وصبا عليه دلوين من الماء وأتوا به للقيادة.

سأله الجلاد: "هل سقيت خيل البيض؟".

---

(١) سبق التعريف بهم.

صمت كابيدين واحمرت وجنتاه كالعادة بل كانت أكثر هذه المرة فقد أصبحت حمراء قاتمة اللون.

قال المفتش وهو يقعد على فرسه: "مفهوم، سنأخذك معنا، سيكون لنا معك هناك حديث خاص". ثم أشار إلى توراميس. وقال: أحضروه أيضًا. غادر الحمر القرية آخذين معهم العجوز والمراهق، وفي الصباح التالي خرج سكان القرية للبحث عن توراميس وكابيدين، فوجدا جثتهما وهي مقطوعة ومعلقة على الأشجار في غابة صغيرة.

جمع الناس أعضاء الضحايا المساكين المعلقة على الأشجار، وصلوا على روحيهما ثم دفنوا الأشلاء الممزقة.

مرت عدة سنوات، وتوفيت أُمي، لكني أذكر أنها لم تغير نظرتها للحمر حتى ماتت، وكانت تصلي سرًّا وتدعو في صلاتها لأخيها الأكبر بالرحمة. أما نحن فقد كنا نُردد بأعلى صوتنا تلك الأغنية التي أحببناها كثيرًا "نحن الطلائع الحمراء"!!.

الجزء الثاني

القدر

الرؤيا

مر وقت طويل منذ أن مرض أفلاطون، ورقد على السرير، في البداية كان لديه غثيان من طول النظر إلى السقف الأبيض، لأنه كان مضطرًا أن يتمدد على ظهره لأيام كاملة، ولكنه بالتدريج تعود على منظر السقف الممل.

ذات مرة تذكر المثل الإسكيفي[١] الذي يقول: "النظر إلى السماء لا يعني النظر إلى الإنسان". غريب ماذا قصد هؤلاء المتوحشون؟ إلاههم السماء، تنغري[٢] وهذا يعني أنهم بنظرهم إلى السماء يتوصلون إلى الروح البشرية. ما السيئ في هذا؟ أم هذه هي دعوتهم للآلهة؟ فإذا كانوا قد فصلوا الإنسان عن الإله، فكيف تكون الوحدانية لديهم؟! لكن لماذا نذهب للإسكيفيين، فحتى في الأكاديمية الوطنية حيث يجتمع كثير

---

(١) نسبة إلى إسكيف قبيلة عريقة في آسيا الوسطى كانت تتنقل في الأراضي الواقعة شمال البحر الأسود وجنوب روسيا وشمال كازاخستان. وهي من أصول تركية أو إيرانية على خلاف بين علماء الأجناس. وهي مذكورة كثيرًا في كتب اليونان منذ كتاب هيرودوت.

(٢) التنغري اسم لإله قديم من الآلهة التي آمنت بها بعض شعوب آسيا الوسطى. ويقصد به هنا الله عز وجل.

من عباقرة البلاد، لا يستطيعون إدراك الوحدانية والتفكير فيها حتى النهاية.

المعرفة الحقيقية للعالم تبدأ من معرفة الوحدانية البدائية وعدم التقسيم الأساسي، فإذا كان "فاليس"(١) يقول إن البداية وأساس كل شيء هو الماء، فإن "أبيقور"(٢) يتصور - وهو مخطئ في ذلك بلا شك -أن البداية في الذرة!!

يقولون إن العالم الشاب أرسطو يقول إن بداية العالم هو العقل، فقد كتب عن ذلك في كتابه ولكن للأسف تنهد أفلاطون مفكرًا بأنه لن يتمكن من قراءته، وأنزل بصره وأظلمت أمامه الدنيا.

كان الطبيب الذي لم يفارقه يراقبه بقلق، وتحرك يريد أن يقترب منه. لكن أفلاطون أشار إليه بيده ألاّ يقترب، وقال بصعوبة: "استدعِ سيمي أريده لعمل".

خرج الطبيب لفترة قصيرة، ثم عاد إلى مكانه وجلس من جديد دون حركة، فكر أفلاطون في نفسه: ليس هناك سر لا يعرفه سيمَى،

---

(١) فاليس الرومي له كتاب المدخل إلى علم صناعة النجوم، كتاب المواليد، كتاب المسائل، كتاب الزبرج، فسره بزرجمهر، كتاب المسائل الكبير من كل نوع، كتاب السلطان، كتاب الأمطار، كتاب تحاويل سنى العالم، كتاب الملوك.

(٢) ولد أبيقور حوالي سنة ٣٤١ ق.م وتوفي حوالي ٢٧٠ق.م (أي أنه يأتي بعد سقراط وأفلاطون وأرسطو في الترتيب الزمني) وهو فيلسوف يوناني أسس المدرسة الأبيقورية. هاجر إلى أثينا حوالي ٣١١ق.م واستقر فيها ودرس الفلسفة. لم يبق من الكتب التي ألفها سوى شذرات من الحكم وثلاث رسائل.

فقد عالج أجداده أجدادي، كما حضروا عند موتهم.أما الآن فقد حان موعدي، لقد كان هذا الطبيب ذا مكانة كبيرة عند أمي بيريكتيونا، وقد روت الكثير من الروايات لابنها عنه، فمثلاً على الرغم من بعد موطنه - إسكيفيا فإن جده أول من وصل إلى أثينا من الإسكيفيين، وكان الحاكم صولون[١] يقدره كثيرًا، والطبيب أيضًا كان مشهورًا لدرجة أنه حصل على الجنسية الفخرية لأثينا، ومن ذلك الجد بدأت عائلة الأطباء. مسكين صولون، لم يتمكن من عمل الكثير مما كان يخطط له!

كان صولون أول من قال إن الدولة يجب أن يرأسها رجل عالم، ولكن قُتل الإسكيفي أنخارسيس، وهو يحاول تطبيق أفكار صولون على الواقع.

قطعت تحية سيمى الذي دخل إلى الغرفة أفكار أفلاطون المسترسلة، وردًّا على التحية حاول أفلاطون أن يرفع رأسه، ولكن لم تكفه قوته الواهنة إلا ليحرك يده حركة بسيطة، داعيًا سيمى للاقتراب منه أكثر.

أفلاطون: عزيزي سيمَى!

---

(١) صولون الإغريقي عاش في أثينا بين القرنين السادس والسابع قبل الميلاد (٦٤٠ - ٥٦٠)، وهو إلى جانب كونه شاعرًا وحكيمًا من حكماء اليونان السبعة، كان أيضًا من السياسيين اللامعين، فقد انتخبه أهالي أثينا حاكمًا عليها (٥٩٢ ق.م) فقام بإصلاحات تشريعية وإدارية، وسميت هذه التشريعات باسمه.

لقد رأى معلمنا سقراط عندما كان في السجن الحلم الآتى: رأى وكأن طائر نورس صغيرًا قد نزل وجلس على ركبته، وعندما قويت أجنحته، غنى أغنيته النورسية بصوت نقي وناعم، ثم نظر للجميع وارتفع إلى السماء وحلق طائرًا.

عندما ذهبت لزيارته قال لي: هذا النورس هو أنت يا أفلاطون، قريبًا ستقوى وتتركني أيضًا، ويبدو لي أن كلمات المعلم تتحقق.

– قال سيمى، وهو يأخذ بيد المريض الواهن أمامه ويربت عليها في حنو زائد: آه يا عزيزي أريستكول، كون الجميع قد نسي اسمك الحقيقي ويدعونك أفلاطون دليل على أن رؤيا معلمنا قد تحققت، ستكون أنت الآن مثالاً لذلك الإنسان العظيم الذي يظل في الذاكرة ليس باسمه الحقيقي الذي سمي به عند مولده، ولكن بالاسم الذي سماه به الشعب المغرم بعبقريته وعلمه.

– إنني أرى الكثيرين من العلماء سيتبعونك في مستقبل الأيام بالأسماء التي ينعتهم بها طلابهم الباحثون.

– إذن لن يتذكر أحد الاسم الذي سماني به والدي عند مولدي؟ انتظر فإن أحدًا لم يفكر في ذلك مطلقًا، مع العلم أنني كنت أعتقد أنه لا يوجد شيء لم أفكر فيه.

– أفلاطون هي الكلمة التي تعني الواسع، الفسيح. وهذا الاسم ينطبق عليك، فهو من عمق الفلسفة، فأنت لست فائزًا بالميدالية الأولمبية، وعريض المنكبين، وقوي وذو صورة فسيحة ، بل إن

أفكارك المثالية انتشرت كثيرًا في كل العالم واحترام اسمك ناجم من أعمالك وستظل في التاريخ أفلاطون، لكن... فجأة صمت سيمي.

– أفهم ما تقول لكني أخشى أن كل المشكلة في "لكن" تلك، وقد استدعيتك يا سيمي لكي تقاسمني حلمي لهذا اليوم.

– أنت تعلم أنه لا يجوز تصديق الرؤيا. فليس فيها إدراك، وهي ظاهرة تحدث عندما نعجز عن فهم ما لا يمكن شرحه، ولهذا بالذات لا يمكن أن نضع الرؤيا فيما يُعقل.

– أوافقك الرأي، ومع ذلك فإني أعتبر الرؤيا واقعًا، إذا كانت الفكرة وأساس التصور متحدين، فالحلم جزء لا يتجزأ من هذه الوحدانية، ولا يصح اعتباره خارجًا عن الواقع، لقد أعار أهل فارس أهمية كبيرة للأحلام.

– في بحوث زرادشت ليس هناك فاصل بين الرؤيا والواقع، ويصعب تحديد ذلك الفاصل، فالرؤيا والواقع يتداخلان أحدهما في الآخر، وهما وحدة واحدة.

– نعم سيمي، لقد جاءتني فكرة الوحدانية وعدم الانقسام عندما تعرفت لأول مرة على أعمال وبحوث زارتوستار، فقد توصل إلى الوحدانية وعدم الانقسام ليس من خلال العقل والمنطق، بل عن طريق المفاهيم الحياتية العادية والتحليل.

- إذا كانت أية معرفة تبدأ من التأكيد على شيء ظاهر، فإن هذا يعيق إمكانية التطوير المستقبلي لهذا الموضوع. بداية المعرفة – انعدام المعرفة، وانعدام المجهول، وأن يحاول الناس المعرفة انطلاقًا من عدم المعرفة، أليس كذلك؟.

- حياتي كلها لم تكف لكي أجيب عن هذا السؤال، سمعت بأن الشباب الآن يؤكدون بأن أساس الإدراك هو العقل، للأسف يبدو أنه لن يكون لدي وقت لكي أناقشهم، إن عمري ٨١ عامًا، وفي هذا الرقم غير العادي يكمن مدى العمر. لقد سمي بيفاجراف هذا الرقم بيو مربع.

- نعم ٣ × ٣ = ٩، وإذا ضربنا التسعة بنفسها يكون الناتج ٨١.

- يكفي الحديث عن هذا. سوف أحدثك عن الرؤيا، فكما حدث مع سقراط، لقد رأيت في منامي طائر النورس.

- النورس رمز الروحانية، ربما لذلك فإن الناس لا يأكلون لحم هذا الطائر.

- في الرؤيا تحولت إلى نورس، وكان الصيادون يطاردونني، لكن كل محاولتهم ذهبت هباءً وظللت أطير في الهواء كما كنت.

- هو فلسفتك وأفكارك، وتعاليمك، وعلى الأغلب فإنه لن يتمكن أحد من الوصول إليها تذكر فقد ظل جومير حتى الآن لغزًا بالنسبة لنا.

- جومير إرث كل البشرية.

- أنت أيضًا كجومير ستترك إرثًا بشريًا ثمينًا.

- ماذا سيقول الأحفاد عن أفكاري، وهل سيفهمونها، ويقيمونها؟

- لقد بدأ الآن التحليل والتقييم، فأحيانًا يعتبرونك، مربيًّا عظيمًا، ومرة أخرى رياضيًّا بارعًا، وغيرها وباختصار فإن الاهتمام بأعمالك عظيم، والجميع يقرؤها بشغف ولكن الغريب أن تعاليمك تُعطي بداية للكثير من النظريات، وليس هناك مفهوم موحد لأفكارك وتحليلاتك حتى الآن.

أغلق أفلاطون عينيه، وتعمق في التفكير، وبعد وقت قصير فتحها والتقت نظراته بنظرات سيمى الذي كان يقف عند رأسه وركز النظر إليه.

حرك أفلاطون شفتيه مرتين قائلاً: "شكرًا يا سيمى، وداعًا".

انحنى له سيمى وانصرف بهدوء من الغرفة.

وتوفي الرجل العظيم بعد ثلاثة أيام من هذا الحديث، وقد عاش آخر الدقائق من عمره دون عذاب أو ألم، وتقبل الموت بهدوء، وكأنه راح في سبات هانئ، ولكن لم تكفه القوة ليغلق عينيه، إلا أن الطبيب كان منتبهًا فبمجرد أن لاحظ آخر حركات العبقري أغلق عينيه.

هذا الواجب المقدس - إغلاق عيني المنتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، تم تنفيذه بدقة متناهية، فقد أغلق أفلاطون عينيه إلى الأبد، وتحول إلى طائر نورس، كما قال بنفسه وحاز الأبدية.

إن فلسفة أفلاطون بالنسبة للكثير والكثير من المفكرين لم تكن حقائق ووقائع ثابتة، بل سيل من الأفكار المتحررة والسهلة والناعمة، الطليقة، التي تفتح خلفها الأفق الواسع.

أرض الآباء

في ذكرى أشتيفان كونير

حدث هذا في القرن السابع من مولد المسيح عليه السلام، كانت الشمس تختفي ببطء خلف جبال آلاتاو[1] كاسية الأفق بلون أحمر دموي.

لم تغب الشمس معلنة نهاية يوم فقط، بل غابت عن قبيلة القبجاق بكاملها أيضًا.

في السنوات الأخيرة تنقل الأعداء في المراعي، كالذئاب الجائعة. واشتعلت الحروب على وجه الأرض في كل مكان، ومات في هذه المعارك أقوى وأشرس الفرسان والمقاتلين. وها هو كييات آخر الفرسان ممدد على أرض الأجداد المعشبة وقد نالت منه إصابة شديدة جعلته مغمى عليه تتنازعه الحياة والموت.

جلس إلى جانب كييات المخلصون له من أتباعه، فقط أولئك الذين بقوا أحياء بعد معركة الأمس الساخنة وهم في حزن مرير.

---

(١) سلسلة جبال ممتدة من شرق قازاقستان حتى سيبريا.

ما الذي يمكن قوله الآن؟ فإن موت الفارس سيؤدي إلى خسارة فادحة لكل الشعب حيث يعيش الناس بأمل ضعيف متعلق بهذا الفارس الطريح، لكن.. حتى لو كان قدر هذا الفارس الموت، فلا يجب أن يسيطر على الجميع اليأس ولا يجب أن يفقدوا الأمل.

لا تستطيع أرض الآباء أن تظلهم ولو لشهر واحد، فقد قرر أعداؤهم الغاضبون المتوحشون أن يقضوا على العرق القبجاقي بالكامل. فإلى أين الملاذ؟ وأين يمكن البحث عن مأوى؟ لا يعرف ذلك إلا الفارس كيبيات. وكل الآمال معلقة على أنه سيعود إلى وعيه وسيخبرهم بما عليهم أن يفعلوا.

يُفزع الجميع حتى من مجرد التفكير فيما يحدث إذا لم يخبرهم كيبيات بالكلمات المنتظرة.

لقد فني فرسان القبيلة عن بكرة أبيهم ما عدا كيبيات، ولم يبق من العرق القبجاقي إلا الأطفال والنساء والشيوخ. يجب أن يحافظوا على حياة من تبقى لمدة خمس أو ست سنوات حتى يستطيع من أعمارهم الآن بين أحد عشر واثنى عشر عامًا أن يحملوا السلاح ليدافعوا عن أصلهم، يجب الحفاظ على من تبقى من القبيلة بأي ثمن كان، وإلا فإنه ستأتي نهاية العرق القبجاقي، أو سيتحول من ظل حيًّا منهم إلى عبيد مُهانين.

تنهد الجد كاساكاك بحسرة وهو يفكر في الأوضاع الصعبة التى تواجه قبيلته الطريدة التي كانت يومًا مـلء صـحراء الدشـت عـزة ومهابة، وهمس في نفسه وهو ينظر إلى كييات وتوسل إلى السماء:

- يا إلهي، أرجو أن يستيقظ، أرجو أن يتكلم.

ثم يحول خاطره إلى البطل الطريح الدامي:

- ليس عدلاً ألاّ تقول لنا ما ننتظر معرفته منك.

إذا استيقظ كييات، فإن هناك أملاً بنجاتهم.

قبل فترة، أدرك الجد كاساكاك أن القبيلة لن تنتصر على العـدو، فأرسل مائة فارس بقيادة كييات للبحث عن أرض جديدة ليرحلوا إليها، ولم يعد من المائة سوى ثلاثين فقط، وحتى الثلاثون الذين عـادوا لـم يتمكنوا من الرجوع بسرعة كافية، فدخلوا في معركـة مـع الأعـداء وقتلوا جميعًا، ولم يبق حيًا سوى كييات، وها هو يبدو أنـه سـيموت أيضًا، لقد نزف دمًا كثيرًا، وإصابته ثقيلة جدًا قد لا ينجو منها إنـسان، والجميع يعرف ذلك، ومع هذا فكل الأنظار موجهة إليه.

أخيرًا حدثت المعجزة ! وفتح الفارس عينيه، من المؤسـف أن هذا حدث عند المغيب، فقد كان يمكن أن يعطيه ضوء النهار القوة.

جمع كييات آخر قواه، وهو يعرف ما يُريدون وقـال بـصوت ضعيف: "يا جدي، لقد وجدت أرضًا بعيدة عند مغرب الشمس". صمت الفارس الجريح، ففزع الحضور، ووضع الجد كاساكاك أذنه على صدر

الفارس ويده على جبهته ورجليه فوجدها ساخنة، فعلم أنه لا يزال على قيد الحياة. ومرت لحظات لكنها طويلة على العيون المطرقة في وجـه الجريح كدهر ممتد بلا نهاية، لم يقطع هـذه اللحظـات الـسرمدية إلا صوت سعال كييات الذي بدا أنه يستجمع أشلاء قوته ليواصل كلماتـه الأخيرة:

- "لقد بقى أورات مع عشرة من الفرسان هناك، وهـو ينتظـركم، كوكجال سيلاقيكم في الطريق، سيروا دومًا باتجاه الغرب لمدة أربـع ليـال كاملات، وفي ليلة ميلاد القمر ستصلون. التزموا السير تجاه الغرب".

كان هذا كل ما استطاع أن يقوله الفارس، همهم بعد ذلك بكلمات لكن أحدًا – حتى الجد العجوز كاسكاك – لم يفهم مـا قـال. اختفـت الشمس خلف الأفق، وأخذت حرارة الأرض تخفت شـيئًا فـشيئًا مـع دخول الليل، كما أخذت الحرارة تختفي من جسد البطل كييـات الـذي فارق الحياة.

قام ولد كييات البالغ من العمر أحد عشر عامًا من مكانه، وتقدم من جسد والده الفقيد، وطبع قبلة على جبينه، ثم عاد ثانية إلى موضعه بين أشلاء القبيلة المهددة، وجلس حزينًا متعبًا. لكن كان في عينيه لمعة هذه اللمعة لم تكن من دموع تترقرق في مقلتيه، بل كانت لمعـة نـار الانتقام التي تتأجج في صدره.

نظر الجد كاسكاك إلى الطفل وتمتم في نفسه مخاطبًا الفقيد:

- "إنك لم تمت يا كييات وستبعث في الحياة من جديد مادام لديك مثل هذا الولد".

ثم قام الجد كاسكاك من مكانه قائلاً: "لقد حان الوقت"...

مر على هذا الحدث قرون سبعة، ونجت القبيلة من الموت، كانت كلمات كييات الأخيرة دليلاً للأرض الموعودة، ووجد ابن كييات الأرض، ودارت السنوات وشب الأولاد فرسانا، استرجعوا أرض الأجداد، وكبر عرقهم وازدهر جيلا بعد جيل.

يتوالد الناس من أجل البقاء، لكنهم يموتون، ولا تبقى سوى القصص الخيالية عن الأجداد وعن كييات.

منذ طفولتي سمعت الكثير من القصص عن كييات. وكان يأتيني في أحلام الطفولة، حيث كنت أرى جدي العجوز في آلتاي البعيدة. ومنذ ذلك الحين على ما يبدو خُلقت داخلي الرغبة في زيارة تلك الأرض، وعرفت أن والدي أيضًا فكر في ذلك. لقد توفي والدي في سن متأخرة عندما أصبحت رجلاً بالغًا.

حتى الآن أذكر جيدًا أنه قبل موته بيوم استدعاني:

- يا بني، يبدو أن حياتي قد وصلت إلى حد النهاية، وأريد لآخر مرة أن أقص عليك قصة جدنا كييات.

استمعت إلى القصة بإنصات واهتمام بالغين، بالطبع كنت قد سمعت هذه القصة قبل ذلك أكثر من مرة. ولم تكن أحداثها التي

سيسردها والدي جديدة عليَّ، بل ربما أكون أحفظها عن ظهر قلب. لكن كان استماعي لها هذه المرة كاستماع إلى وصية متوفى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أو كانت وداعًا مني لأحد الفرسان من أحفاد كيبات، الذي سيذهب هو أيضًا إلى عالم آخر، ولابد أن روحه ستلتقي هناك بروح جدي كيبات. وعلى ما يبدو فقد جمع والدي كل ما بقي لديه من قوة ليحكي لي لآخر مرة هذه القصة عن كيبات ويودع الحياة.

لم يبق لدي أي شك في أنه لم يعد مكتوبًا لوالدي أن يسير على الأرض، وهنا تذكرت كلمات المنجمين الحكماء الذين عاشوا على أرض الأجداد:

"امش على الأرض بقدميك ما دام لديك القدرة على ذلك،

وما دامت قدماك تحملان جسدك".

يا لها من كلمات غنية، وأفكار عميقة. لن يستطيع أبي أن يسير على الأرض حتى خطوة واحدة.

عندما تذكرت ذلك امتلأت نفسي رحمة به، أو ربما رحمة بنفسي، فرغم أنني أصبحت رجلاً بالغا وأعول أسرتي وأرعى شئونهم فإنني أشعر بأمان واطمئنان لوجود أبي معي، وأشعر أن ظهري ليس مكشوفًا إلى الهواء، فهو هنا حينما أحتاج إليه أو حينما أتعب من دور الرجل البالغ وأشتاق أن أرجع طفلاً يحتمي بأبيه، لقد كان أبي لي الركيزة والقوة التي أعيش بها، أما الآن فإن هذا الخيط الذي يربطني بالحياة بقوة يضعف شيئًا فشيئًا أمام عيني، ويكاد يقطع دون أن أستطيع فعل أي شيء.

وفاة والدي هي نهاية جيل آخر، ويحين دوري، وهنا أدركت معنى تبادل الأجيال.

من الآن فصاعدًا لن أخضع لوالدي بل لروحه التي ترتفع عاليًا إلى السماء لتلحق بأرواح أجدادي القبجاق، سوف يترك والدي حياتي ليكون دومًا معي، لأنه بوفاته سيعيش في ذاكرتي إلى الأبد.

لن أحتاج بعد الآن أن أختار وقتًا لزيارته، لأننا أصبحنا معًا، وسيظل الأمر كذلك ما دمت حيًّا، لكن إذا اختفى من صدري وتركني وحيدًا في العالم بدون صحبته، فإن الحياة ستكون لي مجرد وجود لا معنى له.

هذه الأفكار أجبرتني على الانتفاض. فأقسمت في نفسي أنه ما دمت حيًّا، وما دمت أرى السماء الزرقاء من فوقي التي ظللت أجدادي من قبل، فإنني لن أنسى نصائح والدي العزيز.

في هذه اللحظات كان أبي قد ارتاح قليلاً فواصل:

– عندما يستوفي الإنسان عمره المحدد على الأرض، فإنه سوف تغفر له ذنوبه. هذا إذا لم يكن شيطانًا. ولكن يجب عليه أن يتوجه إلى الخالق بالدعاء، إنني أشعر بأرواح أجدادي، عندما فارق والدي هذه الدنيا طلب مني أن أزور أرض أجدادنا. لكنني لم أستطع، قد تستطيع أنت أن تنفذ هذه الوصية إذا تغير الوقت. لقد التقيت في الحرب بناس من تلك الأرض، ودعوتهم لزيارتنا، ولكن للأسف الشديد، فإنهم لم يكونوا يعرفون جذورهم ولم يصدقوني حينما

قصصت عليهم حكايات الأجداد، كل ما فعلوه أنهم أكلوا وشـــربوا ثـــم غادروا. يجب عليك أن تلتقي بناس مثلك متعلمين، ومثقفين مـــن تلـــك المنطقة، لا بد أنهم يتذكروننا.

- أبي، أعدك بأني سأنفذ ما توصي به.

- يا بني، لا أريدك أن تُقيد نفسك بالوعود، فليس الإنسان مـــن يُسيِّر الزمن بل الزمن من يُسيِّر البشر، إن استطعت فاذهب، وإن لم تستطع فأبلغ ابنك هذه الوصية.

مات أبي، فوضعت على قبره صورة للـــشمس بأشـــعة ذهبيـــة كذكرى، حين وضعتها لم يفهم كثير من الموجودين ما أصنع، وكثيـــر منهم تبادلوا نظرات تتساءل: لِمَ لمْ أضع صورة أبي فـــوق قبـــره، أو بعض العبارات التي تليق بهذه المناسبة؟ لكن كبار السن فقط فهموا ما أريد، وبادلوني النظرات، وأشاروا برؤوسهم بالموافقة.

(الله)، هو معبود والدي، لقد تحول المعبود إلى مجـــرد نقـــود، تحول إلى تنجة[١] ثم إلى روبل[٢] وشيئًا فشيئًا أصبح الإله الجديد يحكم العالم. قد يكون هناك من يفهم معنى هذه الكلمات، ولكن بالتأكيد هناك من لا يعرف، لقد كان والدي دومًا يقول: "ليحفظك (الله)!!".

---

(١) في العصور الوسطى كانت الشعوب التركية تستخدم لفظ "تيجا" أو تانجا" للدلالة علـــى العملة النقدية الفضية، وقد استخدمت جمهورية قازاقستان التنجة عملة لها بعد اســـتقلالها عن الاتحاد السوفيتي فى ١٢ نوفمبر ١٩٩٣.

(٢) اسم العملة النقدية في الاتحاد السوفيتي، وما زال مستخدمًا في روسيا حاليًا.

الآن أبي ممدد على الأرض وقد سلم روحه لـ (الله)، وإذا كان كذلك فإن روح والدي الآن مع الله. حتى يوم الحساب - الذي عاد كثيرون يؤمنون به - سأتوجه إلى روحك يا والدي وأقول: يا أبتي ساعدني وشد من أزري في رغبتي للوصول إلى أرض جدي كيبات.

لقد كان أبي على حق، فإن الوصول إلى تلك الأرض لم يكن سهلاً، فقد انقسمت الأرض إلى جزأين، جزء تلون بلون الشروق الزهري الفاتح، أما الجزء الآخر فقد تلون بألوان مختلفة. ظهرت تقسيمات واضحة لكنها ليست تقسيمات طبيعية ولا جغرافية، انقسمت الأرض إلى مجتمعات منفتحة، ومجتمعات منغلقة. المجتمعات المغلقة كانت مغلقة للجميع، ماعدا الطيور التي كانت تحلق في الهواء، فهي التي كانت تستطيع أن تخترق حدودها.

لكن جاء الوقت الذي فُتحت فيه الحدود، وتمكنت من أن أفي بالوعد الذي قطعته على نفسي لأبي.

في يدي تذكرة إلى ألماتا[1] وأنا أتفحص الورقة بين يدي كما لو كنت أتصفح الأرض التي سار عليها أجدادي أربع ليالٍ كاملة ليهربوا من الموت، ويكتبون حياة جديدة لأجيال وأجيال من القبجاق. لقد تغير الوقت فقد سرت عشرين عامًا كاملة وكلي أمل أن أصل إلى أرض الوطن، كم طال الطريق على الأحفاد!!. سرت عشرين سنة كاملة ولدي حلم كبير... أريد أن أُحب فتاة جميلة من تلك البقاع، لأُربي معها أبناء يستحقون أن يكونوا أحفادًا لكيبيات.

لكن هذا فيما بعد، أما الآن فإني أرجو أن أصل إلى ألماتا التي تلوح في الأفق كالسراب. طريق السلامة!!.

(١) أكبر مدينة في جمهورية كازاخستان، وتقع في الجنوب الشرقي للجمهورية. تذكر الموسوعة القازاقية أن عمرها ٢٥٠٠ سنة. وقد ذكرها رشيد الدين فضل الله: في كتابه "جامع التواريخ". وقد تدمرت المدينة تمامًا أثناء حروب جنكيز خان. وأطلق عليها الروس اسم فيرني، ثم عاد إليها اسمها القديم " "ألماطي" أثناء الاتحاد السوفيتي. كانت عاصمة الجمهورية حتى انتقال العاصمة إلى مدينة أستنة في شمال البلاد عام ١٩٩٨. ومازالت العاصمة الثقافية والتجارية للبلاد. وتعني الكلمة "التفاح"، والاسم القديم لها، ألما أتا، ويعني النصف الأول منها "التفاح" والنصف الثاني "الجد" وذلك باللغة القازاقية.

خوسيه ومجدلينا

اسمح لي أن أنتصر على القدر

جيركوليس

استيقظ خوسيه من الخوف، جلس بعض الوقت يتذكر ما حدث، وأخيرًا فهم أن الأحداث التي حدثت معه ما هي إلا حلم، حلم طويل وثقيل، عندها تنفس الصعداء، ومسح وجهه المبتل من حبات العرق التي تلمع على جبهته، ونظر يمينًا ويسارًا. ولكنه ما تحرك من مكانه حتى انبلج الفجر. أضاء النهار والزوجة ما زالت إلى جانبه في نومها العميق، كيف تستطيع أن تنام هكذا في هدوء وهو ينام إلى جانبها تحت وطأة أحلامه الثقيلة، تأمل خوسيه جسد زوجته الهانئ في سباته، ولاحت منه ابتسامة وهو يتذكر مداعبتها الرقيقة له في المساء، يا لها من سعادة أن يكون لدى الرجل زوجة جميلة هكذا. لا يشبع الإنسان من النظر إلى الجمال أبدًا. تمتلكه رغبة شديدة في أن يحتضنها ويضمها إلى صدره، ولكن في هذه اللحظة عادت ذكرى رؤياه إلى مخيلته مرة أخرى فضاقت نفسه.

كانت أُمه – رحمها الله – تحكى دومًا له الرؤى التي تراها بالتفصيل، كما كانت تطلب منه أن يحكي لها رؤياه، وكانت تستمع إلى ما يحكي باهتمام. كثيرًا ما قالت له لو تم قص الرؤيا على آخر، فإنه

يمكن التخلص من الكثير من الأمراض، وأنه يجب دومًا شرح وتحليل الرؤيا، فالرؤيا هي عالم الإنسان الآخر ويجب عليه أن يعرفه.

ولاحت أمام عينيه صورة أمه العجوز وهي جالسة تقص عليه رؤياها محاولة تذكر كل التفاصيل الدقيقة التي شاهدتها بالتفصيل وكأنها أمور مقدسة لا يجوز الخطأ فيها أو نسيانها. كم كان يحب تلك الدقائق، أما الآن فقد تحولت هي نفسها إلى رؤيا، وغالبًا ما تراءت له في المنام.

في آخر رؤيا قالت له أمه:

- "بني، انتبه لنفسك. كن حذرًا يا ولدي. سيأتي وقت تبدو فيه الحياة وكأنها حلم".

منذ ذلك الحين لم تغادر هذه الكلمات ذهنه، وتذكر خوسيه رؤياه مرات كثيرة محاولاً أن يتذكر كل شيء بالتفصيل. يتذكر أن أمه قالت له إنه يجب ذكر الرؤيا مباشرة، دون مغادرة السرير وإلا فإنه سينسى، آه!.. لقد نسي خوسيه الكثير، فأخذ يركز ويشحذ ذاكرته محاولاً استعادة ما رأى. نظر بعتاب إلى جسد زوجته النائم إلى جانبه والشعر الغزير على الوسادة لقد كان هذا الجسد هو السبب في شغل باله عن تفاصيل رؤياه. تبسم خوسيه: "لعلها ترى رؤيا جميلة، لماذا أرى أنا الرؤى المخيفة فقط؟".

لقد رأى في المنام صالة الاجتماعات العامة، وقد جثا الرئيس أمامه وتعلق برجليه يرجوه ويطلب منه شيئًا ما، خوسيه لا يتنازل ولا

يقبل رجاء الرئيس، عندها يخرج الجنرال من الصندوق صورة ابنته الجميلة ويريها إياه. وفجأة تظهر مجدلينا نفسها وتتوسل إليه أيضًا، ويظهر الرئيس من جديد، ولكن في هذه المرة يطلب خوسيه العفو محاولاً إقناعه بشيء ما. يقوم الجنرال بقطع يديه، ورجليه وبعض أجزاء جسمه ويشعر خوسيه بالألم، لكن الغريب أن خوسيه مازال حيًا. ويفكر في نفسه: لماذا لا يقطع الرأس فكل الأجزاء الأخرى يمكن أن تنمو من جديد إذا بقى الرأس سليمًا ويرى: ها قد ظهرت له يدان من جديد، وها هو يخنق بيديه الناميتين الرئيس، ضاغطًا على عنقه بقوة أكبر، فأكبر... وفي هذه اللحظة انقطعت الرؤيا.

فكيف يتصرف الآن مع هذه الرؤيا؟

مسكينة أُمي، كيف كنت ستستطيعين الآن أن تعيدي قص هذه الرؤيا، مباشرة مع الشرح والتوضيح والإضافة، والملاحظات. فقد كنت دومًا تقولين إن الرؤيا هي حقل ينمو فيه القمح والحشائش، حيث يجب تنظيف الحقل من الحشائش، عند ذلك فقط يمكن الوصول إلى الحقيقة. يجب الإيمان بأن الرؤيا تبشر بالخير.

كان خوسيه يتعذب من أنه لم يستطع أن يحدد الزائد في رؤياه عن الحقيقة، وذهب خوسيه في تفكير عميق، سيكون اليوم يومًا صعبًا، فمنذ وقت طويل غطت سماء بلدته الصغيرة الغيوم الملبدة السوداء، التي لا تسقط مطرًا ولا تتفرق ولكنها تبقى أبدًا معلقة جاثمة على صدر البلدة المسكينة تكسوها الشحوب والقتامة وتلون ملامح سكانها برماد

الحزن، فيبدو الجميع قد شاخ تحت وطأة هموم المسؤوليات التي تسحق الجميع.

ليس غريبًا أنه في مثل هذا الوقت العصيب ظهرت مختلف الحشرات مثل الصراصير والنمل في البلدة. فالمراحل الانتقالية دومًا في مصلحة التجار غير الشرفاء الذين يشبهون هذه الحشرات، مثل جاره خوليو التاجر الصغير الذي ينظر إلى خوسيه بتعالٍ ويغمزه متسائلاً: "كيف حال الرئيس، ألا يزال حيًا؟".

كان خوسيه يتمالك نفسه أمام مثل هذه الوقاحة المفرطة ويضم قبضتيه، وبصعوبة يتمالك نفسه من أن يلطمه على وجنتيه حتى يشق وجهه القبيح. نعم لقد حلت الساعة التى تتبدل فيها الأوضاع، ويجب على خوسيه نفسه أن يتبدل وأن يبحث عن دور جديد له كما يفعل الخبيث خوليو.

لقد صدقت أمي عندما ذكرت أن الواقع سيكون شبيهًا بالرؤيا.

لماذا تذكرت الآن خوليو، آه! نعم، هذا يخص الجنرال، الذي مدح خوسيه كثيرًا في الآونة الأخيرة واصفًا إياه بيده اليمنى. كان وجه خوسيه تبدو عليه علامات السعادة المفتعلة، فهذه الكلمات لا تعجبه حينما تقال على الملأ، فكلما ذكر الرئيس ذلك زاد عدد الحساد لخوسيه، إلى جانب أن خوسيه في الآونة الأخيرة كان ممتعضًا من بطء وتخاذل الرئيس، فما دام الجيش لا يزال معهم يجب العمل، وبأقصى سرعة وحزم.

ليس هو وحده من يفكر بهذا الشكل، فذات مرة أثناء أحد الاجتماعات قال أحد الضباط الشباب: الضابط لم يخلق للحياة المسالمة"، عندها قال الرئيس لذلك الضابط: "إذا لم يكن هناك جيش، لن يكون هناك سلام، فالضابط هو – حارس السلام". خوسيه أيضًا يوافق الرئيس في ذلك.

بالطبع، ما الذي سيحدث لزوجته وابنته لو بدأت الحرب؟ يمكن أن تنتظر كل شيء من الحقراء أمثال خوليو، ولكن في البلاد التي يرفع فيها العدو رأسه يجب العمل بسرعة وبحزم. مد خوسيه يديه إلى جهاز المذياع وزاد من قوة الصوت:

- "إننا على أبواب أحداث عظيمة، فقد توصل الوطنيون في المواقع إلى انتصارات كبيرة، وتنضم إلينا القوات المسلحة. الحرية أو الموت".
- صوت المذيع: "لقد استمعتم إلى صوت ميركوس المسئول الدعائي للانقلابيين؛ أما الآن فستسمعون إلى اريمي مستشار الرئيس للشئون السياسية".
- "أيها المواطنون الأعزاء، إن الانقلابيين يريدون أن يقوموا بانقلاب حكومي، ويقفون ضد الرئيس الذي انتخبناه بأنفسنا وضد معاونيه، إن الانقلابيين هم أعداؤنا، لقد تحالفوا مع دول أخرى في مؤامرة ضد الشعب. وللأسف تساعدهم

بعض أفراد القوات المسلحة الذين غرر بهم لخيانة وطنهم، هم ومن شابههم من المخربين".

ثار خوسيه غاضبًا، وانتفض في مكانه كمن لدغته حية، وأغلق المذياع. تخيل خوسيه صورة وجه خوليو المتبجح الأحمر حتى الاحتراق. ماذا سيحدث للبلاد إذا وصل إلى السلطة مثل أولئك الخونة الأوغاد؟

عندما خرج خوسيه من غرفة النوم بملابس الخروج متأهبًا للعمل، كانت زوجته ما زالت تُعد الإفطار في المطبخ، جلس هو على الطاولة متململاً وبدأ يطالع الصحف والمجلات. يا للعار كلها فيها نفس الدعاية للأفكار التقدمية للمعارضين. قذف خوسيه بالصحيفة من الحسرة إلى الزبالة، نظرت إليه زوجته بقلق، وتذكرت جارهما المتعالي خوليو الذي كان يطيل النظر إليها عند اللقاء متأملاً كل قطعة في جسدها، كانت تحرج جدًا حينما تشعر بنظراته الفجة تمسح جسدها، ومع ذلك فلم تستطع أن تقول ذلك لزوجها. ما عسى الزوجة أن تقول للزوج في أمر كهذا. بل إن نظرات خوليو الداعرة ما كانت تكتفي بالتطلع إلى جسد الزوجة، بل كانت تلمح في عينيه تلك النظرات نفسها، وهو يتطلع إلى ابنتها الشابة سيفيلا، لذا ما كانت الأم تسمح للبنت بالخروج في المساء منذ فترة طويلة خوفًا من أن يتعرض لها ذلك الجار الداعر. مسكينة سيفيلا نحفت من الجلوس دومًا في الغرفة.

تنهدت الأم بحسرة متذكرة وجه المسكينة سيفيلا المنهك الشاحب، حاول خوسيه ترقيق صوته قائلاً "حبيبتي، هذه مفاجأة لم تكد أمك تصل إلى بيتها حتى أرسلت تدعوك إليها يبدو أنهما قد اشتاقا إليكم"، أخذت الزوجة الرسالة من يده وأخذت تقرؤها..

- "ابنتي، احضري حالاً، خذي معك سيفيلا، هناك أمر مهم يجب أن نتشاور فيه".
- سأل خوسيه: ماذا كتبت أمك غير ذلك؟
- لا لم تكتب شيئًا غير ذلك، ولكن ما الذي يمكن أن يحدث حتى تطلبنا أمي بهذه السرعة؟ وأرسلت له الزوجة نظرة تسائله ماذا أعمل؟.
- "بالطبع، سافري". قالها خوسيه الغارق في شئون وهموم الدولة وهو تائه، وخرج من البيت.

من يدري، فلو أنه تحدث حينها مع زوجته، فلربما أن الكثير مما حدث معه كان سيتغير تمامًا. لكن شاء القدر أن يكون غير ذلك. كان في العادة يسير إلى العمل على قدميه، ولكن في هذه المرة لم يكد يخط عتبة المبنى حتى قطع رئيس الحرس الطريق أمامه وكأنه ينتظره متعمدًا وقال:

- "اذهب بسرعة إلى الرئيس إنه بانتظارك".

- أوه، أخيرًا وصلت ! إنك تنام كثيرًا يا خوسيه إن الوقت ضدنا. لقد بدأ الانقلابيون بالعمل إني أخمن من يقودهم، إذا كان تخميني صحيحًا سيكون الأمر صعبًا جدًا.

الرئيس يتنفس بصعوبة. رأف به خوسيه، وفي نفس الوقت شعر في نفسه بالامتعاض.

- "ما هذا، كيف يمكن في مثل هذا الوقت أن يضعف، كان عليه أن يبدي قوة ورجولة أكثر من ذلك". قالها خوسيه في نفسه، تخيل الرئيس ما يدور في فكر خوسيه، فقال: "إذا كان الأمر ضروريًا فإني مستعد لأن أقدم رأسي في خدمة الوطن".

قالها وهو ينظر طويلاً إلى صورة الرئيس الذي سبقه، وسكت لحظة قبل أن يتابع ولكن بنبرة صوت مختلفة عن جملته السابقة:

- "كم أتمنى أن نتجنب إراقة الدماء".

- يكفي الحديث عن هذا، خوسيه اذهب إلى البحرية يجب ألاّ نخسرهم، وسأنتظر منك ردًا. قالها بنبرة صوته الأولى.

أدى خوسيه التحية وخرج.

لقد كان الجنرال يحب هذا الضابط الشاب كثيرًا، وحتى ابنته مجدلينا كانت مغرمة به.

في الصباح الباكر عندما كان الرئيس متجهًا نحو مقر عمله، خرجت مجدلينا من غرفتها، ولم تعطه الفرصة للحديث، ابتدأته هي قائلة:

"إني أعرف كل شيء يا أبي بدأت الصعوبات، لكن الضباط مثل خوسيه لن يخذلوك، فهم مخلصون ليمينهم التي أقسموا عليها أمامك، انتبه لنفسك".

دارت مجدلينا وسارت بسرعة مبتعدة عنه، لكن الجنرال تمكن من أن يلاحظ الدموع تترقرق في مقلتيها قبل أن تهرب من أمامه وتختفي في غرفتها مرة أخرى.

كان خوسيه يدرك أن تنفيذ أمر الرئيس سيكون صعبًا للغاية، لأنه لو سيطر الانقلابيون على القصر الرئاسي فستخضع قوات البحرية لهم وسيكون خوسيه بينهم.

كان مقر قيادة البحرية في مبنى من ثلاثة أدوار خارج المدينة، وصل خوسيه إليه دون أية صعوبات، وبمجرد أن فكر في ذلك حتى خرجت سيارة نقل كبيرة من البوابة وأغلقت المدخل.

وجه خوسيه بندقيته إلى صدر سائقه آمرًا إياه مواصلة السير، ولكن محرك السيارة توقف وثبتت السيارة في مكانها دون حراك، وقد جمد السائق في مكانه دون أن يبدي أي رد فعل. لم يجد خوسيه جدوى من تهديد السائق، فنزل من السيارة، وتوجه إلى سيارة النقل ونظر إلى صندوقها الخلفي، كان يجلس عسكريون فيه ولكن دون أسلحة. وبعيدًا

في عمق الصندوق كان يجلس التاجر خوليو وعندما رآه خوسيه أدرك أن في الأمر خدعة، فأنزل بندقيته من على كتفه ووجه فوهتها نحو خوليو.

– خوسيه، عزيزي ماذا تفعل، هل يتعامل الجار بهذا الشكل مع جاره؟

أدرك خوسيه أنه قد استعجل، وأعاد البندقية بحركة سريعة إلى كتفه.

- اعذرني، هناك فوضى في المدينة، ويجب أن أكون حذرًا.
- في هذا أنت محق، ولذلك فإني أسير مع الحراسة. قالها خوليو بمسكنة.

فهم خوسيه أن الركاب الذين في العربة ليسوا عسكريين، بل تجار صغار مثل خوليو ومشردون من الشوارع، لذا قرر أن يتظاهر بأنه يصدقهم؛ فهم كثيرون وهو وحيد. وكل ما كان يشغله أن يمدد الوقت حتى تصل القوات البحرية الموالية للرئيس.

- لا تخف منا يا خوسيه، فنحن محتاجون إلى مساعدتك.
- عم تتحدث؟ وبم أستطيع أن أساعدكم؟ أنا لا أفهم في التجارة، أما غير ذلك فلا يجب أن يشغلك.

- خطأ يا خوسيه، فنحن محتاجون إليك كثيرًا. فيجب عليك... وهنا توقف خوليو وتجول بنظراته في وجوه مساعديه في الصندوق الخلفي للسيارة ثم أكمل بهدوء: أن تحضر لنا رأس الرئيس.

- ماذا؟

لم يتمكن خوسيه من أن يتناول بندقيته فقد أسرع مساعدو خوليو ولفوا على رأسه وعنقه قطعة من الحرير، التي كادت أن تخنقه حتى فقد وعيه.

استيقظ خوسيه في غرفة، وأول ما فتح عينه جاءت على مشهد جاره خوليو وهو يضرب شخصًا ما، وهو يصرخ في وجهه، والضربات تتتابع منه لطمًا وركلاً.

- أيها الغبي كدت تقتله، احمد الله أنه حي وإلا كنت ستموت بعده أيضًا.

قام خوسيه بصعوبة وبذل جهدًا ليفتح عينيه، وجلس بعض الوقت يجمع أفكاره أولاً: هو أسير لدى الانقلابيين، وثانيًا: إذا لم ينفذ ما يريدونه سيزداد الأمر سوءًا اقترب منه خوليو، وأمسك شعره بيده وشده إلى أعلى. وقال متهكمًا:

- تمالك نفسك. كلمتي لا تتغير، حياتك بيديك، سنعطيك الحرية ولكن سيكون عليك دين... رأس الرئيس. بعدها سنعطيك الكثير من المال، وتغادر إلى خارج البلاد.

فكر خوسيه في نفسه وهو مذهول وغاضب "انتظر وسوف أنتقم منك أيها الوغد". همس في نفسه وهو يعض على أسنانه. فقال خوليو مخمنًا ما يفكر فيه: "ولكن يجب عليك أن تعود إلينا" وفي هذه اللحظة أدخلوا إلى الغرفة زوجته وابنته سيفيلا، وهما مقيدتا اليدين، ومعصوبتا الفم، لم يتوقع خوسيه مثل هذه الوحشية والعدوانية، فوقف متسمِّرًا في مكانه للحظة قبل أن يسقط فاقدًا وعيه.

سار خوليو بتثاقل إلى زاوية الغرفة، وأخذ إناء الماء الموجود هناك، وعاد – أيضًا – في تثاقل، قبل أن يصب الماء على رأس خوسيه.

- لماذا تفاجأ بهذا الشكل؟ فأنت تعرف أنكم استلمتم صباح اليوم رسالة، مثل هذه الجميلة لا يجب أن تكون ملكك وحدك فقط. كل شيء في العالم يتغير، ألم تقل لك زوجتك بأنني كنت أنظر إليها بإعجاب؟

- أيها الخنزير – وهجم خوسيه من غضبه على الوقح وضربه برأسه، عندها هجم مساعدو خوليو على خوسيه وانهالوا عليه ضربًا.

قام خوليو بسرعة، وبصق الدم الذي تجمع في فمه نتيجة ضربة رأس خوسيه، ثم أشار إلى رجاله بالكف عن الضرب.

- خوسيه إنك شخص ذكي، فكر جيدًا فإني لن أفقد شيئًا لو قتلت زوجتك وابنتك، أو سلمتهن لفرقة من الجيش، مصيرهن بيدي. قالها وهو يلوح بقبضة يده في وجه

خوسيه. نظر خوليو إلى يديه الغليظتين وكأنه يراهما لأول مرة.

- إنك محظوظ، فنحن بحاجة إليك، قم بما يطلب منك. وسنعطيك المال، وإذا لم تنفذ فلا تلم إلا نفسك.

تخيل خوسيه للحظة واحدة ماذا سيحدث لابنته وزوجته، ارتعش جسده من مجرد التخيل. ولكن ما العمل؟ هل يخون الجنرال، ويصبح خائنًا؟ لا، لا لن أفعل ولكن ما العمل؟ فلا يمكن أن تنتظر من هؤلاء الأوغاد الرحمة، فما دامت السلطة بأيديهم لا يمكن صنع شيء معهم.

- صاح خوسيه بغضب: أيها الوقح.

اقترب خوليو منه وانحنى في تصنع ظاهر أمامه وكأنه لم يسمع سباب خوسيه له، وتساءل بسخرية:

- أية خدمة، يا صاحب السعادة؟

- اتركني مع زوجتي وابنتي وحدنا، أريد أن أتحدث إليهن على انفراد، وفك أيديهن وأفواههن.

العجيب أن الانقلابيين نفذوا ما طلبه خوسيه منهم دون تردد أو مساومة، لحظتها أدرك خوسيه أن البحرية ليست مع الانقلابيين، هذا جيد، ولكن للأسف لم أصل إليهم. عندما انفرد بزوجته وابنته أعطى مسدسه الصغير الذي كان مخفيًا تحت إبطه لزوجته، وشرح لها كيف تستخدمه.

بعد ١٠ – ١٥ دقيقة دخل الواقفوان خلف الباب إلى الغرفة.

- صاحب السعادة، لا يجوز التأخير، أصدر أوامرك.
- حسناً أنا موافق، يا خوليو تذكر أنه لو سقطت شعرة من رأس زوجتي أو ابنتي فإني سأعثر عليك وأنتقم منك حتى لو اختبأت تحت الأرض.
- بالطبع ما هذا الحديث. لا تقلق كل شيء سيكون على ما يرام، سوف أحرسهن بنفسي، ولن أغادر هذا المكان، أما هؤلاء فسيذهبون معك، فإن حاولت الذهاب إلى البحرية، فإننا سننفذ ما حذرتك منه.

خرج خوسيه، وكان يراقبه اثنان منهم عن بُعد، ولم يفارق عقله التساؤل: "ما العمل؟ ما الحل؟". ولم يكن يدرك إلى أين يسير، ولماذا، لكن خوسيه كان يدرك من الخطوات الواثقة لأولئك الذين يسيرون خلفه أنه لم يبق أمامه سوى اتجاه واحد من اتجاهين لا ثالث لهما: قصر الرئاسة، أو مقر القيادة البحرية.

عندما ظهر القصر الرئاسي أمام عيني خوسيه دار فجأة، وسار باتجاه المراقبين له وقال لهم:

- "اسمعا أيها الغبيان، انصرفا من هنا فلن يُسمح لكما بدخول القصر الرئاسي معي".

هز الشخصان رأسيهما بالموافقة، وتحولا إلى الطريق العادية خارج القصر، ثم توقفا. سار خوسيه بسرعة ودخل إلى القصر، قدم له الحرس التحية، ردًا على سؤاله غير الواضح: "أين الرئيس"؟ أشار رئيس الحرس إلى مكتب الرئيس، دخل خوسيه إلى المكتب وهو شاحب الوجه، نظر إليه الرئيس مبتسمًا ووضع يديه على كتفيه، وأراد أن يقول شيئًا ما لضابطه المفضل، وهنا نظر خوسيه إلى قدمي الرئيس وأدرك أنه هو المذنب الرئيسي في الانقلاب، بسبب تباطئه وتخاذله، فلولا تخاذله لكان من الممكن تفادي الكثير مما يحدث.

وبحركة سريعة خلع خوسيه السيف من كتف الرئيس وبضربة واحدة قطع عنقه، سقط الرأس على الأرض، لفه خوسيه في كيس وخرج من الغرفة.

كان الاثنان ينتظرانه.

- إذا نفذتما ما آمركما به ستحصلان على مناصب جيدة في الحكومة الجديدة".

نظر الشخصان أحدهما إلى الآخر وهزا رأسيهما بالموافقة.

- ستوصلانني الآن إلى رئيس الانقلابيين. وسنكون من الناس المخلصين، ها هو ذا انظروا. وأراهم خوسيه رأس الرئيس في الكيس الممتلئ بالدماء.

- نعم، نعم سنكون سعداء بتنفيذ أوامرك، سنوصلك بالطبع، سنوصلك.

- رافق التابعان خوسيه إلى مبنى السفارة المكون من أربعة أدوار كان خوسيه يعرف الجميع في هذه السفارة، قال المرافقان شيئًا ما للحارس ودخل الثلاثة إلى مبنى السفارة، خرج إيرنيستو لملاقاتهم، وهو موظف في السفارة وصل حديثًا من البلد المجاور.

- خوسيه، يا صديقي ما هذا الوقت الذي وصلت فيه؟ لا أفهم شيئًا؟ ثم ماذا بيدك؟

- إيرنيستو هذا رأس الرئيس، أنا قطعته.

- كيف يا خوسيه، ألم تكن من أتباع الرئيس وكان يثق بك كثيرًا؟ لو كان شخصًا آخر.. ولكن أنت، هذا سيئ، سيئ، يا إلهي، من كان يتوقع ذلك: خوسيه يقوم بمثل هذا العمل، ما الذي يحدث في هذا العالم؟!.

- قال خوسيه بصوت صارم: إيرنيستو، باختصار يجب أن يظل هذا هنا يجب العمل بسرعة، الوضع حرج جدًا، لا يجب إعطاء السلطة للأوغاد أمثال خوليو وإلا فإننا سنموت جميعًا.

- قال إيرنيستو: نعم أنا أفهم هذا – كلمة الرجل الحقيقي، يبدو لي أنك بطل حقيقي، اعذرني يا أخي، فنحن هنا نناقش لمن نعطي السلطة. فما دخلي أنا؟ أنا مجرد أجنبي عن هذه البلاد. حقًا لقد قام خوليو بالكثير، لكنه كلب قذر.

- خوسيه يا عزيزي، إذا قررت القيام بهذا فإننا سنجد من نتهمه بقتل الرئيس، فلا تقلق، وسنقيم مراسم دفن كبيرة له تليق به، وسنقضي على كل من يعرف شيئًا عمّا حدث اليوم، وكذلك على الوغد خوليو وكل الذين معه، بهذا الشكل فقط نستطيع تجنب الكارثة.

- رئيس الحراسة والحرس أيضًا!!

- نعم، نعم وهم أيضًا، أتمنى لك التوفيق اترك هذه الرأس هنا، رجالنا سيساعدونك إذا أريتهم هذا.

وأخرج إيرنيستو له عملة ذهبية، ثم أشار إلى رجل ضعيف طويل يقف بعيدًا وقال:

- خذ هذا الرجل يمكن أن يكون وزيرًا للداخلية.

بدا لخوسيه أنه قد رأى الرجل من قبل في مكان ما. دار خوسيه وكاد أن ينصرف من الغرفة، لكنه عاد وقال:

- إيرنسيتو، كنت أريد اليوم في المساء أن أقابل المرشح للسلطة، أعتقد أننا بحاجة لأن نتحدث ونوزع حقائب الحكومة الجديدة.

- أوه، يا خوسيه هذا بالضبط هذا هو بالضبط ما فكرت فيه، الآن أدعوهم في الساعة السابعة مساءً للاجتماع.

توجه خوسيه إلى زوجته وابنته، أخذ وزير الداخلية المستقبلي يفكر ويُعدد أولئك الذين يمكن أن يكونوا زملاء له في الحكومة الجديدة.

أخيرًا لم يتحمل خوسيه مزيدًا من التفاهات، ونظر إليه بنظرة غاضبة ألجمته، فصمت الآخر مباشرة.

فتح خوسيه الباب بسرعة ودخل مع المرافقين إلى الغرفة، عندما رأى خوليو أن خوسيه لم يأتِ منفردًا ارتعش من الخوف.

اختنق خوليو بريقه، واستمر يسعل طويلاً، يبدو أنه لم يتوقع هذا التحول للأحداث، لأنه كان يحلم كيف سيحمل هو الرأس المقطوعة إلى سيد القصر الجديد.

إلى جانب ذلك كان يعرف جيدًا ذلك الرجل الذي يقف إلى جوار خوسيه، وقد كان رجلاً صارمًا لا يعرف الرحمة أو الإنسانية، ذات مرة رأى خوليو بأم عينه كيف أنه أطلق النار بيده على مجموعة من الناس الذين اتهمهم حينها بالجبن.

- صرخ فيه خوسيه: أين زوجتي وابنتي أيها الوغد.

وقف خوليو مذهولاً كالصخر لا يتحرك، وأخذ ينظر تارة إلى خوسيه، وتارة إلى الوزير المقترح.

وأخيرًا نطق الوزير القادم قائلاً: صاحب الفخامة خوسيه من الآن فصاعدًا قائدنا، وواجبك أن تخضع له.

عندها سقط خوليو عند قدمي خوسيه، وأخذ يقبل حذاءه المُغبر، ويبكي ويصيح بأنه لم يذنب في شيء.

ركل خوسيه هذا الوغد ودخل إلى الغرفة ورأى ابنته الباكية، وإلى جوارها جسد أُمها وقد فارقته الحياة.

كان المسدس مرميًا إلى جوارها، وفهم خوسيه كل شيء، أراد أن يهجم على خوليو، ولكنه تراجع واقترب من جسد زوجته، ولم يديها وأغلق عينيها. ثم قبلها وأمر بأن يتم نقلها مع ابنته إلى المنزل.

قال خوسيه ملتفتًا إلى خوليو: أنت أيها الخنزير، سوف تنفذ كل ما آمرك به وإلا سأقتلك، اسمع، خذ معك أولئك الاثنين ولا تبعد عني ولو خطوة واحدة.

ثم وجه كلامه للوزير القادم:

- سوف أذهب إلى البحرية، سأحاول أن أكسبهم إلى صفنا، وفي المساء سنلتقي في المكان المحدد.

في الساعة السابعة، كان خوسيه ومرافقوه في مقر السفارة. لم يوقفهم أحد فتوجهوا مباشرة إلى الصالة التي كان يجب أن يكون الاجتماع فيها. ترك خوسيه مرافقيه في الخارج، ودخل إلى صالة الاجتماع.

كان أعضاء الحكومة الجديدة يجلسون في الغرفة، وكان خوسيه يعرفهم جميعًا، فقد كانوا جميعًا يعملون في المجلس الرئاسي: ذلك الأصلع كان نائبًا للرئيس، اثنان من الوزراء، أما الرابع فكان شخصًا خطيرًا جدًا، رغم وجهه الشاحب المرهق. يُقال إن الجنرال الرئيس نفسه كان يخاف منه، كان ذلك الشخص هو مدير السجن.

تساءل خوسيه في نفسه: من منهم يريد الرئاسة؟ يبدو من جلستهم، إما نائب الرئيس أو مدير السجن، فقد جلس الشخصان إلى يمين ويسار السفير إيرنيستو.

قال إيرنيستو مبتسمًا ومتجهًا لمقابلة خوسيه: آه ! هذا هو بطلنا.

أدرك خوسيه أن الجميع يعرف أن رأس الرئيس على الطاولة، ويعرفون من فعل ذلك. فتنحنح وقال: "أيها السادة، القوات البحرية انضمت إلينا، السلطة في يدينا".

فقال إيرنيستو: والقصر الرئاسي أيضًا في يدينا وانتظر قليلاً وواصل: لقد اضطررنا للقضاء على رئيس الحرس ومدير مكتب

الرئيس، فقد أبديا مقاومة. قال ذلك وهو ينظر نحو خوسيه الذي لم يحرك ساكنًا.

قال إيرنيستو: وهكذا أيها السادة، علينا الآن أن نقرر لمن نسلم السلطة قبل الانتخابات، قال ذلك وجلس، فصمت الجميع وهم لا يعرفون كيف يتصرفون، أخيرًا نطق أحد الوزراء:

في الوقت الحالي نحن بحاجة إلى حاكم صارم، نائب الرئيس ليبرالي، أعتقد أن السلطة يجب أن تُسلم إلى... وأشار إلى مدير السجن دون أن ينطق اسمه، فحرك الوزير الثاني رأسه بالموافقة.

أدرك خوسيه أنه لا يجوز التأخير، بدأ يسعل، فدخل إلى الغرفة ثلاثة من المسلحين بمسدسات، رفع خوسيه البندقية أيضًا، وقال:

"أيها السادة انتهت اللعبة، المبنى محاصر بقوات البحرية، ولن يخرج أحد منكم حيًا من هنا".

استقرت أول طلقة نار في صدر إيرنيستو المذهول، واستغل وزير الداخلية القادم الفرصة واختفى في مكان ما ولكن خوليو بحث عنه وقتله، ثم نظر إلى خوسيه الذي أشار إليه بالموافقة فأطلق النار على مساعديه، ولكن إحدى الرصاصات لم تصب هدفها مما اضطر خوسيه لإطلاق النار بنفسه على المساعد الثاني.

نظر خوليو إلى خوسيه، نظرة الإنسان الذي كفر عن ذنبه، ولكنه رأى أن خوسيه قد وجه نحوه فوهة بندقيته، بدأ خوليو يتمتم

بكلمات سريعة متلاحقة راجيًا العفو والمغفرة، لكن خوسيه أفرغ فيه خزينة بندقيته كاملة.

بعد ذلك خاطب خوسيه الشعب عبر المذياع قائلاً:

"لقد قتل أعداء الشعب الرئيس – الجنرال آملين السيطرة على السلطة، ولكن البحارة المخلصين للرئيس أبدوا مقاومة بطولية، وتمكنوا من الأعداء"، ثم تحدث عن مراسم تأبين الرئيس، وأنه سيأخذ السلطة حتى موعد الانتخابات.

تم وضع تمثال تذكارى للرئيس، وتزوج خوسيه من مجدلينا، وقد رحب الشعب بذلك، وفاز خوسيه بسهولة في الانتخابات.

وانهزم الأعداء وحل السلام والأمن والاستقرار والنظام في البلاد.

على هذا كان بإمكاننا أن ننهي قصتنا لولا هذه الفتاة ابنة الجنرال وزوجة الرئيس الفائز بالانتخابات... مجدلينا.

مجدلينا

مرت أربع سنوات، وكانت مجدلينا تريد أن يكون لديها ولد، واستجاب الله لها فأنجبت طفلاً قويًا جميلاً، عندما فقدت وعيها سمعت بكاءه بصوت لا يكاد يسمع من شدة الوهن رغم أنها أطلقته بكل من بقى لها من قوة بعد إجهاد الولادة. "خوسيه، خوسيه". عندما استيقظت رأت خوسيه منحنيًا فوق مرقد الطفل.

أخذت مجدلينا تتفحص خوسيه وكأنها تراه لأول مرة، وبدا لهـا وكأنه مريض بمرض مُميت، فقد كان وجهه شاحبًا مرهقًـا، ذا بقـع سوداء تحت العينين، ولاحظت أنه مهما تبسم تظـل عينـاه بـاردتين ومرهقتين.

وكلما أطالت مجدلينا نظرها إلى حبيبها بدا لها وجهه أكثر حزمًا وخاليًا من الحياة، إلى درجة أنها أحست للحظة وكأنه ينبعث منـه مـا يشبه ببرد القبور، فارتعشت من الخوف، أما خوسيه فقد فهم الوضـع كما يشاء، فرفع يديه ليداعب زوجته، لكنها ارتعـشت مـن الخـوف ودفعت يديه عنها، استغرب خوسيه، فعادت مجدلينا إلى وعيها فـشدت يدي خوسيه إلى صدرها.

- خوسيه، إن لدينا ولدًا.
- شكرًا يا عزيزتي، الآن لدي وريث. ثم أردف: ألا يجب أن يكون الطفل شبيهًا بأبيه؟
- لا، لا أريد أن يكون الطفل شبيهًا بك، بل بأبي.
- لماذا؟
- في روحك برود أبدي، لا ينبع منها الدفء.
- أليست الحياة هكذا؟

– لا، إنك مخطئ، الحياة حارة مثل الصيف، فقط أولئك الـذين لم يستطيعوا أن ينتصروا على قدرهم تبدو لهم الحيـاة كالخالـة الغاضبة.

– أنا، وحدي أملك مصيري – أنا الرئيس، ومـصير ملايـين الناس بيدي.

– على الرغم من أنك الرئيس، فإنك لا تسيطر علـى قـدرك، فأنت لم تتمكن من الانتصار على القدر – أنت عبدٌ له.

– لا أفهم يا حبيبتي، ماذا تريدين أن تقولي؟

– لقد خُلقت بروح نقية، وكنت مثالاً بالنسبة لأُمك، وأنا أحببتك على رقتك، وكان أبي يعرف ذلك الحب في قلبي تجاهك، وكـم كنت أحسد زوجتك عليك، حتى كثيرًا من المرات كنت أتمنى أن تموت زوجتك حتى لا تنعم بدفء صدرك إنسانة سواي.

– كنت أخمن ذلك، ولكن..

– لكنك تحولت بعد ذلك إلى صخر من الجليد.

– كيف ؟ (باستغراب).

– أنت تعرف ذلك بنفسك.

– نعم، إنني متعب نفسيًا، فأنت لا تعرفين الكثير يـا مجـدلينا، أحيانًا يُهَيَّأ لي أن كل ما حدث كان حلمًا.

- يمكنك ألاّ تتكلم أنا أعرف كل شيء.

(برعب) ماذا، ماذا تعرفين؟

- عن مقتل أبي ومن قتله.

- لماذا تسكتين حتى الآن ؟ فقد كنت سأجده وأعاقبه.

- هنا أنا أقرر، وليس أنت.

- كيف استطعت أن تسكتي؟ وأنت تعرفين من قتل أباك؟.

- لقد انتظرت ذلك سنوات طويلة، وها هي ساعة الحساب قد حانت.

- انتظري، ما الذي تعرفينه؟

- أنت من قتل أبي. أنا رأيت كل شيء.

- مجدلينا، لا تصدقي هذا، إنه تخيلك، هذا لا يمكن أن يكون، عودي إلى رشدك.

- لا تخادع، في كل مرة أتمدد فيها على السرير، كنت أكرر عبارة واحدة. لا، لا تصدقي، يا مجدلينا، لا تصدقي عينيك، فما كان لهما أن يريا ذلك لا تصدقيهما ولا تصدقي أحدًا. فإنك لو صدقت ستعيشين أسيرة القناعة العمياء، التي لكي تتخلصي منها إما أن تموتي أنت أو تقتلي شخصًا آخر.

- مجدلينا... (لم تستمع إليه مجدلينا) وواصلت:

– عندما حملت، قررت أن أقتلك.

– مجدلينا...

– وهكذا خُلق الطفل – وريثك. وانتقل حبي إليه، وتصبح أنت زائدًا، فإذا كنت تعتقد بأنك ستعيش سعيدًا – ابق حيًا، إذا كان الضوء الأبيض قد لحق بك – فعد ثانية إلى المكان الذي جئت منه.

– نعم، يجب أن أموت، دون أن أتحرك من مكاني، أنت على حق وهذا هو الصحيح.

– أنا لا أقول إن هذا عدل، ولكن هذا ما يجب عمله، فأنت لم تستطع أن تقاوم قدرك، فدع ابنك الآن يحاربه، ويجب أن تظل أنت في ذاكرته طاهرًا نقيًا، فإنه الآن أكثر ما يكون حاجةً إلى روحك، أما أنت فستنقي نفسك عند الله، وستعود من جديد خوسيه الذي أحببته.

– ماذا سنسمي ابننا، يا مجدا....

– اسمه خوسيه، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فأنت تولد مرة ثانية ولا يمكن أن يكون في الحياة شخصان من الإنسان الواحد، لذلك يجب أن تصبح أنت روحًا دون جسد، بينما سينمو ابنك وسيفعل ما عجزت أنت عنه.

– مجدلينا، لن أستطيع أن أنتصر على القدر، سأنصرف ولكن اسمحي لي أن أقبلك للمرة الأخيرة.

- لا، فأنت غريب بالنسبة لي، وليس لدي تجاهك أي مشاعر. أنا أسيرة القناعة، ومن الآن وصاعدًا أنا أُم فقط، هل تسمعني؟ أُم فقط، أنا أُم لك أنت أيضًا يا خوسيه، من الآن أنا أعبد روحك، ومن هذه اللحظة لست أنت عزيزًا على قلبي، بل روحك فقط، اذهب يا خوسيه ولكن ليس لتختفي إلى الأبد، بل لتحترق وتضيء الطريق لحياة جديدة.

توفي الرئيس خوسيه فجأة واختفى من الحياة على غير توقع من أحد، لكن جسده البارد دخل أخيرًا في قبره الذي انتظره طويلاً. أقامت له الدولة مراسم تأبين كبيرة. واعتلت مجدلينا السلطة.

في يوم موت خوسيه الأب بكى خوسيه الوليد طوال الليل، ربما قلقًا من شيء ما، أو ربما أراد بصوته أن يعلن وجوده لهذا العالم الذي وصل إليه، أو ربما أراد مقاومة شيء ما خفي. لا ندري، فقط نعرف أن الوليد بكى طول الليل.

حدث في الإجازة

عمري ستة عشر عامًا، وأدرس في مدرسة الحي التي تبعد ١٠ كم عن البيت. والدي راعٍ لكنه لا يملك ما يرعاه، إنما يرعى ماشية الذين يملكون من موسري القرية. لأن المدرسة بعيدة، أبقى فيها طول الأسبوع، فقط أعود يوم الأحد إلى البيت. عندما وصلت كالعادة في ذلك الصباح إلى الحي، كانت عربة الخيل عند بيتنا، وكان والدي يريد أن يأخذ أختي المريضة إلى مستشفى الحي، وكان على أمي أن تقوم برعاية الماشية، هل أنا بحاجة كي أقول لكم كم فرحت الأسرة بقدومي؟.

أخرجوا أختي العاجزة عن الحركة محمولة على الأيدي إلى الشارع، ثم أجلسوها في العربة، وودعنا أبي بيده. في حين لوحنا أنا وأمي لهما نودعهما. تحركت الخيل، وبعد أن أطعمتني أمي وضعتني في السرير، قائلة لي: استرح ونم. لن يقوم أحد في مثل هذا الجو الساخن بسرقة الماشية.

لا أعرف لماذا ؟ لكن أمي كانت تحب أن تبكي عندما تبقى وحدها، في ذلك الوقت كنت أظن أنها تبكي من الضجر لكي تتسلى فهي دائمًا تبكي حتى اعتدت على رؤيتها باكية، أو ربما كل النساء يصنعن ذلك حينما يكن في بيوتهن. من يدري؟!

الآن بعد أن ماتت أُمي المسكينة، فإني أتذكر كم تحملت من الآلام والعذاب، فلم يبق لها من أحد عشر طفلاً أنجبتهم إلا ثلاثة أحياء فقط. أخي الأكبر غرق، واحدة من أخواتي احترقت حية أثناء حريق شب في بيتنا، ولا أدري ماذا حدث للآخرين، عندما تمددت أختي الوحيدة الباقية حية من المرض، كانت أمي قلقة جدًا لأنه منذ أيام مات ابن الجيران – يعملون أيضًا في الرعي مثل أبي، وكان هذا الابن المتوفي قد تمدد خمسة أو ستة أيام يشكو من ألم في البطن.

لم يكن هناك وقت ليذهب الجيران بابنهم المتألم إلى المستشفى، حتى عندما ذهبوا به هناك، وتفحصه الطبيب قال إن الوقت أصبح متأخرًا لفعل أي شيء. جاء إمام القرية يهدئ من روع الأم المسكينة التى ثكلت ابنها بكلمات يحفظها ويكررها في هذه المناسبات، لكنها سقطت فاقدة لوعيها؛ ما عسى تصنع كلمات الإمام في هذا الجرح الدامي في قلب أم ثكلى، لو أنه يعرف ما تشعر به لما نطق بكلماته تلك. نظرت أمي إلى المرأة الثكلى وأجهشت بالبكاء، لا أدري هل تبكي بهذه الحرقة رحمة بالأم الثكلى، أو حزنًا على الصبي المتوفى، أو خوفًا من أن يصيبها الدور فتثكل ابنتها المريضة.

أحاول ألاّ أنام، أراقب أُمي من خلال رموش عيني، وأفكر في نفسي لن أدعها تبكي، لكني نمت دون أن أدري.

استيقظت على أنفاس أمي الساخنة، كانت تحتضني وتقبلني قائلة:

- استيقظت يا رجلي، لقد أدخلت الماشية إلى المسقى، حان موعد سقيها اجمعها جميعًا عند الأحواض، قال أبوك: إنه قد ملأ الأحواض بماء البئر كي نسقي الماشية، كن حذرًا، ولا تنزل من على الفرس دون ضرورة، فلا يستبعد أن يكون هناك أية آفة ضارة.

كانت أُمي المسكينة تخاف من كل شيء لدرجة الرعب. قفزْت بثقة إلى ظهر الفرس، رغبة مني في أن أتجمل أمام أمي وأظهر أنني أصبحت يافعًا لا داعي أن تخاف عليَّ. جمعت الماشية ووجهتها نحو أحواض الشرب، أراد أحد ذكور الماعز الذين يقودون القطيع أن يستعجل الغنم بعد أن نال هو كفايته من الماء، لكنني قطعت عليه الطريق بضربة من السوط في الهواء، فهم الذكر الإشارة واتجه إلى الناحية الثانية منتظرًا، وثنى نظره عني، في حين أخذت الماعز تتحسس الأعشاب الندية حول المسقى.

من قال إنه ليس هناك رومانسية في عمل الراعي؟ في الرعي أنت وحيد في المروج الفسيحة تصدح، وتغني، وتقول ما تشاء، لا تخشى أن يسمع أحد ما تترنم به لنفسك، كما يمكنك أن تسرح بخيالك في الصفحات الخضراء المنشورة من كتاب المرج اللانهائي، وتتذكر كل ما مر بك في حياتك، وتستطيع أن تناقشه بصوت عالٍ، دون أن تضطر إلى أن تخفي في صدرك شيئًا ودون أن يطلع أحد على أسرارك. ما أحلى أن يبوح الإنسان بصوت مرتفع في الهواء الطلق اللامحدود.

الآن أتذكر منافسي القديم أمنتاي، كل القرية كانت تتناقش من الأقوى منا وحتى الآن لم يتوصلوا إلى نتيجة، ولا يمكن أن نحصى عدد العراكات التي كانت بيننا، فكم من المسابقات التي كان ينظمها بيننا الشباب الأكبر منا. على سبيل المثال المسابقة الأخيرة التي صنعوا فيها أحمالاً من عجلات الحراثة، فماذا تعتقدون؟ لقد رفعنا الحمولة الثقيلة عددًا متساويًا من المرات، وظل الفائز منا غير معروف من جديد.

غرقت في التفكير، ولم ألاحظ أن الشمس قد شارفت على المغيب، سُقت الماشية بسرعة نحو أحواض السقي، واقتربت من المنزل القديم الذي أقمنا فيه لمدة عامين من قبل، ولكن منذ أن ضموا القرى بعضها إلى بعض لم يعش فيه أحد، سوى الخفافيش والحشرات، كل شيء فيه مازال سليمًا الأبواب والشبابيك على حالها، فقط تساقطت التشطيبات الداخلية منه، لامست الجدار بكتفي جريت نحو الباب، انفتح الباب بسهولة في يدي، وكأنه ما كان مغلقًا، خرجت إلى الخارج وسمعت خلفي صوتًا ما يضحك بصوت عالٍ.

قال جدي إن الشيطان يمكن أن يأتي على شكل إنسان. ولكي تعرف من أمامك يجب أن تضربه مرتين بالسوط على ظهره، فإذا كان شيطانًا فإنه سيستسلم، ويبدأ يشتري حريته بالمال.

لم ألحق أن أمتطي الفرس حتى سمعت صوت أمنتاي المخمور يصرخ كعادته.

- "هذا أنا – أمنتاي، ماذا حدث، ألم تعرفني؟"

لم أخدع بالصوت الشبيه بصوت أمنتاي وضربت الشيطان ضربتين بالسوط على ظهره، وانطلقت على فرسي لجمع الماشية التي ارتوت وأخذت في التفرق بعيدًا عن الماء.

عندما شعرت بأنني قد ابتعدت عن المكان المهجور الذي ملأ بالذعر قلبي توقفت. التفت أنظر خلفي، لم يكن أمنتاي موجودًا في أي مكان.

في ذلك الخريف سافرت للدراسة في المدينة، وعلى الرغم من أنني التقيت وأمنتاي، فإننا لم نتحدث عن تلك الحادثة إطلاقًا، ولم أضطر بعد ذلك لقياس قواي معه، في تلك السنة توفيت أختي من الزائدة الدودية، وتأثرنا جميعًا بوفاتها، خصوصًا أُمي المسكينة التي تعذبت كثيرًا لذلك.

مر وقت طويل منذ ذلك الحين، ولا أستطيع الآن أن أحدد إن كان ذلك قد حدث معي فعلاً، أم أنه كان مجرد وهم من أوهام الصبى؟ يمكنك أيها القارئ أن تنصحني أن أسأل أمنتاي نفسه، ولكن أمنتاي المسكين لا يستطيع الآن الإجابة على شيء. فقد المسكين عقله، وهو الآن يسير في القرية، يتحدث مع نفسه، ولا يعرف أحدًا ممن حوله.

لا أعرف لماذا ولكن أحداث السنوات الخالية تبدو جميلة ورائعة وعزيزة. مسكين أمنتاي الذي لم يكن يعرف شيئًا سوى المبارزة وقياس القوة.

أنت لا تستطيع الإجابة، وأنا حتى الآن لا أستطيع أن أفهم مـــا الذي حدث حينها بالفعل في المنزل المهجور ؟ عندما سمعت أنك فقدت عقلك، تصورت أمام عيني منظرك عندما ضربتك بالــسوط لا زلـــت أذكر كم مرة سمعت في طفــولتي قصـــصًا عـــن الأرواح الــشريرة، والأشباح، وغيرها من الأرواح الخبيثة. كل تلك القـــصص ســـيطرت على أذهاننا وتذكرناها لفترات طويلة....

الآن أفكر هل كان ما حدث واقعًا؟

لطمة على الخد

منذ الصباح الباكر أخذ الجميع يستعد للسفر، على ما أذكر فإن والدي قرر الرحيل إلى منطقة ألتاي بعيدًا عن النشطاء الشيوعيين في القرية.

جمع الرجال والنساء الصحون، وأخذوا البطانيات والوسادات والملابس. أخذ الجميع يجمع أشياءه القديمة بمرح. أنا وحدي كنت واقفًا كالعمود، كنت أقف كالغريب بينهم.

لماذا حتى اليوم لم يتحدث أحد عن الرحيل، هل أخذوا القرار فجأة هكذا ؟ لماذا لم يأخذوا رأي الصبية في الرحيل، هل لأنهم كبار يتحكمون هكذا في حياتنا ؟ ويقررون متى نترك مراتع الصبا وملاعب الطفولة؟!

انتهى الجميع من جمع الأشياء وتكديسها، وجلس الجميع على شكل نصف دائرة، حيث قرأ جدي القرآن، ودعا جدي لنا دعاء السفر.

قام والدي من مجلسه واتجه نحو الخارج، أجهشت النساء اللواتي سيطرن على مشاعرهن وحجزن دموعهن حتى الآن بالبكاء، حاول الرجال التهدئة من روعهن، ولكن البكاء والتنهدات استمرت فترة طويلة، مسكينات هؤلاء النسوة، فقد فقدن – مثلي – كل ما تعبن من أجله وحافظن عليه لسنوات عديدة، وتركنه خلف ظهورهن.

هل من السهل أن تترك موطنك الأصلي، الذي تعرف فيه كل صخرة وكل ساحة، وما الذي ينتظر هناك في الأرض الغريبة؟ هل ستهش الأرض فرحة للقائي هناك كما كان كل شبر يهش للقائي وأنا أجري فوقه؟!

لا لا أريد الرحيل. فليرحلوا هم إذا أرادوا ذلك. أنا أحب هذه الأرض، فلماذا أتركها ؟! لا لن أذهب معهم.

لكن أحدًا ما لم يطلب مني أن أذهب معه. كان البقاء هنا قرارهم لا قراري أنا. أمي الآن في عداد الموتى، يرحمها الله، اقتربت مني حينها واحتضنتني وهي ترتعش، ثم قبلتني ووضعت ربطة الملابس المعقودة في يدي وقالت بصوت ثابت وقوي:

- "يا ولدي، ما العمل ؟ كن حذرًا وانتبه لنفسك".

بهذه الكلمات مسحت دمعها وابتعدت عني بخطوات سريعة.

بدأت الأرض تهتز من تحت قدمي، إذا سيتركونني وحيدًا بين الناس الأغراب، لا فائدة من محاولتي أن أجبرهم على البقاء في أرضي التي أحببت. قررت في نفسي، لا، لا، لن أبقى مهما حدث، وسأذهب معهم.

تقدم مني جدي وقال:

- يا بني كن ذكيًا فأنت ستظل هنا بين الأقارب، افهم جيــدًا. هذا أمان لك. أنت ما زلت صغيرًا ولن يتعرض أحــد لــك بأذى، صغيري إن الأمر صعب علينا، تفهم وضعنا.

قال هذه الكلمات وجلس في العربة وتحركت الخيول.

كنت واقفًا أنظر إلى أبي الذي حاول بشتى الطرق التهرب مــن نظرتي له متظاهرًا بأنه مشغول جدًا، تذكرت أن والدي كان يتــصرف بشكل طبيعي في الأيام الأخيرة، لم أكن أفهم ماذا حل به وبقريتنا كلها. منذ يومين أو ثلاث لم يفارقني أبي ولو للحظة واحدة.

عندما ذهب إلى القرية المجاورة تحدث لفترة طويلة مع الراعي كوسبان عن شيء ما، بعد ذلك دعاني إليه وقال:

"يا كوسبان هذا هو أمامكم، طبعًا من الأفضل أن ينمــو قلــيلاً، ولكن ما العمل يبدو أننا سنضطر للاستسلام للقدر. أرجوك اهــتم بــه وخذه مساعدًا لك في رعي الماشية".

أجاب كوسبان بتخاذل وعدم رضى:

- يا إلهي، إننا في وقت قد لا يستطيع الإنسان فيه أن يحمــي نفسه.

- "ليس لدي حل آخر يا كوسبان، وأنا قابل بكــل شــروطك" قالها أبي وقام من مكانه منهيًا الحديث.

كل ما فهمته حينها هو أن أبي كان يريد مني أن أعمل، ولم أكن حزينًا لذلك مطلقًا، كان كوسبان يعيش بالقرب منا، وفكرت حينها بسذاجة الطفولة أنني سأذهب إلى البيت من وقت إلى آخر كما أن كوسبان وهو أحد أقاربنا اشتهر بطيبته وكرم خلقه، وغير ذلك. مرة سمعت جدي يقول إن العاملين في المزرعة مع كوسبان يمكنهم أن يشربوا من حليب الأغنام حتى يشبعوا، وفكرت متخيلاً الحياة القادمة: على الأقل لن أكون جائعًا.

خرجنا من عند كوسبان، وسرنا على الأقدام، وكان أبي طوال الطريق يتوقف ويحتضنني، وقد كنت مستغربًا لدرجة كبيرة من تصرفاته الغريبة، لكنني كنت أتصور أنه يصنع ذلك رحمة بي لأنه يرسلني إلى العمل، وأنا مازلت صغيرًا، لكن ما البأس في ذلك، أنا أحب ذلك العمل، مساكين هؤلاء الكبار، كم يظنون أننا صغار لا نصلح لشيء.

لم أكن أتخيل وقتها أن أهلي سيتركونني، أما الآن فقد فهمت كل شيء، سأظل وحيدًا ويسافر أبي وأُمي وجدي وإخوتي وجميع أهلي، جميعهم يرحلون ويتركونني وحيدًا أواجه مصاعب الحياة.

وقفت كالصنم والشعور بالوحشة والظلم يملأ نفسي، وعندما تحركت العربات فقط، أجهشت بالبكاء، وتحركت من مكاني، وأخذت أصرخ وأجري وراء أهلي الذين يجدون السير بعيدًا عن طفلهم الصغير.

أجري وراءهم وأصرخ بكلام لا أذكره، الدموع تملأ وجهي، ولحقت بآخر عربة، تمسكت بها مد أخي الصغير يده وسحبني، لكن نزل من العربة الأولى وشدني بقوة وعنف من العربة لكني تمسكت بالعربة، لطمني أبي على خدي!!

ضج الجميع وتحركوا، يبدو أن أحدًا ما قد دافع عني، لكن صوت أبي الغاضب أسكت الجميع.

اختنق حلقي بالدموع، لكن على الرغم من الحرارة التي أشعر بها في خدي بسبب اللطمة، فإني لحقت بالعربة مجددًا، لكن يدي أبي القويتين دفعتاني عنها فسقطت ولم أقم من مكاني مواصلاً البكاء على الأرض.

كان من المستحيل اللحاق بهم، لذلك أخذت ربطة الملابس التي أعطتني أمي إياها وانتقلت إلى القرية المجاورة حيث يعيش العم كوسبان.

عاد أبي مع بقية أهلي بعد عامين، ولم يكن جدي معهما: فقد مات في مكان بعيد، وعاد الجميع سالمين، حتى إن إخوتي وأخواتي أصبحوا يتحدثون اللغة الروسية.

مرت سنواتي كثيرة منذ ذلك الوقت.

ذات مرة عندما كان والدي في حالة نفسية سألته:

- يا أبي قل لي – الآن على الأقل – لماذا لم تأخذوني حينها معكم وتركتموني؟ تنهد والدي بصعوبة:

- "يــا بني، ما كنا نعرف حين عزمنا الرحيــل أننا ســنعود، لا أحد يأخذني للعمل لأننا كولاك[1] بدأنا نجوع، لذلك قررنا أنا وجدك أن نرحل إلى منطقة ألتاي. وقتها لم نكن نعــرف ماذا ينتظرنا هناك. أناس أغراب ولغة غريبــة، وعــادات غريبة، لذلك تركناك في الوطن. إذا كان قدرنا أن نمــوت، ستظل أنت حيًا لتواصل أصلنا وعرقنا، وقد كــان أخــوك الأصغر لا يزال صغيرًا جدًا، أما أنت فقد كنت قادرًا على كسب لقمة العيش".

بالطبع لو حاول أبي حينها أن يقول لي لمــا فهمــت، وظللــت طويلاً أذكر اللطمتين على الخد، وأن أبي سحبني بقــوة مــن العربــة وقذف بي على الأرض، معتبرًا ذلك ظلمًا وتعنتًا ووحشية. لم أكن أعلم أن تلك القسوة التي كرهت أبي لسببها طويلاً ما هي إلا نتــاج الحــب الأبوي للحفاظ على ابنه وحمايته من المجهول.

عندما أصبحت أبا، وبعد ذلك جدًا أخذت أقلب النظر في وجــوه أبنائي وأحفادي وأتذكر طفولتي، وتلك السنوات التي أصبحت مجــرد ذكرى تفصلني عنها سنوات لا أكاد أذكر عددها، لكني ما زلت أتخيــل من جديد أثر العربة التي حملت أهلي بعيدًا، وأشعر بخدي يحترق مــن الصفعة، الآن أدرك أن قسوة الكبار وصرامتهم لن تضر أبــدًا أبنــائي وأحفادي، هذا إذا استطعت أن أقسو عليهم.

---

(١) الأغنياء الذين تم مصادرة ممتلكاتهم.

الجزء الثالث

الكذب

الأصالة تبقى إلى الأبد

في ذكرى كينيساري

في المراعي القديمة كان هناك مهد تربى فيه الكثير من أجيال الذئاب، يومًا ما حدث في ذلك المهد شيء لا يصدق. ظهر في قطيع الذئاب القوية، والشجاعة والمستعدة لمقاتلة الأعداء في أي لحظة مخلوقات قبيحة، وأخذت تتكاثر بسرعة غريبة. وفجأة استسلمت الذئاب التي لم تخضع مطلقًا للأعداء، وخضعت لهذه الوحوش القبيحة. بعد فترة قصيرة أصبحت هذه الوحوش تربط الذئاب من أعناقها وتقودها.

كان هذا يخالف كل قواعد العيش في المراعي، كسر هذا – إلى الأبد – العادات المتعارف عليها في المراعي. كان ذلك كالوباء.

عندما رأى القائد كوكجال كيف أن إخوانه يتسابقون في مذلة لحراسة الوحوش القبيحة وخدمتها، وكيف تعيش الوحوش في كبرياء وراحة، والذئاب تعتبر خدمة الوحوش فخرًا كبيرًا لهم يقبلون على ممارستها بشغف وسعادة، وكيف يتسابقون للبس الأطواق في أعناقهم ولا يشعرون بالإهانة التي تصمهم بعد عز، ولا بالعبودية التي آلوا

إليها بعد حرية، ثار قلب القائد كوكجال، وغضب، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته. وأعلن القائد حربًا ضد الوحوش القبيحة.

كان القائد كوكجال قد سمع من الذئاب الكبار في السن عن هذه المخلوقات، لكنه لم يتوقع أن يراها في عهده، ولم يستطع تصور ذلك.

أفظع ما في الأمر أن أقرانه وأصدقاءه الذين تربى معهم وقاتل إلى جانبهم يدًا بيد، أصبحوا الآن في خدمة الوحوش القبيحة، ويفكرون فى القضاء عليه خدمة لأسيادهم بل إنهم ظامئون لشرب دمه، بعد أن اتهموه بأنه يرى نفسه أفضل منهم، ولا يريد أن يصير إلى ما صاروا إليه، ولم يزاحم غيره من الذئاب على لبس مقود الخنوع كما فعلوا. بل الغريب أنه على العكس من كل ذلك يحاول تجميع أمثاله من الذئاب الوحيدة التي لا تعترف بسلطة الحكام الجدد، يلم شتاتها من كل البراري، ليبدأ بها حملة ضد الوحوش.

كان كوكجال قائدًا بالوراثة، فقد تمكن أبوه من حماية المراعي من الأغراب الذين حاولوا الاستيلاء على البرارى. وهناك كثير من القصص عن ذلك بين الذئاب، لكن ذلك الزمن كان زمن الأصالة، وكان مع أبيه كثير من الذئاب الأحرار الذين يأبون الضيم، ولا يقبلون المهانة. أما كوكجال....

حاول كوكجال أن يكون مخلصًا لنصائح الأجداد على الفضيلة، وأن يحمي الأرض، فأخذ القائد يجوب المراعي طولاً وعرضًا كالتائه

يتربص للوحوش وينفرد بمن يستطيع منهم، ويقضي عليها في البراري الواسعة، ودون تردد أخذ يقطع أعناقهم.

كان كوكجال يعتمد على قوته التي كان يتمتع بها ولم يعرف التعب.

شيء واحد كان يقلقه، جبن وخسة أصدقائه وأقربائه السابقين، وتلك القيود التي قبلوها في أعناقهم خانعين.

كلما مر الوقت زاد الأمر صعوبة على كوكجال، وشيئًا فشيئًا ضاقت به رحاب البراري الواسعة، وكان أكثر ما يقلقه هو أن أعداءه مع الزمن قد درسوا طباعه، وعاداته وقدراته، وطرق قتاله، وأصبحوا أقرب إليه من ذي قبل، وبدأوا يبدون له قبضاتهم ويكشفون له عن أنيابهم. بدأ الخطر يقترب منه كما لم يكن من قبل، وكان كوكجال على يقين من ذلك.

كان القائد كوكجال يعرف أن من بين أعدائه من يرحمه ويرأف لحاله، وهناك من حاول أن يثبت له إخلاصه، من خلال إبلاغه بالهجمات المنتظرة ويساعدونه على الفرار من المصيدة. كان أولئك الراحمون له من بين الذئاب لم يتحولوا بعد إلى مخلوقات قبيحة كالوحوش الذين يعيشون بينهم.

استلم كوكجال يوم أمس رسالة من أحدهم، أبلغه فيها أن الأوغاد قد قرروا القضاء عليه وعلى كل أفراد قطيعه نهائيًا، ونصحه بالانتقال

إلى الساحل الآخر حيث ما زالت توجد ذئاب حرة، يمكنه أن يعيش بينها.

فكر كوكجال طويلاً وبشكل مضنٍ كيف يتخلص من المصيدة، وقلب في رأسه كل الاحتمالات، وأخيرًا قرر أنه من الأفضل أن يغادر. وعلى الرغم من أن القرار كان قد اتخذ فإن كوكجال كان حزنه عميقًا لفراق الوطن الأم. ثم ماذا يمكن أن ينتظره هناك في الجانب الآخر الغريب بالنسبة له بعد أن خذلته أرضه، وتخلى عنه أفراد فصيلته؟ هل سيجد راحته هناك وحيدًا غريبًا دون أهله وأبنائه، وهو يعرف بما يحدث في وطنه الأم ؟ يجب أن يبقى الذئاب على أرض أجدادهم التي ولدوا عليها، ومازالت عظام أجدادهم فيها تستصرخهم لكن لا أحد يسمع صريخها إلا كوكجال. ما عسى سيحدث للذئاب لو تركوا أرض الأجداد سائغة هانئة للوحوش القبيحة ؟ يجب على الذئاب أن يعيشوا وأن يحافظوا على سلطتهم في البراري.

- إيه، يا أيام المرح! ماذا يمكن القول، جاء الوقت الذي تحولت فيه الذئاب القوية العزيزة إلى كلاب حراسة. تنهد كوكجال بحسرة وتَمْتَمَ في نفسه.

تذكر كوكجال رؤياه الأخيرة، حينما رأى في منامه جده العظيم بوري، وعندما قص رؤياه لذئب عجوز تنهد العجوز وقال:

- يبدو أنك لن تهرب من القدر يا كوكجال. ثم قام واختفى.

كان القائد يعرف أن العجوز لن يقول شيئًا مطمئنًا، فقد تحققت كل توقعاته الحزينة، فعندما فكر كوكجال في رؤياه هو أيضًا تذكر كلمة القدر.

إنه ذئب وسيظل كذلك إلى الأبد هذا فخر وكفى.

كان الألم يمزق روحه لكنه كان يشحذ قواه في الوقت نفسه. ابتعد كوكجال عن الآخرين وجلس على قمة هضبة طويلاً وأخذ يتطلع إلى السماء – إلى الله العلي العظيم، وملأ ضجيج صدره الحزين أرجاء الوادي، وبالتدريج استعاد كوكجال القوة والإرادة من جديد واستعاد كذلك ثبات روحه التي ورثها عن أجداده الأحرار. قرر أنه من الأفضل البقاء ذئبًا حرًا كريمًا، وأن يموت في المعركة خيرًا له من العيش المخزي، وتحمل الذل والهوان، ودعا روح أجداده للحديث، فاستجاب الروح للنداء.

- يا جدي القوي، إني أغادر أرض وطني، وأنا غير قادر على الدفاع عنها من الأعداء، ولم أستطع أن أحافظ على أفراد قطيعي من التغير، كما أن قبائلنا تتعادى فيما بينها، يا أبي.
- مهما حدث، اعلم أن هذه إرادة الله إنه المصير، وهنا لن تستطيع أن تغير شيئًا. فهذا هو القدر.

أراد كوكجال أن يقول شيئًا آخر ولكن الروح وضع إصبعه على فمه، مشيرًا بانتهاء الحديث واختفى.

في المساء جمع مجلس القطيع الذى تبقى معه على قمة الجبل، وأبلغهم قراره بالانتقال إلى الساحل الآخر فأيده الكثيرون، لكن أحد كبار المجلس قال:

في ذلك الساحل توجد أراضي قبيلة أخرى من الذئاب يجب أخذ موافقتهم، وإلا فإنه لا فرار من المعركة معهم.

– لكنهم إخواننا، ومن نفس فصيلتنا، فلم نبعث لهم رسولا يطلب منهم السماح لنا بالمرور عبر أراضيهم إلى الساحل الآخر؟! قالها أحد الذئاب الشباب.

قال العجوز: هذا قرار سليم، ويجب العمل به، ولكن يُقال إنه قد ظهرت فيهم الوحوش القبيحة أيضًا.

عندما قال هذه الكلمات نظر إليه الجميع، ولسان حالهم يقول: ما الداعي لتذكيرنا دومًا بأولئك الأوغاد، لم يغضب الذئب العجوز من ردة فعلهم، وفكر في نفسه أنهم مازالوا ذئابًا شابة ولم ينضجوا بعد.

لقد كان يعرف أن الذئاب المجاورة لن تسمح لهم بالمرور عبر أراضيهم، وأنهم سيضطرون للموت في معركة غير متساوية الأطراف، وأنهم سيقطعون رأس القائد كوكجال، وسيمثلون بأشلاء جسده الممزق، فقد رأى ذلك في رؤياه لجده في المنام.

كما قال العجوز أيضًا: إن هذه ليست فقط المعركة الأخيرة

لكوكجال، بل إنها الطريق إلى المجد الأزلي، قدره أن يكون روحًا مقدسة لكل فصيلتنا. وسينجب الناجون من المعركة جيلا جديدا من الذئاب الأصيلة، تكون قوتها غير عادية".

حدث ما قاله الذئب العجوز بالضبط، فلم يكتف الجيران بعدم السماح لهم بالمرور عبر أراضيهم، بل أبدوا استعدادهم لقتالهم بكل قوة وحزم.

عض القائد على أسنانه من الغضب الشديد، فقد انضم إخوانهم الذئاب إلى صفوف أعدائهم من الوحوش القبيحة.

ليس هناك حل، لا بد من قبول التحدي ومقاتلتهم، جاء الليل وغطى البراري بغطاء أسود كالح، وراح الذئاب في نوم عميق، غدًا المعركة الفاصلة، أكثر ما يحز بالنفس أن الحرب ستكون مجزرة بين الإخوان.

عندما قام كوكجال في الصباح يتفقد الذئاب، لاحظ أن عددهم قل كثيرًا عما كانوا عليه فى ليلتهم. الكثير من الذئاب فروا ليلا مبتعدين عن إخوانهم وعن قائدهم وقطيعهم.

تذكر كوكجال كيف أن أحدهم قال في الليلة الماضية: "أيها القائد إننا لا نستطيع أن نقاتل إخواننا، لقد تقاسمنا معهم الغذاء والماء لمرات كثيرة".

لكن القائد صمت حينها ولم يجب عليهم بشيء، وهكذا فقد انقضى اليوم، كان الجميع يعرف أن المعركة خاسرة. والقائد أيضًا يعرف ذلك، لكن لا يمكن تجنب المعركة، وليس هناك فرصة للتراجع فالأعداء في الخلف. ولا يجب التسليم دون قتال.

القائد الذي أصبح رمزًا للقطيع لا يحق له الاستسلام.

قام كوكجال بمحاولة أخيرة لحل المشكلة سلمياً فبعث برسول آخر إلى إخوانه الذئاب على الجانب الآخر ليسمحوا لهم بالمرور عبر أرضهم، لكن الإخوة ضربوا الرسول، وشقوا رأسه.

رأى أخو القائد ذلك فقفز إليه وقال:

- لماذا نقف هنا، هيا قدنا إلى المعركة.

دخل الذئاب الأحرار المعركة لآخر مرة، في البداية كانت الغلبة لهم بوضوح فقد كان القائد الشاب يبطش بالأعداء، موجة بعد موجة وبدت إمكانية العبور من خلال فتحة بين الجبال والوصول إلى ذلك الجبل وبالتالي النجاة، ولكن فجأة، ودون سابق إنذار ظهرت موجة كبيرة من الوحوش، وكأن الأرض تنطوي تحت أجسامهم الثقيلة.

لم تكن الذئاب الشابة تنتظر مثل هذا التغير في المعركة، فتوقفوا للحظة عن القتال، وكان هذا كافيًا لأن يقعوا داخل الدائرة المغلقة، وينغلق عليهم الكمين.

زأر كوكجال في نفسه: "هذا قدرنا". وبدأ يستعد للموت، اقتربت المعركة من النهاية، وكان كل ذئب حر يُقابله عشرة من الأعداء، ورأى كوكجال بعينيه كيف أن قطعان الوحوش قطعت أخويه الأصغرين ونهشت جسميهما، فقد هجم أحدهما لمساعدة الآخر ولكن قطيع الوحوش أخذته وقطعته إربًا بأسنانها. لم يتمكن الأخ الصغير وهو بين أنياب الوحوش القبيحة تلوك لحمه إلا من القول: "كوكجال" وانقطع صوته إلى الأبد.

هذا كان آخر ما سمعه القائد كوكجال. أما ما حدث بعد موته فنعلمه نحن أحفاده.

هكذا انتهت آخر معارك الأحرار، وانتشرت الوحوش في كل المراعي تقتل كل من لا يريد أن يكون مثلهم، وتم وضع الأطواق على أعناق من بقى حيًا من الذئاب، وتعلمت الذئاب الحية كيف تنبح مثل الكلاب.

لقد مات القائد كوكجال، وعاشوا هم، لكنهم عاشوا حياتهم بلا معنى أو قيمة...

سلطة الكذب

في طفولتي وشبابي كنت متأثرًا بمختلف المشاعر والمفاهيم المتناقضة التي تخالف بعضها بعضًا تمامًا؛ فالأهل والناس في القرية يقولون شيئًا، وفي المدرسة والصحف نسمع ونقرأ شيئًا آخر.

لم يكن الكبار يتحدثون بسرية، بل على العكس كانوا يحاولون إيصال أحاديثهم عن حياة الفرسان القدامى مثل أبلاي خان، وكابنباي باطير، وبوغيمباي إلى أسماعنا في جلسات الشاي المسائية. لم يكونوا يتحدثون مطلقًا عن زعماء الحزب الشيوعي بالذات، ولم أكن أسمع إلا نعتهم لهم بأسماء مستعارة. فمثلاً ستالين يوصف بـ مُراد وتعنى فى لغتنا (ذو الشارب)، وخروشوف يوصف بـ جردل وتعنى فى لغتنا (الرقاص).

على الرغم من السنوات الطويلة التى تفصلني عن هذه الأحاديث، وعلى الرغم من أنني كنت طفلاً وقتها، فإن إحدى تلك الأحاديث المسائية حول شاي المساء بقيت في ذهني، فالكلمة التي سمعتها ظلت بالنسبة لي لغزًا لسنوات عديدة، والآن فقط فهمت معنى ما قيل حينها.

بعد مرور الكثير من السنوات، عندما أتذكر ذلك المقطع، أتذكر دومًا عظمة الحكمة الشعبية ونضوجها، ومهما فعل دعاة الثقافة

والتحضر لن يستطيعوا أن يقللوا من قدرها شيئًا. المحكمة الشعبية تفرق دومًا بين الصدق والكذب، الجميع لدينا يتحدثون باسم الشعب ولكن حين تستمع لتلك الكلمات – الله الحافظ.

.. بعد العشاء تحلّق كل من جاء إلى الضوء المنبعث عن نار الركية التى أشعلها جدي أمام الخيمة يستمعون إلى حديث الجد. كان الحديث عن السياسة، ففي ذلك الوقت حدث حدثان هزا الشعب بالكامل:

بعد صدور القرار المعروف بدأت حملة ضد ستالين، بعضهم يرحب بذلك والبعض الأخر ينتقده، أما بخصوص جدي فلم يكن يحترم مراد، كما لم يكن يُكِنّ ذرة احترام للرقاص.

لم يكن جدي يعرف الأحرف الجديدة لذلك كان يدفعني كي أقرأ له الصحيفة بصوت عال، وكنت أحاول القراءة بدقة معطيًا لصوتي الضخامة والرسمية الملائمتين لقراءة الصحف السياسية التى تحمل أخبار الحزب.

قال جدي بعد القراءة : أيها الصبي، هذا لن يدوم طويلاً.

لم أعر كلمات جدي اهتمامًا، وواصلت القراءة. عندما انتهيت من القراءة نحيت الصحيفة جانبا، وضعت رأسي على كتف جدي، لكنه سحب الصحيفة وسلمها لي مرة أخرى قائلا: "خذ اقرأ ماذا يقول أيضًا. أخذت أقرأ من جديد، في الحقيقة فإن معنى الكثير من الكلمات

التى تتردد فى الصحيفة لم يكن مفهومًا لي.

تحدث الرقاص عن الملكية الخاصة. أثناء الشيوعية كان يُقال إن الملكية الخاصة ستلغى، وسيحصل الشعب على كل شيء جاهز.

قال كابلنبيك: قل ما شئت، لكنه ذكي، في الواقع فإن الملكية الخاصة حمل على الرقبة.

فقال ساغات مدرس التاريخ الشيوعي ذو البنية الجسمانية الضخمة، والذي خاض الحرب كاملة وعاد حيًا، لكنه الآن مريض بمرض الرئة: يتضح الآن أن السلطة السوفيتية هي سلطة الكسالى والطفيليين الذين يأكلون ويشربون وهم نائمون على جنوبهم.

لقد كنت دومًا مذهولا من العم ساغات، فهو مدرس وشيوعي لكنه دومًا يقف ضد ما يكتب في الصحف. ذات مرة سمعت كيف كان يترجم مقالة ما من صحيفة برافدا (الحقيقة) من اللغة الروسية إلى اللغة القازاقية فقال في الختام: "يا عمي هذا كلام جرائد".

اهتز جسدي من هذه الكلمات التي قالها المدرس، فقد كنت أنتظر الوقت الذي سأقرأ فيه الصحيفة دون تهجية، كان الوقت متأخرا فبدأ الناس بالانصراف إلى بيوتهم. قال العم ساغات وهو يسعل بشدة: "ماذا يمكن أن نقول" السلطة المبنية على الكذب، سيقضي عليها الكذب يوما ما". قال ذلك بصرامة وغضب.

حذره جدي قائلا: "انتبه يا ساغات جان فأنت موظف"، ولم يخالفه ساغات جان الرأي، أما أنا فقد كنت غير راض عن تصرف جدي، لماذا لا يقول له إنه ليس على حق؟ كيف يمكن أن يكون المدرس ضد برافدا، فهذا مدرس التاريخ الآخر يرفع خورشوف إلى السماء، وكثيرًا ما يورد مقاطع من خطاباته من صحيفة "برافدا" أثناء شرحه للدروس.

فكرت في نفسي "ترى ماذا يقول العم ساغات لتلاميذه، لم يعش العم ساغات طويلاً بعد ذلك، ومات في نهاية الخمسينيات، ولم يجد الناس الذين وصلوا من الحي البطاقة الحزبية الخاصة بالعم ساغات على الرغم من البحث الطويل، أين ذهبت بطاقة ساغات الحزبية؟! كان ذلك بالنسبة للكثيرين لغزًا ولكني تذكرت كلمات المعلم "السلطة المبنية على الكذب، سيقضي عليها الكذب يوما ما" وفهمت كل شيء.

هدية جو لوشكين

كم من السنين مرت ولا يزال صياح سامات السعيد يتردد في أذني: استيقظ، استيقظ يا كمال فقد وصلوا ! إنهم هناك هيا استيقظ، لقد طوى التاريخ فترة الثلاثينيات المخيفة، ولكن تلك الأحداث أحينا تبدو أهون من الذكريات المؤلمة فيمتلئ قلب الإنسان غضبًا وحقدًا لا تدري على من، خصوصًا عندما تقف أمام عينيك لوحات الماضي، فتذهل كيف يمكن لإنسان أن يتحمل كل هذا الألم.

الشيء الوحيد الذي لا يستطيعه الإنسان هو البعث من بعد الموت، وكل ما خلا ذلك سيتحمله ويقدر عليه، فالجميع جرب الألم وشرب من كأس العذاب حتى نهايته، ولكن تخيلوا لو أن تلك السنوات المخيفة لم تكن، فكيف كانت حياتنا ستكون. وكم من اللحظات السعيدة والرائعة التي ظلت بالنسبة لنا صفحات مغلقة، إنني أتحدث عن مئات الشباب الذين كانوا كأزهار الربيع، انتهت حياتهم قبل أن يتفتحوا. مهما حزنت وتألمت على الناس القريبين منك الذين لم تتمكن من زيارة قبورهم، وأن تضع حفنة من التراب عليها، فقط لأنـــك لا تعرف مكان قبورهم، أو لأنه ليس لديهم قبور أصلاً، فإنك لا تفكر إلا في شيء واحد فقط: كيف يمكن ألا يتكرر ذلك.

مسكين سامات، كم فرح حينها بقدوم الضيوف وكم مرح، آه لو

كنا نعلم كيف سينتهي ذلك.

كان حينها سامات ابن ثلاثة عشر ربيعًا، وكان رسامًا بارعًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك ورق متاح للفتى اليافع لأنه - ونحن أيضًا - لا نملك ثمنه، فإنه كان بحركة سريعة من يديه يسوي الرمل ويرسم صورنا، وعندما كنا نذهب إلى الغابة كان يرسم على جذور الأشجار صور أبناء وبنات القرية. رسمها على الأبواب والنوافذ لكنه كان يمسحها مباشرة، ربما كان يخاف أن يعاقبه الكبار على ذلك، مع أننا كنا نرجوه بشكل جماعي أن يترك الرسوم، لكنه كان يبتسم ويقول:

- "انتظروا، سيكون لدي الكثير من الورق والألوان وسأرسم صورًا لكم جميعًا".

أما نحن فكنا ننتظر بفارغ الصبر، تلك الساعة التي سيكون لديه فيها ورق وألوان كثيرة.

كان سامات يافعًا نشيطًا مليئًا بالحركة، وكان لديه شغف غريب بكل ما هو جديد. كان أول من يعلم بأخبار القرية ويقصها علينا، وربما لأننا كنا في عمر واحد فقد كان سامات يأخذني إلى كل مكان يذهب إليه، ولكن كان لدي عيب واحد يعيق كثيرًا تعاملي مع صديقي وقريني السريع النشط، وهو أنني كنت أحب النوم كثيرًا، لذلك كنت أغتنم كل دقيقة فراغ لأغفو فيها.

كان سامات ينهرني أحيانًا: أيها النائم، ما فائدة كسلك؟! أما أنا

فلا أفكر في شيء، وأواصل النوم كأنني لم اسمعه.

في هذه المرة أيضًا أخرجت البقرة الوحيدة التي نملكها إلى مرقدها خارج البيت، وعدت أتغطى بما أجد، لأمارس هوايتي المفضلة.. النوم.

أيقظني سامات وسحبني وأنا نائم إلى الشارع وهو يصرخ: "استيقظ، استيقظ، هيا بسرعة".

- انظر هناك، هل ترى الغبار. وأشار إلى الطريق المؤدية إلى الحي.

- "ماذا يعني ذلك، إما أن الصيادين يلاحقون صيدهم أو أن الخيالة يسابقون الفرس" قلت وأنا لا أفهم ماذا يعني.

أدرك سامات أنني لم أفهم شيئًا، فصرخ بي:

إنه رئيس الحي المشهور جولوشكين، هو ولينين أسقطوا القيصر نيكولاي عن العرش ويقال إنه صديق ستالين.

نظرت إليه فوجدت خده أحمر وعينيه موقدتين، فربت على كتفيه فقط، ملمحًا أن هذا لا يعني لي شينا، فهذا الكلام نسمعه كل يوم.

من منا لا يعرف جولوشكين، لكن سيارته الفارهة مرت أمام رئاسة قريتنا دون أن تتوقف متجهة إلى القرية المجاورة. كانت تلك أول مرة نرى فيها سيارة تترك وراءها هذا الكم من الغبار وهي تسير

في الطريق الجديد.

قال سامات متحسرًا: "أخ ! للأسف لم ينزلوا عندنا".

فيما بعد علمت سبب حسرته، فقد اتضح أنه رسم ستالين وجولوشكين وأراد أن يقدمها له عند اللقاء، ولا بد أن جولوشكين كان سيسأله ماذا يريد، حينها سيطلب منه ورقًا وألوانًا ويرسمنا جميعًا.

غضبت قيادة القرية لأنها لم تتشرف بالسلام على الضيف الكبير، وقررت إفراغ غضبها علينا، فقد ضرب رئيس القسم سامات بالسوط وهو يمر بجواره قائلا:

- "أنت يا ابن اللعينة، قل لأبيك أن يأتي إلى المكتب".

عندما كان المدير جانبيس يرى أطفالاً يغضب بشدة لسبب ما. لذلك فكلما رآه الأطفال تفرقوا وفروا، ولأننا كنا ننظر إلى السيارة لم نلاحظ اقتراب جانبيس ولم ننجوا من ضربات سياطه. وقع سامات أما أنا فقد تمكنت من النجاة منه.

لم يكن هجوم جانبيس على سامات من فراغ، فقد كان بينه وبين أبيه حسابات قديمة، كان والد سامات معلم القرية، وهو شخص متعلم، يعرف كل شيء، لذلك كان الكثير من سكان القرية يلجأون إليه ليحميهم من ظلم جانبيس. ويقال إن لديه أصدقاء في ألماتا يعرفون مسئولا حزبيا كبيرًا. لذلك فإن رئيس مجلس القرية نفسه يخاف منه.

لكن كان هناك الكثير من الشائعات التي تدور حول المعلم؛ يقال إن لديه زوجة أخرى في القرية المجاورة، ويقال إنه جاسوس لليابانيين إلى غير ذلك من الشائعات. وقد علمت من أختي الكبيرة من الشخص الذي ينشر هذه الشائعات عن المعلم، فقد كان ينشرها جانبيس نفسه الذي كان يريد القضاء على غريمه مهما كان الثمن.

سمع المعلم أنه مطلوب في مكتب القرية. لبس ثيابه وخرج بسرعة، غاب طويلاً. كنت أنا وسامات نجري أمام البيت، وكأننا نلعب، ولكننا في الواقع كنا نراقب الطريق. فجأة جلس سامات على قطعة خشبية كبيرة يجلس الجميع عليها وتنهد قائلاً: "يا كمال إني خائف من هذا الوحش جانبيس، فالشائعات كثيرة حول والدي".

- "لا تخف فلدى المعلم الكثير من الأصدقاء في ألماتا، وهم سيقفون معه".

لم أكد أنهي هذه الكلمات حتى امتلأت عيون سامات بالدموع، استغربت وأخذت أكرر "ماذا حدث؟". لكن سامات مسح دموعه، وحاول بكل جهده أن يبتسم وقال:

"نعم، لدى والدي الكثير من الأصدقاء في ألماتا" وبعد فترة علمت سبب دموع سامات، فقد اتضح أنه في تلك الأيام بالذات تم القبض على معظم أصدقاء المعلم في ألماتا.

لاح شبح شخص من بعيد. صرخ سامات: "والدي". وقام من

مجلسه وجرى لملاقاة أبيه. كان النظر إلى المعلم صعبا على من يعرفه. فقد كان شاحب الوجه كالورق، ولم يكن يبدو عليه غضب أو حقد، بل كان في وجهه تعابير الفراغ والانزعاج. حضن المعلم ولده سامات وقبله. ثم نظر إلي وقال: "كمال جان قل لكسيكي "والدي" – وهنا سعل – قل له أن يأتي إلى بيتنا هناك حديث مهم".

عاد أبي من بيت المعلم وهو مهموم، وأخذ يتحدث بصوت منخفض مع والدتي طويلاً، ثم أيقظني وطلب مني أن أذهب لإحضار أعمامي.

في الصباح الباكر استيقظت على صوت خالي ناجاشي، وكأن صوته القوى كان يخرج من بوق "من أين سنأتي بذلك؟ هذه سرقة" هل يريدون أن يقتلونا؟ "وفعلا بعد فترة من الزمن مات ناجاشي.

في سنوات الجوع حاول خالي مع أطفال بعض الأسر الأخرى أن يهاجر إلى ألتاي هربا من القرية، لكن أحدًا ما وشى بهم، فلحق بهم الرفاق من الحزب وضربوهم. مات ناجاشي من الضرب، وتم تفريق الأطفال في مختلف المناطق. لم يعرف أحد بعد ذلك مصير هؤلاء الأطفال. يقال إن أحدهم في بارناؤل[١]. لكنه لم يحاول البحث عن أهله، عاش هناك غريبًا ضائعا.

في الصباح علمنا السبب الذي جعل أهلنا وأقرباءنا لا ينامون

---

(١) "مدينة روسية"

حتى الصباح. بمجرد أن استيقظت سمعت صوت سيتكول الأعرج: "هيا يالسيكي، لقد جاء دورك أعطني هديتك، سوف تكون أول من يسلم القمح، لأنك من البلشفيين الحقيقيين، وهذا فخر لك".

- "لعنك الله، أية هدية، منذ أيام فقط أخذتم كل شيء". جاء صوت أمي من المطبخ متعاليًا.

بالفعل منذ أيام جاء سيتكول الأعرج بعربته، وأخذ كل ما هو مخصص للدولة، فماذا يريد أكثر من ذلك، لا أدري.

لبست ملابسي وهرعت إلى الشارع. بالطبع لم يكن سيتكول وحيدًا، فقد كان إلى جواره رئيس مجلس القرية جانبيس والمعلم وشخص آخر لا أعرفه يلبس قبعة ووالدي.

مسكين أبي يجلس في حيرة من أمره، يقلب قبعته في يده، وينظر تارة إلى جانبيس، وتارة أخرى إلى المكلف، محاولاً أن يوضح شيئًا ما إلى عقولهم. لكن لا يبدو أن أحدا يسمع صوته سوى المعلم. ومع ذلك فلم يكف أبي عن المحاولة. أخيرًا فقد جانبيس صبره، وقال بغضب:

- "كسيكي أنت إنسان متعلم، ومدرك للأمور، إذا لم تتفهم أنت، فمن سيفهم الطريقة الحزبية، هاهو المكلف يقول لنا إن علينا وفقًا للعادة أن نقدم هدية غالية من شعبنا المضياف، ونقدمها للإنسان الذي وصل إلى أراضينا لأول مرة وهو رئيس المجلس الإقليمي. وإذا لم ندعم مثل

هذه المبادرة، لن يكون لنا قيمة تذكر، أما إذا تخطينا الحد المطلوب منا من القمح فإننا بذلك سنثبت إخلاصنا وولاءنا للحزب".

وكان جانبيس يتحدث وينظر إلى المكلف راجيا رضاه، والتأكد من أن كلماته تقع موقع القبول منه. وكم ظهرت علامات الارتياح على وجهه حينها هز المكلف رأسه بالموافقة. قال المكلف:

- "كسيكي إن رئيس مجلس القرية يعرف ماذا يفعل".

عندها قال والدي وهو في حيرة من أمره ومستسلم:

- "إنكم تريدون أن تأخذوا كل شيء، مع العلم أن الشتاء قادم..."

كان المعلم صامتًا، ولكن كان واضحًا أنه يتمالك نفسه بصعوبة، أخذ المكلف ينظر إلى جانبيس نظرات غريبة، فأدرك والدي أن هذه النظرات لن تأتي بخير، فقال:

- "أنت أيها الأعرج خذ كيسًا والحق بي"

اتجه والدي نحو البيت، وقام الأعرج من مجلسه وأخذ بيده عصاه الحديدية وسار خلف والدي. أخرج أبي ثلاثة أكياس من القمح بدلاً من كيس واحد مشيرًا إلى أنها آخر شيء، فإذا أخذوا سيأخذون واحدًا، لكنني كنت أعلم أن لدينا قمحًا آخر، فأنا أذكر أننا عندما عبأنا القمح كان عدد الأكياس سبعة أو ثمانية، حينها كان والدي ووالدتي

سعيدين. وتمتما "الحمد لله، لن نخاف الآن من الشتاء". لكن هذه الأكياس الزائدة سنضطر إلى تسليمها الآن كهدية.

كان والدي واثقًا من أن حيلته قد نجحت فقال: "هذا كل شيء، إذا أردتم اتركونا جائعين، وخذوا كل شيء، ولا تتركوا لنا شيئًا، أما أنا فأعتقد أن كيسًا واحدًا يكفي أن يكون هدية".

شعر ستيكول بأن كلام والدي لم يعجب جانبيس فأخذ يضرب بعصاه الأرض، وينظر إلى وجه أبي العابس فأدركت أنه في هذه اللحظة ستحدث مصيبة. فكرت في نفسي "لماذا سمى ستيكول بالأعرج؟".

كان ستيكول يضرب بعصاه الأرض وينظر إلى نهايتها باهتمام كبير، فيما بعد أدركت سبب هذا التصرف، فقد كانت تلك العصى مفرغة وتجذب القمح فلو أن في الأرض حبة قمح واحدة لدخلت إلى العصى، وعندما أخرج ستيكول العصى من الأرض وكان يقف بعيدًا في الزاوية خرجت من العصى حبات القمح، فكاد يرقص فرحًا ولمعت عيناه من الفرح فنظر إلى والدي بسعادة وانتصار.

نظر رئيس مجلس القرية إلى والدي طويلا وقال: "كان يمكن سجنك لإخفائك القمح، ولكن المكلف يعفي عنك في هذه المرة". ونظر إلى الرجل الذي يلبس قبعة وكأنه يتساءل عن صحة ما يقول، أشار المكلف بالموافقة في صلف واضح. عندها صرخ جانبيس على

سيتكول "أخرج الأكياس وحملها على العربة. هيا".

بعـد ذلك صـرخ المكلف وهو راضٍ ومستريح: "أيها الرفاق ما زال أمامنا الكثير من المنازل فانتهوا بسرعة". أخرج سيتكول الأكياس إلى العربة وهو يعرج.

نظر جانبيس إلى والدي الذي يقف بين الناس وقال وهو ينصرف: "كسيكي لا تخف نحن لم نر أنك تخفي القمح، وسنقدم لك شكرًا علنيًا لأنك قدمت ثلاثة أكياس قمح هدية لجولوشكين". هذه المرة أيضًا هز المكلف رأسه بتعالٍ بالموافقة.

بهذا الشكل تم جمع حوالي سبعين برميل قمح إضافي من قرية "جان تالاب" كهدية لجولوشكين، كم من الدموع سالت وكم من اللعنات انصبت على الذين يجمعون لا يمكن الحصر.

كتب بالبرقية التي وقعها رئيس المجلس جانبيس وسلمها للمكلف بأن الناس سلموا القمح الزائد تطوعًا.

حمل المكلف المتعالي في حقيبته ورقتين: الأولى إفادة حول تسليم القمح، والثانية تقرير ضد المعلم. لم تحدد الورقة الثانية مصير المعلم فقط، الذي تم اعتقاله به بعد ذلك، بل كانت بداية لكل المصائب والفجائع لكل القرية.

لم يعد جانبيس يخاف من أحد، وتم إخراج سامات وأمه من

بيتهم وإسكانهم في بيت صغير، حيث كان يقول إن أسرة عدو الشعب لا يجوز أن تعيش في بيت كبير، وتم تسليم بيتهم للأعرج سيتكول، وقبل حلول الشتاء كان سكان القرية الذين سلموا ماشيتهم ومحاصيلهم هدية لجولوشكين قد وصلوا إلى المجاعة. وكان سامات وأمه أول من شعر بالجوع، واتضح أن المعلم قد سلم كل القمح الذي يملكه لكي ينال رضا القيادة.

صب والدي نصف كيس من القمح وأمرني أن أذهب به إلى سامات وأمه، عندما دخلت إلى بيتهم لم أعرف أم سامات فقد ضعفت كثيرا.

قفز سامات إلى وحضنني وبدأ يبكي فأخذت أنا أيضًا أبكي، وبكت أمه أيضًا معنا.

جلسنا نحن الثلاثة نبكي بصمت حتى لا يسمعنا أحد فيوشي بنا ويقول إننا نبكي لأننا غير راضين بالسلطة السوفيتية، بعد عدة أيام أرسلوا كل أسرتنا إلى منطقة تبعد ١٠ – ١٥ كم عن القرية لقضاء الشتاء، ولم أعلم سبب ذلك ربما للحاجة الإنتاجية أو تعمدا فى الإذلال. بدأ والدي يرعى أغنام المزرعة، وكانت الحياة في المزرعة أفضل، حيث كان بالإمكان أن نحلب عدة أكواب من الحليب ونخفيه عن عيون المراقبين، ثم نشربه فيما بعد.

في الشتاء سقطت الثلوج بكثافة، في كل صباح كان باب بيتنا

يغطي تقريبًا بالثلوج. حاولت أمي طويلا الخروج من الباب لحلب الأبقار لكنها لم تستطع. غالبا ما كانت توقظني لأساعدها على فتح الباب. هذا ما كان يحدث كل صباح في أيام الشتاء. في هذه المرة دفعت الباب بكل قوتي حتى ينفتح. لكن يبدو أن الثلج قد تجمد، ولم أتمكن من فتح الباب. بدأت بالتدريج سحب الثلج من أسفل الباب حتى تمكنت من الخروج إلى الشارع، ثم أخذت المجرفة وأخذت أجرف الثلج بعيدا عن الباب، وفجأة لامست المجرفة ثياب شخص ما في الثلج فخفت وهرعت إلى البيت وأنا لست في وعيي، وأيقظت أبي من نومه، وأخرجنا المسكين من تحت الثلج، وكان ذلك الشخص هو سامات، يبدو أنه أراد أن يصل إلينا لكنه لم يتمكن من ذلك، لم تساعده قواه، هذا ما قاله أبي فيما بعد على الأقل، عندما كنا نبكي صديقي الميت طوال الليل ذهب والدي إلى القرية لإبلاغ أم سامات بموت أبنها، لكنه وجدها قد جُنت، ولم تحضر حتى مراسم دفن ابنها.

كاد سكان قرية "جان تالاب" أن يموتوا من الجوع أثناء تساقط الثلوج، فمنهم من ترك أرضه وغادر إلى ألتاي، لكنه مات في الطريق، ومنهم من مات من الجوع في بيته، وفي ربيع العام ١٩٣٢ لم يبق في القرية إلا ما يقارب ١٠ – ١٥ أسرة فقط أحياء.

كم من السنين مرت وأنا أحمل في نفسي هذا الحمل الثقيل. وها أنا قد حدثتك ولكن الألم الذي في داخلي لم ينقص أبدًا، يبدو أنني لن أرتاح إلا في قبري، أحمد الله أنني الآن أستطيع على الأقل أن أتحدث

عن ذلك.

حتى الآن لا يزال صوت سامات السعيد يتردد في أذني وهو يقول: "استيقظ، استيقظ، هيا يا كمال لقد اقتربوا، ها هم أصبحوا قريبين من هنا".

آه لو كنت أعرف حينها بأنا من هذه اللحظة ستحل علينا المخاطر والمصائب، لكن لا أنا ولا سامات كنا حتى نشك بأي شيء، فقط وقفنا على قارعة الطريق ننظر إلى الغبار الذي يختفي وراء السيارة.

يصعب علي وقد عشت في سنوات الثلاثينيات القاسية وذقت طعم الجوع والخوف والذل، ورأيته بعيني ألف مرة أن أتذكر تلك السنوات، ويبدو لي أن عيش تلك السنوات كان أسهل من تذكرها الآن، فبمجرد أن أغمض عيني تبدأ ذاكرتي بتقليب الصور القديمة للسنوات الخالية. هذا الألم يمزقك ويملؤ صدرك غضبًا وحزنًا.

إن الإنسان يتحمل كل شيء ويتعود على كل شيء، والشيء الوحيد الذي لا يستطيعه – هو البعث بعد الموت.

كانوا ثلاثين

يكاد رأس أزيل مدير جهاز المخابرات أن ينفجر من كثرة الهموم، حيث يأتي الأمر تلو الآخر، والقرار تلو القرار. تأتي كلها من أعلى، وكلها عن شيء واحد: يجب سرعة الكشف عن أولئك الذين يعيقون العمل المشترك، الذين يبتزون السكان المساكين، يجب القبض عليهم بسرعة، أو القضاء عليهم بأسرع ما يمكن.

الضرب والتكسير والتخريب هو الشيء الذي كانت تريده القيادة، وكان بود أزيل أن ينفذ الأوامر والقرارات ولكن القوة التى معه غير كافية، لا يوجد معه سوى عشرة جنود فقط، أما من يسمون بالثوار فيكاد يقترب عددهم من كل مجموع الشعب. أولئك المخربون الذين يسمون باسمتشي (معارضين ضد الحمر والبيض) هم في الأساس من الطبقة المتوسطة والفقراء، قياداتهم فقط من أبناء الأغنياء.

أزيل يعرف جيدًا أنه إذا لم ينفذ الأوامر، فإنهم لن يرحموه، لذلك يجب البحث عن أي مخرج وبأسرع ما يمكن. لكن لا يوجد حتّى من يمكن استشارته، وليس هناك فائدة من أولئك الذين يذهبون إلى القيادة.

جلس في دوامة من التفكير، وفجأة يُقرع باب مكتبه، وكان الذي دخل معروفًا لدى أزيل فقد رآه في مكان ما، لكنه لم يتمكن من تذكر

أين رآه، نظر أزيل إلى الشخص الذي دخل منتظرًا أن يتحدث، ولكن الشخص ظل صامتًا لعل المدير يعرفه.

أخيرًا فقد أزيل صبره وسأل: "من أنت وماذا تريد؟"

- أزيل، ألم تعرفني؟ أنا ميخائيل، كيف استطعت أن تنساني؟ هيا تذكر!.

استغرب المدير: "ألم يكن في منغوليا؟ ماذا يفعل هذا الحيوان هنا؟ لم يحضر إلى هنا ببساطة، يجب القضاء عليه، قبل أن يتحدث بشيء.

- لا تخف يا أزيل، أنت تستطيع أن تقتلني في أي وقت، وقد أنفعك في شيء ما.

هنا تذكر أزيل الثوار، وأنه يمكن استخدامه في هذا الموضوع، فقرر المدير أن يشرح بحذر مشكلته لميخائيل قائلا:

- لماذا أخاف منك؟ إن لدي السلطة والسلاح، وحياتك كلها بيدي، ولا أحد يتردد أن يطلق عليك النار لأنك قتلت، فالجميع يعرفون أنك قاتل.

- أزيل أنا لا أخاف الموت، فأنا سأموت عاجلا، أم آجلاً، لكني جئت لأساعدك ولكن ليس مجانًا.

- إذن تحدث، بم تستطيع أن تساعدني؟

– لقد تجمع تحت إبطك المعارضون، ولن يهدءوا قبل أن يقضوا عليك وعلى سلطتك.

– لا تثرثر. ليس هناك قوة قادرة على القضاء على سلطتنا، لن يتمكنوا من فعل شيء هيا تحدث بما جئت به.

– أريد أن أعطيك نصيحة، وأشرح لك كيف تقضي على المخربين.

فكر أزيل فهذا هو ما يريده، وميخائيل يعرف كل شيء، ويعرف الكثير من الطرق التي يمكن بها القضاء على الناس، فقد استخدمته الشرطة العسكرية ذات مرة في عمل دموي، حيث قام القاتل المحترف بمراقبة أحد القوميين القازاق وقتله، نعم سأضطر للاستفادة من خدماته. ولكن بمجرد أن ينتهي ميخائيل من العملية، يجب القضاء عليه مباشرة.

– "أزيل، لا تقلق أنا سأعطيك نصيحة فقط، وسأختفي، أما إذا قتلتني فإنك ستجلب لنفسك غضب السيد". قال ميخائيل وكأنه يقرأ أفكار أزيل.

– "نعم إن هذا الحيوان على حق، فلو غادر البلد لن يعرف أحد شيئًا، ولكن يجب اتخاذ الحيطة والحذر، أما الآن فليس هناك ضرر من الاستماع إلي هذا الوغد". نظر أزيل إلى ميخائيل وكأنه يطالبه بمواصلة حديثه.

- أنت تريد أن تقضي على الثوار؟ حرك رئيس المخابرات رأسه بالموافقة.

- عندما يبدأ الحريق، يتم إشعال حريق في الجهة المقابلة للحريق، وعندما يحترق ما بينهما فإن الحريق يخمد تلقائيًا، تخيل أن المخربين حريق إذًا نقابلهم....

قفز أزيل من مكانه دون أن يكمل الاستماع إلى ميخائيل: "كيف لم يخطر ذلك ببالي، يجب أن نخلق توازنًا بين فرق الثوار الحالية، ونجعلها تتعادى فيما بينها".

نظر أزيل إلى ميخائيل بإرهاق وقال: "فهمتك. أنت ستنظم عصابة، هذه مشكلتك".

- أزيل، عند القازاق مثل يقول: "الذئب ينال الطعام، والرجل مازال في الطريق". أعطني أسلحة ورجالاً والبقية علي.

- يبدو أنه يريد القيام بالكثير ولكن ليس هناك مفر وإلا فإن الثوار لن يصدقوه.

عمومًا بعد يومين جرى تنظيم عصابة من ٣٠ شخصًا كان أغلبهم من الطلائع الحزبية، وأجريت مقابلات معهم جميعًا.

كانت مهمتهم أن يحوزوا ثقة الثوار ويسلبوهم سلاحهم، لبس ميخائيل الطربوش القازاقي وبدا كقائد للثوار، وكان الفريق كاملاً

يخضع له مباشرة.

بدأ الثوار الجدد يدخلون القرية وينهبون الطبقة المتوسطة والناشطين، ويقطعون الطريق على المسافرين. قرر قراقوز وهو كبير الثوار أن يكشف أوراق الثوار الجدد.

لكشف هذه العصابة قام قراقوز الخبير والمحنك بإرسال رسالة إلى القيادة يقول فيها إن رئيس جهاز المخابرات في المنطقة أزيل يتعامل مع الثوار ويدعمهم وبذلك تقرر مصير أزيل، وتم اتهامه بالتعامل مع الثوار، ولم يقبلوا منه أي تبرير، أما بخصوص ميخائيل فلم يكن بإمكانه أن يقول شيئًا.

لم يكن أمام أزيل إلا أن قال إنهم من رجال قراقوز، ووعد بالقضاء على الثوار في أسبوع، وكان العمل يمر بمرحلة خطيرة، فلو جرى القبض على ما يسمون بالعصابة أحياء فإنهم في أول تحقيق سيعترفون بكل شيء، وبالطبع حينها لن ينجوا هو أيضًا، أما إذا قُتلوا جميعًا فسيقول إنهم ماتوا في المعركة ولن يقول الميت شيئًا.

وصل إلى العصابة رسول من أزيل وأمرهم أن ينتظروه في الرمال بالقرب من منطقة أياغوز، فهم ميخائيل ما وراء هذا الأمر فقام ليلاً ووضع ما تم سرقته عل حصانين وغادر قبل طلوع الشمس، في اليوم المحدد وصل الجنود وأطلقوا النار على الثوار النائمين وقُتلوا جميعًا ودُفنوا في حفرة واحدة.

أرسل أزيل برسالة إلى القيادة يبلغ فيها بالقضاء على الثوار.

معظم أولئك القتلى كانوا من طلائع الحزب، فما الإثم الذي فقدوا الحياة من أجله. وهم في ريعان الشباب - كل ذلك اختفى في التاريخ. لكن الحقيقة أبدية والحقارة زائلة وفي مدينة شمكنت[1] تعيش امرأة عجوز تعرف أسماء الثلاثين وتدعو لهم في صلاتها.

---

(١) مدينة عريقة في جنوب قازاقستان، وفيها العديد من الآثار الإسلامية.

توركسيب _ آبا

في ذكرى الأطفال الذين ماتوا

من الجوع في الثلاثينيات

في طفولتنا كنا نحفظ عن ظهر قلب الكثير من قصائد الأشعار التي كانت تعجبنا قراءتها وقافيتها، ولأنها كانت تحفظ بسهولة، وكان فهم معانيها البسيطة فى مقدورنا.

لسبب ما أتذكر إحدى هذه القصائد أكثر من غيرها. هى قصيدة لأحد أشهر الشعراء واسمه "توركسيب".

أذكر أنه كان فيها مقطع عن العمل الشاق للعمال الذين يبنون السكك الحديدية، وكانت السطور الآتية من القصيدة تتردد دومًا بين مقاطعها:

العرق المالح يفتت الصخور

يدمر الجبال، ويسيل إلى الوادي

الآن كلما ارتسمت صورة هذه السطور في مخيلتي، داخلني الرعب. هل كنا نستطيع ونحن أطفال أن نحس بالمعنى الحقيقي المرعب لهذا الشعر المخيف؟ لم تكن الصخور هى التى تتفتت ولم تكن الجبال هي التى تدمر، إنما كانت أرواح البشر المساكين تدك تحت الضغط الجبار للنظام الشمولي للحزب.

لكننا كنا أطفالاً، فأخذنا نغني بمرح وطرب.

العرق المالح يفتت الصخور

يدمر الجبال، ويسيل إلى الوادي

في قريتنا كانت عجوز ذات نظرات عميقة، تدلى خصلات شعرها الأبيض فوق جبهتها التي حفرت عليه السنوات علاماتها من تحت المنديل. كان الجميع يدعونها توركسيب – آبا. لا أدري لماذا حينها كنت ألتقى بها وأمر من جوارها دون أن أعيرها أي اهتمام. فقط أمي كانت تعطف على المرأة العجوز.

ذات مرة وضعت أمي في يدي صرة من الملابس القديمة، وقالت لي: "اجرِ، يا ولدي وأعط هذه الصرة للعجوز المسكينة، سيجازيك الله خيرًا وهي ستدعو لك بالبركة". أسرعت لتنفيذ ما أمرت به أمي، لكن العجوز لم تقل لي أية كلمة شكر، بل نظرت إلي وقالت: "هل رأيت إيمان، أو شولبان؟ هل رأيتهما؟ هيا قل بسرعة".

عندما حدثت أمي بذلك مسحت دموعها بطرف منديلها وقالت: مسكينة العجوز البائسة، هما بنتاها إيمان وشولبان".

لم أكن أعلم لماذا كانت أمي تتأثر بهذا الشكل عندما يأتي الحديث عن تلك المرأة العجوز، لكن لم يكن أمر العجوز مهما لي كي أسأل عنها، كما لم يكن هناك وقت كي أسأل أمي عن ابنتَي العجوز،

كانت حياتنا في الريف صعبة مثل حياة بقية القرويين، وفي هذه الحالات لا تسمح لك الظروف بتتبع مآسي الآخرين.

ظل لغز العجوز خفيًا لي لسنوات طويلة، لكن الحياة استمرت. وتحسن حالنا بالتدريج ولو قليلاً، لكنه كان كافيا بالنسبة لمن عاش أوقات الثلاثينيات المميتة. يكفي أن الحلوى واللحم والزيت والزبدة والسجق ظهرت في البقالات، كنا نشاهدها بأعيننا، وإن كان ثمنها يمنعنا من الاقتراب منها إلا فى مناسبات نادرة. لكننا نراها على أية حال.

الآن أصبح من النادر أن ترى فقيرًا يطلب صدقة في الشارع. يقال إن السلطة جمعت كل الفقراء الذين بدون مأوى أو عائل ليعيشوا في دار واحدة، يتم فيها توفير كل شيء لهم. ربما أن توركسيب – آبا أيضًا تعيش في نفس ذلك البيت. فمنذ فترة طويلة لم يرها أحد في قريتنا، وربما لم ينتبه أحد لاختفائها. وكذلك أنا.

أخيرًا ظهرت توركسيب _ آبا من جديد، فتذكرتها على الفور. وتذكرت السؤال التي طرحته علي وأنا أعطي لها هدية أمي لها من ملابس قديمة. وتذكرت دموع أمي حين أخبرتها عن سؤال العجوز. وليس مثل ذاكرة الأطفال فى الاحتفاظ بكل شيء.

كان طريق العجوز معروفًا ثابتا لا يتغير منه شيء حتى موضع خطوات أقدامها. لكن هل كان يمكن أن تتغير حقا؟ كيف؟ كانت تسير

على خط السكة الحديد متنقلة من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى، وكانت تسير على القضبان تمامًا دون أن تخاف من أن تدهمها عجلات القطار التي تمزق أرض القرية الساكنة. عندما كان سائقو القطار يرونها كانوا يطلقون لها نفير القطار فتتنحى قليلاً حتى يمر القطار، وتقف دون أن تزيل نظرها عن عجلات القطار حتى يمر، وهكذا استمر الحال صيفًا وشتاءً، وهكذا اعتاد الجميع على هذه الصورة الرتيبة. وعلى سؤالها الرتيب لكل من يمر عليها عن إيمان وشولبان.

لم يكن لتوركسيب _ آبا أقارب في منطقتنا، فقد كانت وحيدة، زوجها مات منذ فترة طويلة، بل لم تكن تعيش في منطقتنا أساسًا، فقد كانت تعيش عند أقارب بعيدين عن منطقتنا، في الواقع لم تكن تعيش معهم في البيت، بل في خيمة خاصة نصبت لها.

كانت في الشتاء تشعل ما يدفئها بنفسها وبصعوبة كبيرة، ولكن أكثر الوقت كانت تُلاحظ وهي تسير على طريق السكة الحديد، وكان ملاحظو القطارات في الشتاء القارس يعطفون عليها، فيدخلونها إلى غرفهم ويدفئونها ويسقونها الشاي ويطعمونها، وكانت ذات طبع هادئ ومتزن ولم يكن هناك إنسان يستطيع أن يضايقها، أو ألاّ يسمح لها بالدخول إلى البيت، أو ينهرها.

لكن ظلت في ذاكرتي حادثة محزنة؛ فمنذ أن نسي الناس الجوع وتحسنت حياتهم المعيشية، ظهر نوع من البرود في علاقتهم، وكانت

أولى العلامات أن مجموعة من سكان القرية بنوا بيوتًا مترفة وأحاطوها بأسوار عالية.

زاد متفي وكوسبان أحاطا بيتيهما بأسلاك حديدية شائكة كتلك التى تنصب حول المعتقلات لتنشب أشواكها الحادة فى أجساد من يحاول الاقتراب. قال لهما بيسين أحد كبار السن في قريتنا بغضب: "هذا لن يأتي بخير. يا أبنائي أزيلا الأسلاك الحديدية".

قالا مشيرين إلينا: "يا عم، إن الأطفال لم يتركونا وشأننا، لقد أخذوا كل الطماطم والخيار من حديقة البيت".

لا أدري ماذا قالا أيضًا، ولكن بعد فترة أزال متفي وكوسبان الأسلاك الحديدية، أزيلت الأسلاك لكن البرود في العلاقات بين الناس تزايد يومًا بعد يوم.

بعد فترة حدث في القرية حادث جلل، لقد اشترى كوسبان سيارة ماركة مسكوفيتش[١]، وكانت تلمع وتبرق في عيون القرويين. كانت سيارة رائعة جدًا.

فكرنا نحن الأطفال وتمنينا واستحوذت هذه الأمنية على عقولنا وحواسنا جميعا: آه لو ندخل هذه السيارة، ونجلس على كراسيها الوثيرة، ونتحسس بأيدينا حديدها اللامع وزجاجها النظيف البراق. كم

---

(١) سيارة محلية الصنع في روسيا.

تمنينا ذلك. لكن ليس دائما ما تستعصى الأماني على التحقق.

ذات مرة أعطتني أمي صرة في يدي وأرسلتني من جديد إلى العجوز المجنونة. في الطريق التقيت بسرجيه وهو ابن متفي نفسه الذي ذكرناه سابقًا وسألته، إذا كان قد رأى العجوز توركسيب - أبا. عبس سرجي في وجهي وقادني إلى بيت كوسبان قائلاً: "هيا، هيا سأريك توركسيب - آبا وشيئا آخر مسلياً".

يبدو أن أصحاب البيت كانوا مشغولين بالغداء، وكانت أمنيتنا (السيارة المسكوفيتش) تقف أمام البيت وهي تلمع وتبرق. كان في السيارة شخص ما، نظرت من النافذة فرأيت توركسيب - آبا تجلس على الكرسي الخلفي وتبحث عن شيء ما، وهى فى بحثها تقلب كل شيء من فوق إلى تحت. إنها فرصتنا تسنح أمامنا. لم نتردد، فتحنا باب السيارة الأمامي، ودلجنا داخلها. بدأت يدي تتحسس كل ما تقع عليه عيني فى السيارة. ووقعت يدي على آلة التنبيه فصدر منها صوت مرعب. خرج كوسبان من البيت غاضبًا وهو يسب ويسخط، وطردنا من السيارة بعد أن سحبنا سحبًا منها ووقعنا على الأرض قبل أن نهرول خوفًا منه.

وقفنا ليس ببعيد عن المكان. ننظر ماذا سيحدث مع العجوز المسكينة التي واصلت البحث داخل السيارة دون أن تأبه بغضب كوسبان.

"أيتها العجوز الشمطاء، كان يجب أن تموتي منذ زمن، لكنك لا تزالين تصارعين الحياة. هيا اخرجي من السيارة".

لم تنظر العجوز إلى كوسبان، واستمرت في بحثها كأنها لم تسمعه. فأمسكها مالك السيارة الحانق من كتفها وسحبها من السيارة، وضربها في الوجه كما يحدث في الملاكمات الرياضية وطارت المسكينة إلى مسافة بعيدة، وارتطمت بالأرض، قفز كوسبان نحوها لمواصلة الضرب لكن زوجته سمعت الضجيج فاندفعت من البيت: "لماذا هذا الضجيج ألا ترى أنها مريضة بائسة؟".

أمسكت الزوجة بيد العجوز ترفعها من الأرض، لكن كان الوجه الذى حفرت عليه السنون تاريخها مغطى بالدماء.

لم نتابع ما حدث بعد ذلك لأننا فضلنا أن نكون بعيدين عن المكان، ولم أحدث أحدًا بما حصل ربما لأني كنت أشعر بالذنب فيما حدث. فأنا من كنت أتطلع إلى دخول السيارة اللامعة، ويدي أنا التى وقعت على آلة التنبيه، ولولا ذلك لما تنبه كوسبان للعجوز التى في السيارة. انعقد لساني، ولم أعرف بما أتحدث. فى حين سرجيه يبكي ويكرر: مسكينة الجدة فهي لم تخطئ في شيء.

تفرقنا، وانصرفت بصمت إلى بيتي. كذبت على أمي، وقلت لها إني لم أجد العجوز.

تذكر الماضي عجيب. ربما يستغرقك التفكير فى ذكرى واحدة

وقتا طويلا لا يكاد ينتهي وأحيانا يمر ماضي حياتك كله أمامك كلمحة بصر، تبرق وتختفي فى لحظة.

تخرجت في المدرسة، وأصبحت طالبًا جامعيا، وفي الصيف أثناء الإجازة عدت إلى البيت، لم يتغير شيء في قريتنا، كل شيء على ما هو عليه. عندما مررت من أمام منزل كوسبان لاحظت أن السور الحجري الذي ابتناه ليمنع المتطفلين من أطفال القرية وعجائزها قد انحنى، وتفككت أجزائه، ومن خلال الفتحات التي ظهرت في السور المتداعي رأيت السيارة المسكوفيتش التى كانت تتراءى أمام أعيننا فى طفولتنا كالحلم المستحيل. رأيتها قابعة في مكانها الذي شهد تسللي وسرجيه داخلها، وشهد غضب كوسبان علينا وعلى العجوز المسكين، لكن السيارة لم تعد تلك السيارة الحمراء التي تلمع وتبرق، وإنما أصبحت سيارة متهالكة فيها ضربات وخدوش في الجنب والأبواب. رثيت لمنظر السيارة البائس، أو رثيت لحلمي الذي أصابته الضربات والخدوش وعدا عليه الزمان. وشعرت داخلي بارتياع لتذكري أنني السبب فيما حدث للعجوز المسكينة.

وصلت إلى البيت. وجدت أبي وأمي متضايقين لسبب ما، تحدثت معهما قليلاً فقالت أمي وكأنها تعتذر: "يا بني، أنت متعب من السفر. اشرب الشاي ثم اذهب مع أبيك وأحضرا العجوز توركسيب – آبا، يقولون إن المسكينة ماتت على قضبان السكة الحديد". وكعادة أمي أخذت تمسح دموعها بطرف المنديل.

قال أبي وهو يقوم: "نعم اشرب الشاي، بينما أذهب أنا وأتحدث مع كوسبان بشأن السيارة، فكل السكان مشغولون الآن في الحقول".

أردت أن أحدثهم عن تلك الحادثة القديمة ولكني تراجعت وفضلت الصمت، لم يلاحظ والدي قلقي وخرج من الغرفة.

قالت أُمي وهي تمسح دموعها: "كان لدى الميتة قريب واحد جاء وأخذها بالقوة ولكنها عادت من جديد إلينا وظلت تعيش بيننا".

جلست على المائدة ولكني لم أستطع أن أسيغ شيئًا مما عليها. خرجت إلى الشارع حيث كان أبي يجلس في المقعد الأمامي في سيارة كوسبان ويناديني كان كوسبان يجلس على مقود السيارة. جلست على المقعد الخلفي ولم أتحدث بشيء. سرنا بجوار السكة الحديد وبعد حوالي ٥-٦ كم رأينا مجموعة من الناس فقال أبي: هاهم، لقد حضر بعض الناس.

قال كوسبان: "إنهم عمال السكة الحديد.

أما أنا فصمت، وشعرت بخمول عجيب فلم أر من قبل إنسانا ميتـــا، لذلك شعرت بالخوف. يبدو أن أبي شعر بحالتي فاستدار وقال:
- يبدو أن الذين سيساعدوننا هنا كثيرون. فعد أنت إلى البيت.

لم يكرر والدي ما قال. فقد خرجت من السيارة مباشرة، وانطلقت كالطائر نحو البيت، شرحت لأمي ما حدث فربتت على خدي

قائلة:

- مسكين يا بني لقد أتعبتك الدراسة كثيرًا .

بهذه الكلمات حضنتني وقبلتني، فنظرت إلى عينيها فإذا هما مبتلتان كالعادة.

- "أهلا بأمي الباكية دومًا"، قلتها مازحًا.

- كلما تذكرت يا بني أختي التوأم وموتتها الشنيعة، تذرف عيني الدمع دون إرادة، مسكينة، فقدت عقلها من الجوع أو من اليأس فــأرادت أن تخرج الطــائر الميت من البئر فسقطت فيه. حتى الآن ما زلت لا أدري كيف استطعت أن أعيش بعدها.

كانت هذه أول قصة أسمعها عن المجاعة العظمى ففكرت في نفسي ما هذا الجوع، وهل هذا ممكن في ظل الاتحاد السوفيتي العظيم؟ في الكتب ليس هناك حتى نصف كلمة عن ذلك الأمر. ألم يكن كل التاريخ السوفيتي خططًا خمسية عظيمة؟ وإذا كانت مجاعة ففي أية خطة خمسية هي؟ وأخذت أحسب في نفسي "الخطة الخمسية الأولى، الثانية، الثالثة، ثم الحرب الكبرى...".

في محاضرة التاريخ عندما كنا نسمع محاضرة للأستاذ الأصلع قصير القامة الذي كان يتحدث في محاضرته عن سنوات النصر الخمس فاجأه جاري في القاعة الذي كان أكبر منا عمرًا بسؤال

أحرجه:

- قل لو سمحت في أية سنة من سنوات النصر العظيم تعرض القازاق للمجاعة؟

و لا أزال أذكر كيف أن الأستاذ ابتلع ريقه وهو يصرخ على زميلنا سيريك:

- "من قال لك هذا هيا تحدث!"

حضر كل سكان القرية مراسم دفن الجدة توركسيب - آبا، ولم يبك أحد، إلا أُمي التي كانت تبتعد قليلاً لتمسح دموعها.

بعد الدفن جاء الجميع إلى بيتنا ودار الحديث عن أشياء مختلفة، ومن ضمنها السياسة فمنهم من مدح خورشوف ومنهم من ذمه، ثم تحول الكلام عن العجوز توكسيب - آبا.

- يا لها من مسكينة، فليس لديها أحد يقرأ عليها الفاتحة.

- لماذا لم تخبروا قريبها.

- حالته أيضًا سيئة أليس هو من قتل بقرته حتى لا يسلمها للمزرعة التعاونية؟

- بعد ذلك جاء هو إلى هنا.

- بمجرد أن بدأنا نقف على أرجلنا، جاءوا من جديد وصادروا كل شيء.

– طبعًا لن يعجب هذا أحدًا، ولكن ما العمل اضطررنا للاستسلام.

سأل المحاسب خيسميت الذي وصل مؤخرًا إلى قريتنا: "لماذا كانت العجوز تسمى توركسيب – آبا؟".

تنهد العجوز بيسين بحسرة وقال:

– "آه يا خيسميت. لقد مرت أوقات عصيبة كدنا أن يفقد فيها بعضنا بعضًا، وليس أسماءنا التي سمينا بها عند الميلاد فقط، أنا أعرف المرحومة منذ أن كانت لا تزال شابة ووصلت إلى قريتنا، وكانت حسنة ومحترمة وكان اسمها جميلاً – فقد كانت تدعى عائشة".

لم أكن أتصور أن يكون اسم تلك العجوز ذات الشعر المتناثر هو عائشة، وهنا تذكرت زميلتي في الجامعة عائشة، وهي كما تقول أمي عادة على الفتيات الحسان "ذات جمال لا يوصف". بمجرد أن أراها أرتبك وأتيه ولا أدري ماذا أقول، أعتقد أنها كانت تحس بمشاعري تجاهها، ولكن لا يهم سأصل إليها، أما الآن فلم أبعد نظري عن الشيخ بيسين وأملي أن أسمع قصة العجوز توركسيب.

لكن الحديث لم يبدأ، فقد صمت الجميع وأخذ كل منهم يفكر بهمومه، اختلست نظرة نحو والدي، ولكنه لم يبد أي اهتمام بهذا الموضوع، ونظرت إلى الآخرين وهم أيضًا لم يبدوا اهتماما.

بدأت أقلق من أن لا أعرف الحقيقة، وكان كل الأمل بهذا الإنسان المحترم خيسميت، فإذا لم يجبر الكبار على الكلام عن العجوز فإن كل شيء سينتهي.

قال خيسميت وكأنه يقرأ أفكاري:

- نعم يا عم، لقد قلتم إن المرحومة كان اسمها عائشة؟.

هنا أدرك الجميع أن خيسميت لن يسكت ويجب إشباع رغبته، فمع أنه وصل إلى القرية حديثًا فإنه إنسان مهم ويجب احترامه، فمنذ أن أُخذت جميع الماشية إلى المزارع والناس يعيشون على الرواتب التي يحولها لهم المحاسب خيسميت.

كانت عائشة هذه من أهالي بفلدار، من مكان يسمى أربيجين، وكان والدها غنيًا معروفًا في تلك المنطقة، عندما شعر بالخطر استعجل في تزويج ابنته، وكان زوج ابنته تيميركوجان صغيرًا وحاذقًا ونشيطًا، وكان يعيش على جلب البضائع من الصين، ولكن ذات مرة لم يعد، ربما أنه قد قتل على الحدود أو تعرضت له عصابة وكان هناك شائعات بأنه كان جاسوسًا صينيًا، عمومًا اختفى، ذلك الشخص ولم يوجد له أثر.

عاشت عائشة أثناء حياة زوجها حياة سعيدة مريحة، ولكنها بعد موته بقيت وحيدة مع ابنتيها التوأم إيمان وشولبان، وبدأ عذابها، الله وحده يعلم كم تحملت هذه المرأة التي بقيت دون زوجها من عذاب وذل

وإهانة، ولم تكن وحيدة في ذلك؛ ففي ذلك الوقت ترملت الكثير من النساء، وجاع الكثير من الفقراء الذين لم يكن لديهم من يهتم بهم أو يدافع عنهم، ولذلك فقد كان كل شخص يستطيع أن يؤذيهم، فإلى من ستشتكي، وحتى إذا اشتكيت، من سينصفك؟

يبدو لي أنه من ذلك الوقت بالذات ظهر بين الناس خوف وحزن غريبان.

يجب أن نعيش بأي ثمن، المهم أن نعيش، هذه الأفكار أجبرت الناس على أن يخضعوا دون أية مقاومة، وأن يكونوا مطيعين منفذين لأوامر الغير. ومع أن الأوضاع تحسنت فيما بعد، فإن وقوع الناس مرة واحدة في مثل هذا الوضع جعلهم يتصورون أن العيش بهذا الشكل أفضل.

بمجرد أن أتذكر تلك السنوات المريرة يقشعر كل جسدي، ولكن أتصور أن هذا الشعور يتضاعف ألف مرة عندما تقع أنت نفسك في مثل هذا الوضع، وأن تذوق بنفسك مثل هذا العذاب والألم.

جن الناس من الجوع فأخذ يأكل بعضهم بعضًا، خافت عائشة عندما تصورت أنه يمكن أن تسرق ابنتاها منها، فقررت دون تردد أن تموت مع ابنتيها، وكان بيتها يقع بالقرب من طريق السكة الحديد، أخذت عائشة ابنتيها من رجليهما ويديهما وتمددت معهما على قضبان السكة الحديد، بكت الطفلتان من الخوف، ولكن الثلاث وقعن تحت

القطار الذي مر حينها، وكانت عائشة مستعدة للموت، ولكنها في اللحظة الأخيرة تمكنت من القفز، وعندما هدأ كل شيء واستيقظت الأم رأت أمامها منظرًا مرعبًا، فقد كانت ابنتاها ممدتين في بركة من الدماء وظلت هي حية. حفظت السماء لها حياتها، لكنها سلبت عقلها. منذ ذلك الحين والمسكينة تسير وتبحث عن ابنتيها..

انتهت تلك السنوات الموحشة، وبدأ الناس يعودون إلى طبيعتهم، وبدأت تظهر في العلاقات الاجتماعية مشاعر الدفء، والخير، ويشعرون بآلام الغير وأحزانهم، فكل من كان يرى عائشة يعتبر أن من واجبه أن يطعمها ويسقيها. ولم تظل عائشة التي عرفها الجميع كما هي فقد أصبحت عجوزًا ذات تجاعيد في الوجه وشعر أبيض تلعب به الرياح. بعد فترة قصيرة نُسي اسمها الحقيقي، وعادوا يسمونها توركسيب – آبا وبهذا الاسم ماتت.

تنهد كبار السن وأخذوا يتحدثون عن العجوز توركسيب، وأنها إذا لم تدخل الجنة، فإنها لن تدخل النار بكل تأكيد، قرأ الجميع الفاتحة على روحها وقلنا جميعًا "آمين" ومن ثم تفرقنا، أما أنا فأخذت أتذكر ما ذكره الشيخ بيسين وأدرك أن الكثير مما قال غير مفهوم بالنسبة لي. فمثلاً، لماذا لم يتمكن أولئك الذين سقوا الأرض بعرقهم المالح ودمروا الجبال وكسروا الصخور محولينها إلى رمال من إيقاف عائشة عما قامت به؟ ولماذا لم يأخذوا منها الطفلتين؟ وكيف حدث أن الناس لم يجدوا اللقمة؟ وأين ذهبت ماشيتهم؟ وكيف ضاق الخير الذي عاشوا

عليه في القرون الكثيرة أن يسعهم فى ظل الخطط الخمسية الطموحة للدولة العظمى؟.

قررت في نفسي عندما تنتهي العطلة الدراسية وأعود إلى الجامعة سأرغم ذلك الأستاذ الأصلع أن يخبرني بكل شيء ويجيب عن كل تساؤلاتي.

لماذا العجوز بيسين الذي لم يدرس إطلاقًا يعرف أكثر من أستاذ التاريخ في الجامعة؟

ربما أن هذا سر لا يجوز الحديث عنه؟ ولكن لماذا يجب إخفاء كوارث الشعب؟ وما الذي يقف خلف كل هذا؟ بهذه الأفكار وهذه التساؤلات عدت إلى الجامعة بعد انتهاء العطلة، وصلت لأواصل دراستي في السنة الثانية في كلية التاريخ. ولكني حينها لم أكن أعلم أنه ستمر سنوات كثيرة صماء بعد ذلك لكي يعرف العالم عن المجاعة العظمى، حيث إننا الآن في بدء خريف ١٩٧٩ ميلادية.

تاه الطريق من القدم

أتجرأ وأسأل ماذا يقصد

بمشاعر العدالة؟

مي – تسزي

– ليكن ما تشاء، وسأحترم رغبتك وأحدثك عن نفسي، وقد كنت أعتقد أنه من الإثم أن يقول لك العجوز قاسم كل شيء، فقد رأيتكم دومًا تتهامسون.

– لا يا عمتي، لقد كان العم قاسم دومًا يقول إنك يجب أن تتحدثي عن نفسك بنفسك.

– كيف أقول لك بوضوح ؟ فلو أن هذا كان يخصني وحدي لكان الأمر يختلف. فلكي أتحدث عن نفسي سأضطر للتعرض للكثيرين الذين التقيت بهم بشكل أو بآخر ولا أريد نبش الماضي، فمن يتذكر الماضي يفقد عينيه، كما يقولون (اختفى الأثر عن الطريق). وها أنت يا بني بدأت تنبش في الماضي فلماذا ؟

– افهميني، فنحن نحتاج لذكرياتكم من أجل أن نحقق العدل، ولكي يعرف الناس الحقيقة، من أجل هذا فقط.

– إذا كان الأمر فاسمع مني. سوف أقص عليك، كما انطبع ذلك في نفسي وعليك أنت أن تنسق الأحداث. للمرة الألف أفكر في نفسي وفي حياتي ويخيل لي أن كل ما حدث لم يحدث معي، وأنه حدث لشخص آخر. تنحنحت أيكين – أبا قائلة:

اسمع:

رواية أيكين – أبا

كان لدى أبي وأمي ثلاثة أطفال، وكان والدي محبّا للعمل، ويعتبر من الطبقة المتوسطة، خضعت أملاكه للمصادرة من رجال الحزب، كما أخذوا بقرتين أو ثلاثًا وفرسًا وعشرة أغنام من بيتنا إلى المزرعة الحكومية ليتم توزيعها على الفقراء كما قال من أخذوها.

ذات يوم بقيت أمي وحيدة مع ثلاثة أطفال دون زوج أو مصدر رزق نعيش منه، وكانت تقول دومًا إنها هي سبب شقائنا أو بالأصح جمالها. فقد كان يعيش في منطقتنا شخص يدعى كالين، وكان لديه سلطة ما، رأى كالين أمي وقرر أن ينالها. ولما فشل الوغد قرر الانتقام فوشى بوالدي، لا أحد يعرف إلى أين أخذوه، ولا ماذا حل به.

الآن وبعد مرور كل هذه السنوات لا أدري هل كانت أمي مذنبة في ذلك، ولكني أذكر كيف أنه لم يكن لحزنها حدود، كذلك لم يكن نهاية لعذابها ولا للأعباء التي وقعت على عاتقها. بعد أن أخذ والدي إلى السجن، قلّت زيارة أقربائنا لنا بالتدريج، مرض أخي الكبير

بمرض الرئة ومات خلال عدة أيام ودفنه الحارس الأعرج سابار، وبعد فترة مات أخي الثاني.

جُنت أمي من الحزن والخوف على ابنتها الوحيدة التي بقيت حية، وذهبت إلى أهلها، ومازلت أذكر كيف جلست أمام والديها وهي تبكي وتقول إنها لن تتحمل موتي.

أخذوا يعطونني شحمًا مذابًا لمدة شهر كامل، كي أتعافى، ولكني لم أكن أتوقع أنه ينتظرني في المستقبل مشقة أكبر من المرض. في عام ١٩٣١ ميلادية، هجم الجوع علينا كسحابة سوداء تملأ السماء بلا نهاية. لا يمكن وصف ما يحدث للناس عندما يجوعون. يمكن فقط مقارنته بالجنون الحقيقي، بصعوبة بالغة كبيرة بقينا أحياء حتى فصل الربيع. تمكنت أُمي بطريقة ما من الحصول على كيس من القمح. وكانت تحرص عليه كثيرًا، ومنعتني منعًا باتًا أن أتحدث عنه أو أن أقول لأحد أيًا كان بوجوده. ولكن لأنها كانت بطبيعتها امرأة طيبة وخيرة فقد أفشت سرنا بنفسها.

كنا نعيش بهدوء واستقلال، ومرت الأيام يوم عقب يوم، وكلها متشابهة كالتوائم، وكنا نغني ونجلس خلف الطاولة محتفلين وكأن شيئًا لم يكن. ولكن كل يوم يأتي بخبر أبشع من الذي قبله، وعندما كانت أُمي تسمع أن شخصًا ما مات من الجوع، تتعب كثيرًا ويشحب وجهها وتتجمد، وفي المساء تذهب قبل النوم إلى كيس القمح لتتأكد من أنه ما

زال في مكانه، فتهدأ، وتنام قريرة العين راضية وتستيقظ في الليل وتذهب من جديد إلى الكيس، فيما بعد أدركت سبب قلقها، فالإنسان الفاقد للأمل والعاجز أمام القدر قد يقوم بأشياء لا تعقل، وتصرفات مجنونة، يدفعه حب البقاء للقيام بها.

الجوهر الإنساني يظهر إما في أفضل الحالات المعيشية أو في الأزمات الحادة مثل الشعور بالجوع الذي قد يجبر الإنسان على نسيان كل ما هو إنساني.

لقد كُتب لي أن أرى هذا بأم عيني عندما كان عمري أربعة عشر عامًا، ولكني حينها كنت جائعة وخائرة القوى، فلم أستغرب لذلك لأن الجوع يقتل المشاعر، كان لدينا جار يدعى ميلتيكباي وكان لديه كثير من الأولاد، وكانت حياتهم صعبة في أيام الرخاء، أما في أيام الجوع فقد كانوا أول ضحايا للمجاعة.

كان عمر الابن الأكبر كونيرباي ستة عشر عامًا، وجده أحد سكان القرية وهو يسرق فضربه ضربًا مبرحًا أدى إلى وفاته. ابنتهم مارجان، كانت منذ الولادة ضعيفة هزيلة فقد كانت أول من مات من الجوع في قريتنا، وقد كنا صديقتين ولطالما لعبنا معًا.

لم تتحمل أُمي موت مرجان، فدعت جارتنا زوجة ميلتيكباي وسكبت لها قدح حبوب من كيس القمح ويداها ترتعشان. بعد مرور كل هذه السنوات ما زال هناك منظر واحد لا يفارق مخيلتي، منظر يدي مرتعشتين أثناء سكبها القمح لزوجة ميلتيكباي.

مسكينة أُمي! يبدو أنها كانت تشعر بالخطر، وتدرك بعقلها أنه لا يجب فعل ذلك إلا أنها لم تستطع أن تتغلب على طبعها الخير.

لكن ما الذي يعنيه قدح حبوب لعدد كبير من الأطفال المرضى والجائعين؟ وبعد يوم جاءت زوجة ميلتيكباي من جديد فسكبت لها أُمي مرة ثانية، وقالت لها شيئًا ما بهمس، وعندما جاءت الجارة للمرة الثالثة رفضت أُمي أن تعطيها، وسمعت وأنا نائمة، أنها تشير إلي وتحاول إقناعها بشيء ما.

خفضت زوجة ميلتيكباي رأسها، وغادرت إلى بيتها، ولكنها على عتبة الباب قالت "جمال، لم أكن لآتي إليك من تلقاء نفسي. ولكن صاحبك كالين، قد فقد عقله خبئي الكيس بعيدًا وإلا ستكون مصيبة، يُقال إن الناس بدأوا يأكلون لحوم البشر".

بمجرد أن غادرت باب البيت أخذنا أنا وأمي نخبئ الكيس، وضعناه في كل مكان من البيت ولكن في كل مرة كان يتصور لنا أنه سيتم اكتشاف الكيس اللعين.

من حزننا احتضنت إحدانا الآخرى طويلاً وأخذنا نبكي، فجأة مسحت أُمي دموعها وقامت ونظرت إليَّ قائلة: "لن تنفعنا الدموع في حل المشكلة، لن يأتي هذا بخير، يجب عمل شيء ما، هيا يا بنيتي العزيزة هات الأكياس الصغيرة سنملؤها بالقمح ونخفيها تحت الوسادات". عندما اقتنعت أُمي بسلامة الفكرة بدأت أضع القمح في

الأكياس الصغيرة، لكنها أوقفتني قائلة:

- اتركي قليلاً من القمح في الكيس، فالوغد لن يهدأ حتى يجده.

في اليوم التالي ماتت زوجة ميلتيكباي، وفي المساء كسر ميلتيكباي باب بيتنا برجله وبدأ بعيون مليئة بالدم يصرخ على أمي، ويهددها ويهينها وطلب منها أن تسلم له القمح:

- صاحبك الوقح ذو الشفة المقطوعة سيحضر لك المزيد، لأنه عندما يرى امرأة مستعد لأن يعطي آخر ما لديه لكي يجامعها، وأنت لا تخسرين شيئًا فقاسمينا غنيمتك وإلا لن يحدث خير.

"الوقح ذو الشفة المقطوعة" الذي تحدث عنه ميلتيكباي كان هو نفسه كالين الذي وشى بوالدي.

سمعت أمي كلمات جارنا بهدوء وارتكزت على وقالت له بصعوبة: "دعنا نحن نموت من الجوع وعش أنت يا قذر" وبهذه الكلمات رمت ما تبقى من كيس القمح عند رجلي ميلتيكباي، ووقعت على الأرض وهي تبكي، وقف ميلتيكباي بصمت طويلاً وهو ينظر إليها، بعد ذلك أخذ كيس القمح وانصرف يحمل رجليه بصعوبة وهو يقول: "انتظري يا ساقطة سوف أريك". قامت أُمي إليَّ وقبلتني وقالت:

- سيأتي أبوك في القريب وكل شيء سيكون على ما يرام. لم أتمكن من الحفاظ على أخويك، بأي وجه سأقابل والدك،

إذا حدث لك شيء، عندما يعود أبوك فإن ميلتيكباي لن يجرؤ أن يقف أمامه. هو الآن فقط يزأر، مستغلاً غيابه لذلك عليك أن تتحملي.

كنت أنا أستمع إلى أمي وأتذكر أخي الكبير يربولات، آه لو كان حيًا، هل كان يستطيع هذا الحيوان ميلتيكباي أن يخطو عتبة بيتنا.

نظرت إليّ أمي وكأنها تقرأ أفكاري وقالت:

كان سيكون عمر يربول في هذا العام سبعة عشر عامًا.

لا أدري كم جلسنا أنا وهي ونحن تحتضن إحدانا الأخرى، بعد ذلك قامت أمي.

- هذا الملعون ميلتيكباي أنساني كل شيء، لقد أحضرت لك اليوم لحمًا.

أخرجت أُمي من تحت البطانية كيسًا صغيرًا، وأخرجت منه قطعة لحم صغيرة وعندما جهز الأكل أخرجت أُمي قطعة خبز كبيرة من مكان ما، فنظرت إليها بشك متسائلة: من أين هذا الغنى؟ أدركت أُمي شكي واستغرابي وقالت:

- تذكرين صديق والدك الروسي ماتفيي؟ التقيت به اليوم، وعلمت أنه يعرف عنا كل شيء، وقد بعث لك باللحم والخبز ووعدني في الخريف بكيس الدقيق.

في ذلك المساء جلسنا طويلاً خلف الطاولة، نتـذكر الماضـي ونقص لبعضنا قصصًا مسلية، وقد مدحت صديق أبي الروسي مـاتفيي الذي ربما رأيته من قبل لكني لم أستطع أن أتذكره.

كان لدى أُمي فستان أحمر جميل، أخرجتـه مـن الـصندوق، ولبسته فجريت نحوها قائلة: "كم أنت جميلة يا أُمي".

في الصباح زال مرحنا فقد مات أحد أبناء ميلتيكباي من الجوع، وبدأ الناس يرحلون إلى الجنوب ولكن مراقب القرية كالين، ذلك الـذي تحدث عنه ميلتيكباي أخذ يطارد الناس في كل الصحراء ويعيدهم إلـى القرية ثانية، وقد كنت أجلس في البيت وأغلـق البـاب علـى نفـسي بالمفتاح وأنتظر بكل صبر عودة أُمي من العمل في خوف، فقد كثرت حالات أكل لحم البشر.

ذات مرة جاءت أمي إلى البيت قبل الموعد الذي تأتي فيه عادة، وسقطت على السرير دون أن تخلع ثيابها وأخـذت تبكـي ويـرتعش جسمها لفترة طويلة، اتضح أن أحدًا ما قد كتب إلى رئـيس المجلـس القروي رسالة سرية، يتساءل فيها لماذا تعمل زوجة عدو الشعب فـي المزرعة الحكومية.

رئيس المجلس المفزوع إلى درجة الموت أخذ إحـدى النـساء المُرحلات إلى منطقتنا للعمل بدلاً من أُمي، في هذه اللحظة شعرت أن الجوع يقف على عتبة بيتنا، وفوق هذا هجوم جديـد، فبعـد غـروب

الشمس مباشرة أخذ ميلتيكباي يطرق بابنا بقوة ويصرخ:

- يا ساقطة، هل تسمعين؟ افتحي الباب وإلا سوف أكسره بالساطور.

وقد أثبت نواياه الشريرة وأخذ يضرب بالساطور على الباب.

يبدو أننا لن نستطيع أن نتجنب هذا الحيوان، ويجب أن نفتح الباب.

بمجرد أن فتحت أُمي الباب هجم ميلتيكباي علينا ودفع أُمي من صدرها وتوجه نحوي:

- لا تقفي بطريقي، يا ساقطة، ابنتك في نعيم، أنا من سيقرر ما العمل، إما سأجعلها زوجتي أو سأتذوقها وهي لا تزال طازجة، ففي كل الأحوال سنموت، ولكنكم ستموتون قبلي.

بهذه الكلمات أخذني من يدي وسحبني نحو الباب، رمت أُمي بنفسها تحت قدميه.

– أرجوك، بكل ما هو مقدس ألا تمس ابنتي، طفلتي، وأمسكت قدميه بيديها ولم تسمح له بالمشي، لكن ميلتيكباي ضربها بخلفية الساطور في ظهرها وأخذ يركل المرأة الملقاة عند قدميه بعنف، ولأول مرة واصلت أُمي التوسل إلى الوغد دون أن تعير لآلامها أي أهمية قائلة:

انتظر حتى إلى الصباح، وفي الصباح سوف أحضرها لك

بنفسي، اسمح لي على الأقل أن أودعها وأجمع لها ملابسها، أنت أيضًا لديك أم، من غير المعقول أنك لا تفهمني؟

- غدًا، من يعرف ماذا سيحدث الغد؟ فربمـا سـأرفع رجليهـا الليلة. عندها خافت أمي وأخذت تخرج أكياس القمح الصغيرة من تحت الوسادة وتقذف بها إليه. تركني ميلتيكباي وانبطح على الأرض يجمـع أكياس القمح المبعثرة ويقول:

- حسنًا ليكن ما تريدين، ولكن لو نطقت بكلمة لأحد فلن يمنعني عنكم شيء.

عندما ذهب أردنا أن نغلق الباب، فاتضح أنه أغلقه من الخارج بقفل عندما انصرف.

جمعنا بعض أشيائنا المتبقية لدينا من ملابس وبقية أكل، وكسرنا النافذة واختبأنا عن عيون الناس وسرنا في الطريق المؤدية إلى المدينة دون أن نتوقف.

- لم أذنب تجاه أبيك يا ابنتي، يجب علينا الآن الوصول إلى المدينة، وهناك سنجد عملاً وسنعيش، فنحن نحتاج لمأوى فقط.

بعد يومين وصلنا إلى المدينة، ودرنا طويلاً على أقاربنا نطلـب منهم مأوى، لكنهم جميعًا رفضوا. آخر من توجهنا إليه كان العجـوز نور الدين الذي هز رأسه بالموافقة وقال:

- حسنًا، لقد أحسنت أنك استطعت أن تحمي الطفلة حتى الآن، دعيها تعيش لدينا. ما دمت على قيد الحياة لن أسمح لأحد أن يمسها بسوء، حياتنا كما ترين صعبة، وأنت مازلت شابة وتستطيعين أن تدبري أمرك، هذا هو الحل يا عزيزتي.

- شكرًا جزيلاً يا عمي، وأنا لا أريد أكثر من ذلك، فقط اسمحوا لي بزيارتها من وقت إلى آخر أما أنا فسأجد عملاً في المدينة.

- إيه، يا عزيزتي يصعب الآن إيجاد عمل في المدينة، ولكنك ذكية وستجدين حلاً.

هكذا بدأت حياتي في بيت الجد نور الدين الذي كان العم المباشر لأبي، وقد كان وأسرته أناسًا طيبين خيرين، وكان يعول البيت الابن الذي كان يعمل حمالاً في المخازن.

كانت أمي المسكينة تأتي لزيارتنا، وتحت عينيها علامات سوداء ومتورمة الوجه من الجوع، وفجأة اختفت لمدة أسبوع كامل، وذات صباح وجد الجد نور الدين أمي ممدة أمام باب البيت دون أية علامات للحياة فقال: "مسكينة لم تتحمل فماتت من الجوع". وأغلق عينيها.

– لا يزال جسمها دافئًا، اعدليها.

لم يكن هناك دموع، وضعنا أُمي في التابوت وعدّلنا جسمها كما

يجب. أخذت رأس أمي وضممته إلى صدري. لم تسقط لي دمعة، ولم تخرج مني صرخة. لم أفعل شيئًا مما قد تفعله بنت يافعة فقدت أمها التي هي ما لها في الحياة. فقط جلست أحتضن رأسها إلى صدري. لا أذكر كم جلست على هذه الحالة، ولكني استيقظت على الكلمات: "أيها العجوز خذها من هنا، فقد فُجعت المسكينة، يكاد قلبها يخرج من مكانه".

المصائب لا تأتي فرادى. بعد دفن أُمي مباشرة أصيب ابن الجد نور الدين، وحجزوه في المستشفى، يُقال إنه سقط عندما رفع كيسًا ضخمًا لم يتحمل جسده الواهن ثقله فسقط به على الأرض. رقد كيسنغازي (كان هذا اسمه) في المستشفى فترة طويلة، بعد ذلك تم إرساله إلى دار العجزة.

كل ما ادخره الجدان طول حياتهما لمثل هذا اليوم، صرف في ساعات، وانتقلت مسئولية العناية بهم إلى عاتقي. يبدو أن الإنسان الذي على قيد الحياة يتحمل كل شيء ويتعايش معه. ذهبت بي العجوز إلى أسرة تترية للخدمة هناك. في المساء كان أصحاب الدار يعطونني ما يتبقى من أكل على مائدتهم، وعشنا على ذلك.

كانت العجوز دومًا تؤكد أن عليَّ أن أصبر مهما حدث، ويجب عليَّ أن أسلم بما قد يحدث، وبعد فترة قصيرة عرفت سبب إصرار العجوز على إقناعي بذلك، فقد أخذني صاحب البيت ذو الأربعين عامًا،

واغتصبني في البدروم. أدركت معنى كلمات العجوز ويد الرجل الفظ تعبث بجسدي، وليس يده فقط. عضضت على أسناني وأنفاسه القذرة تحرق كل نقطة في جسدي، واستسلمت له.

ذات مرة وجدتنا زوجة صاحب البيت ونحن معًا، طردتني بالشتم واللعن إلى الشارع وأغلقت الباب، ولم تكتف بذلك، فقد رأيت الباب يفتح من جديد، وتخرج هي منه حاملة بيدها عصا وهي تجري نحوي وتحرك العصا، وتصرخ قائلة: "سوف أفعل بك ما يجعل الرجال لا ينظرون إليك أبدًا يا عاهرة".

لا أدري كيف كان سينتهي الأمر لولا تدخل زوجها. دخلا البيت، وأغلقا الباب عليها. ما ذنبي أنا فيما حدث. لماذا لم تتفوه الزوجة الثائرة بكلمة واحدة فى حق هذا الفظ المغتصب؟! ميلتيكباي الجائع أراد اغتصابي حتى منعته أمي بأكياس القمح. بم كنت أدفع صاحب البيت الذي يملك القمح واللحم في بيته. يا للسماء ماذا تفعل الفتيات الفقيرات فى هذه الحياة.

"سأموت ولن أدخل هذا البيت ثانية" هذا ما قررت في نفسي وأنا أجمع ملابسي الممزقة.

سرت فى المدينة حيث قادتني قدماي، عشت عدة أيام في

الشارع، أنام وآكل الفضلات التى يلقيها الموسرون من رجال الحزب أو التجار الانتهازيون، عشت كغيري من الفقراء والمساكين الذين يملأون المدينة. أما ما حدث بعد ذلك فلعل الجد قاسم قد أخبرك به.

مرت ثلاث سنوات منذ أن توفي العم قاسم، وقد كان يغضب كثيرًا أثناء حياته عندما أتذكر الماضي، يبدو أنه لم يكن يريد أن يؤذيني، أما الآن فعلى العكس أصبح الجميع يتحدثون عن ذلك بشكل مفتوح، ولو كان قاسم حيًا لقص لنا الكثير من القصص.

نعم لقد حمل الجد قاسم معه إلى القبر الكثير من أخبار سنوات المجاعة الموحشة، وهاهي قصة قاسم أغا التي تمكن أن يحكيها لي قبل وفاته.

– "في سالف الدهر والزمان عندما عاد أبناؤنا من النصر العظيم، بدأت آلام كبيرة كان اسمها... المجاعة".

نظرت إليه باستغراب محاولاً أن أجد في وجهه آثارًا للحزن، لكن قاسم أغا نظر إلي نظرة جانبية وقال:

يبدو لك غريبًا أني أريد أن أقص عليك أبشع ما يمكن، ومع ذلك أبدأ القصة كقصة مسلية. في تلك السنوات مات والدي، لم يمت من الجوع فقط، فمن جهة كان مريضًا ومن جهة ثانية لم يستطع أن يرى عذاب الناس، فقد كان كاتبًا كما تقولون الآن، بعد وفاته ترك صندوقًا وفيه كتابات، لكن أقرباءنا خافوا أن يكون فيه شيء ما يؤخذ عليهم

فأحرقوا الصندوق بما فيه. لكن الشعب يعرفه كاتبًا قصصيًا، لدرجة أنه ظلت بعض العبارات مثل "هكذا قال سيبت".

قبل أن يموت دعاني، وكان ينكت ويضحك وفي النهاية قال: "يابني انتظر وسيأتي وقت الحقيقة، عندها ستتذكر الماضي، فابدأ قصصك هكذا: "في سالف الدهر والزمان". فما الحياة إلا قصة، الحياة ليست حقيقة أبدا. حياتنا هي عبارة عن مخيلة كائن ما واهتمامه، والحقيقة العظمى لم تصل إلينا بعد، ولكنها عندما تصل لن يصدق أحدٌ أننا عشنا هذه الحياة، وسيبدو هذا لهم مستحيلاً وغير منطقي. لذلك فإنهم يحكون الماضي كقصة".

هكذا أيضًا كان أبي يقول يرحمه الله. هكذا فإني أيضًا أنتقل إلى الحياة الآخرة قبل أن تصل الحقيقة العظمى، ولذلك فإن حياتي هي أيضًا مجرد قصة.

بالفعل فإن الجد قاسم لم يعش إلى وقتنا الحاضر، الذي يمكن فيه أن تتحدث عن كل شيء بحرية وجرأة دون أن تخفي شيئًا، وهذه إحدى قصصه التي حكاها لي.

رواية العم قاسم

كنا نعيش في المدينة. كان والدي يعمل حمالاً في المخازن، وكنت أنا أعمل في المذبح. كان عمري سبعة عشر عامًا.

ذات مرة ذهبنا أنا ووالدي إلى السوق لشراء بعض حاجاتنا من الغذاء، أخذنا فترة طويلة ونحن نتفرج على البضائع ونساوم في السعر قبل الشراء. أخيرا اشترينا نصف كيس من البطاطس، وانصرفنا نحو البيت، وعند مدخل السوق رأينا المشهد التالي.

هنا يجب الإشارة إلى أنه في تلك السنوات كان هناك الكثير من الموتى في الشوارع، وقد تعود الجميع على ذلك لدرجة أنهم كانوا يخطون بأقدامهم بين جثث الموتى الملقاة على الطرق دون أن يعيروا الأجساد الميتة اهتمامًا. كان هناك فرقة دفن خاصة تجمع الموتى من الشوارع، وترميهم بغير مبالاة مكدسين فوق عربة الموتى المكشوفة، ثم تذهب لتدفنهم خارج المدينة دون جنازة أو مراسم أو وداع من الأقارب. لقد فقد الموت الإنساني إنسانيته في هذه الأوقات.

عندما أمسك أحد أعضاء فرق الدفن برجل أحد الموتى، صرخ فيه والدي فجأة "لا تلمس الطفلة". وجرى نحو الجثة، التي كانت لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها وكان فستانها مقطوعًا وجسمها هزيلاً، دفع والدي رجل الدفن، ورفع الفتاة بحرص شديد وعزم على وضعها في عربة الموتى، لكنه شعر بها تتنفس، فابتعد عن العربة بسرعة

واتجه نحوى.

صرخ الشرطي الذي يقف بعيدًا عنا فى والدي قائلاً: أيها العجوز ضع الجثة في العربة.

إنها لا تزال تتنفس سآخذها إلى البيت لعلها ستعيش.

اترك هذه الفكرة عنك، وضعها فى العربة. فإذا كانت لم تمت بعد، ستموت في العربة أو بعد الدفن.

قال أبي وعيناه تلمعان من الغضب: "أيها الحيوان، الأفضل أن يدفنوك أنت بدلا من هذه الطفلة".

- أخذ الشرطي السمين يضرب والدي بالسوط، ويقول: "هكذا إذن، خذ على كلمة حيوان خذ، خذ" ققفزت أنا دون وعي على الشرطي وخطفت من يده السوط وقذفت به بعيدًا.

فقال السمين وهو يعض على أسنانه: "انتظروا يا كلاب وسأجعلكم تموتون في السجن".

أجابه والدي: "سوف أغسل جسدك البدين القذر هذا بدمك قبل أن تأخذني إلى السجن". ورماه بنظرة جعلت الشرطي البدين يجبن ويكتفى بالسباب وأبي يبتعد عنه والطفلة على ذراعه، وحملت أنا نصف كيس البطاطس، وعدنا إلى البيت.

لن أطيل الحكاية، فقد تمكنت أمي المسكينة من رعاية الطفلة

حتى عادت إلى الحياة، أعتقد أنك قد عرفت من هي الفتاة؛ إنها الجدة أيكين أم صديقيك عسكر وبولات.

عندما عادت الطفلة إلى وعيها قصت على قاسم كل ما حدث لها. ذهب قاسم بها إلى بيت الجد نور الدين، لكن الجد والزوجة كانا قد ماتا في البيت جوعًا.

هذا ما بقي لدي في الذاكرة من قصص كبار السن. في العام الماضي توفيت أيكين أبا، وكما كانت تحب دومًا أن تقول "تاه الطريق من القدم".

لا أظن أن هذا ما كان يسميه الجد قاسم "صفحات بيضاء". هل كان يجب أن نحتفظ بقصة الجدة أيكين - أبا سرًا؟ ليس لدي جواب عن هذا السؤال.

أما حقيقة أنه كانت هناك مصائب موحشة وآلام كثيرة - فإنها حقيقة، ولكن أعشاب النسيان نمت عليها.

الماضي في الحاضر

كان جارى الرائع أسان عمره حوالي تسعين عامًا، لذلك فقد رأى الكثير في حياته، لكن الجد أسان كان بطبعه منعزلاً جدًا ولا يحب الكلام، وكان من الصعب على أى إنسان أن يجبره على الحديث. لذلك فقد ذُهلت عندما جاء ذات مرة إلي مهرولاً وغاضبًا إلى أقصى حد:

– يا بني أنت ذكى وتعرف كل شيء. قل لي هل صحيح أن السلطة ستمنع شرب الكحوليات؟

– يا جدي، طبعًا فالآن سنضطر جميعًا لأن نكون يقظين خصوصًا الشيوعيين.

– لا أدري ماذا حدث للسلطة، ولكني أقول لك ألاّ تعطي وعدًا بعدم شرب الفودكا، أنت صغير ومتعلم.

لم يكن الجد أسان يطيق الكحوليات إطلاقًا. وكان يجب أن يبدو أسعد من غيره بقرار السلطة هذا. لكن أن أسمع من العجوز مثل هذه الكلمات فهذا غريب. واصل العجوز كلامه:

لقد توصلت بعقلي الصغير إلى أن الشيوعيين يدعمون أولئك الذين يشربون، ولذلك، فإني الآن مذهول من قرارهم منع الشرب، أولئك الشيوعيون الذين أعرفهم كانوا دومًا يركضون وراء الشرب، لقد

عرفتهم أيام الحرب، فقبل المعركة كنت دومًا أعطي نصيبي من الخمر للرقيب كفالوف فقد كان أيضًا شيوعيًا. بعد ذلك عملت كبيرًا للخدم، وكنت مضطرًا لأن أسقي القيادة حتى رئيس اللجنة الإقليمية، فقد كانوا جميعًا متفوقين في مسألة الشرب.

حاولت أن أقاطعه: "أما الآن فإن الشيوعيين سيكافحون من أجل حياة صحية".

– يجب الكفاح من أجل ذلك ولكن، ذلك لن يكون بأيدي الشيوعيين.

مزحت معه: يبدو أن الشيوعيين قد آذوك كثيرًا.

– لست غاضبًا على الشيوعيين الحاليين بل على القدامى، أبناء جيلي فليس هناك نار دون دخان، فما عشته حينها لا يزال حتى الآن يغلي في نفسي، بالطبع مرت سنوات كثيرة، وحان موعد النسيان، لكن لا... كلما فتحت عيني أرى ما حدث، وكأنه بالأمس فقط.

طلبت من العجوز أن يحكي لي قصته.

– في العشرينيات أخذت الدولة مزارع الفلاحين لتكون منها مزارع تعاونية في قريتنا (كوسشي)، قلق الناس وانزعجوا، لماذا يحدث. ولكن لم يكن بيننا من يفكر مجرد تفكير أن يقف ضد السلطة. كان الناس يفكرون كيف يبقون على قيد الحياة في هذه السنوات

الصعبة. قرر والدي مع بعض أقربائنا أن يهاجروا إلى ألتاي وتركوني أنا لرعي الأغنام.

الإنسان يتعود على كل شيء، ولذلك فقد كنت بصورة عامة راضيا عن حياتي. كان هناك الكثير من الجائعين في تلك السنوات الذين يصعب حصرهم في حين كان عملي في رعي الغنم يوفر لي قليلاً من اللبن أعيش عليه.

كان يحدث أنني لا أنام الليل خوفًا من أن يسرق أحد الأغنام، وكان كبير الرعاة يؤكد دومًا: سأقطع رؤوسكم لو ضاع خروف واحد من الغنم. وعلى الرغم من المجاعة فإن أحدا لم يكن ليسرق. كنت غالبًا ما ترى جثث الموتى من الجوع. أما جيلنا أولئك الذين كان لديهم أي عمل في المزرعة، فقد كانوا يعيشون بشكل أفضل، يحدث أن تقوم في الليل لتشرب الحليب من ضرع الماعز مباشرة وتنام قرير العين.

ذات مرة جاء مسئول حزبي مع اثنين من الجنود وهجموا علينا، وقد اختارني المسئول كي أكون ضحيته. وتساءل لماذا يرعى ابن الهاربين الأغنام عندكم؟ لقد اختفى أبوه ولا يريد أن يساعد السلطة السوفيتية، وهذا يعني أنه عدونا وابنه أيضًا عدو، لكن كبير الرعاة عسكرباي وقف إلى جانبي، مؤكدا أنني عامل جيد ومخلص وأمين وسقى المسئول فودكا، وبذلك أنقذني من الموت جوعًا، فلو تم طردي من المزرعة لكنت لقيت حتفي من الجوع مع الذين يموتون كل يوم،

فلم يكن هناك سبيل آخر سوى الانضمام إلى جيش الجائعين. وفي ذلك الحين كان هناك أحاديث عن أن الناس الجائعين بدأوا يأكلون لحوم البشر.

تخلصت من المسئول، ولكني أصبحت هدفا للنشطاء الحزبيين في القرية، فكانوا يضربونني، ويصرخون علي، ويعايرونني لأنني ابن إمام مسجد وهارب من خدمة الدولة. لم يكن لدي مكان أذهب إليه، لذلك فقد تحملت على مضض، وحاولت ألاّ أظهر كثيرا بين الناس.

مع الزمن دخل النشطاء الحزبيون في ركاب السلطة، وكان يكفي أن يفتح الإنسان فمه حتى يزجوا به في غيابات السجن. وكان جميع النشطاء الحزبيين محبين جميعهم للفودكا وأدمنوها وأجارك الله أن تقع أمام عيونهم وهم في حالة سكر.

ذات مرة درت كالعادة على الأغنام، وتأكدت من أنها في مكانها جميعًا، ثم جلست جانبًا وأخذت آكل مما رزقني ربي، وبمجرد أن انتهيت تغطيت بملابسي محاولاً النوم لكني أحسست بأحدهم يركلني بحذائه في ظهري، فتحت عيني فإذا هو أحد نشطاء الحزب في القرية.

- هيا رئيس المجلس القروي يريدك.

أدركت أنه يكذب، فلماذا يريدني الرئيس في مثل هذا الوقت؟ لكن لم يكن أمامي خيار آخر فذهبت معه، كان مقر إدارة المزرعة في خيمة يرفرف فوقها العلم الأحمر، دخلت إلى الخيمة، وهناك كان مرح

نشطاء الحزب في قمته. طلائع الحزب يغنون ويشربون الفودكا، والدخان يتصاعد كالإعصار.

قال الناشط ذو الشعر الأحمر: " هه، تفضل، تفضل يا إمامنا المبجل".

- خذ تفضل اشرب. ومد لي بكوب فيه فودكا.

- لا لن تستطيع أن تقنعه فهو طاهر، وهذا الشراب للمذنبين فقط شعرت بأن شيئا سيئًا سيحدث فانكمش قلبي وأدركت أنه سيحدث الآن شيء مرعب.

كان رئيس المزرعة سامال ضعيفًا هزيلاً أسود يشبه اللحم المقدد، قام ومد يديه لي وقال: "لا تسمع لهذا الثرثار. لقد دعيناك لكي تكون عضوًا في مزرعتنا التعاونية (كوسشي) عندها لن يستطيع أحد أن يتعرض لك. بل على العكس سيخاف منك الجميع. لكن لكي يتم ذلك عليك أن تعترف أمام الجميع بأن أباك عدو للشعب".

فكرت في رعب: "يا إلهي، كيف أقف ضد والدي؟" وقد كنت مستعدًا لأى شيء، ولكن أن يكون اسم والدي عدو الشعب؟ ماذا يمكن أن يكون أبشع من ذلك؟

قال الناشط ذو الشعر الأحمر: "لقد تركك والدك فهو عدوك أنت قبل كل شيء".

عندها هززت رأسي بعدم الموافقة.

– آه ! إنه جبان. يجب تسخين دمه عندها سيتحدث.

في هذه اللحظة أمسكت بي يدان قويتان، ودون أن ألتقط أنفاسي ألقوا بي على الأرض.

– أحضروا القارورة سنسقي هذا الجرو، افتحوا فم هذا الخبيث.

أخذوا يسكبون الفودكا في فمي مباشرة، ولكي لا أختنق بالزجاجة المندفعة فى حلقي اضطررت أن أبلع الشراب اللعين. لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك. استيقظت في خيمة عسكرباي، وكانت زوجته تكرر كلمات شتم "القذرين، المجرمين".

بعد ذلك علمت أنه كان مُغمى على يومًا كاملاً، وعسكرباي يسقيني الحليب. والغريب أنه من ذلك الوقت، عندما أرى الفودكا لا ينتابني الغثيان، ولكني لا أشربها.

لكني لم أر أي شخص من قيادة الحزب لا يشرب، ولذلك فكرت في أن السلطة الجديدة ترحب بالشرب، لهذا السبب، فإنني في كل مرة كنت أستلم فيها مرتبي أشتري صندوق فودكا وأعزم القيادة، وبعد أن يثملوا ويتعبوا من الشراب يحتضنوننا أنا وزوجتي ويغادرون البيت سعداء، أنا أيضًا كنت سعيدًا، فقد ضمنت حياة هادئة آمنة. ولهذا السبب بالذات أستغرب أن السلطة الحالية تنادي الآن بالصحوة.

بعد فترة قصيرة مرض العجوز أسان ومات، وحضر مراسم الدفن كل أقاربه الكثيرين، وجيرانه وأصدقائه، وتم تقديم الفودكا ضيافة لهم فى مأتمه. حيث جلس الجميع على الطاولة يشربون وينظر بعضهم إلى بعض.

- قال أحدهم: "الله يطول أعمارنا مثله". وشربوا

- وقال الآخر: "موته عيد" وشربوا من جديد.

وقال الثالث: "إن شاء الله نموت ونحن في نعمة وارتياح مثله وأمامنا أبناؤنا وأحفادنا". وشربوا مجددًا.

- وقال آخر: "أخى، إنه لم يمت فقد خلف أولادًا" وشربوا من جديد.

- إن شاء الله لن يرى أحفاده الصعوبات التي عاشها هو. وشربوا من جديد.

- لتكن الأرض راحة له وطمأنينة.

- إنه سيدخل الجنة، فقد مات ليلة الجمعة. وشربوا من جديد.

وأنا أجلس أستمع لهذه التمنيات والوصف والمدح، وكأنني لست في مأتم، وإنما في عيد، وقام شخص آخر وكأنه يقرأ أفكاري قال: "في المرة القادمة سنجتمع هنا في عيد إن شاء الله". وشربوا من جديد. الوجوه حمراء من الشراب والضجيج و...

كأن الماضي قد عاد... وأرى كيف أن النشطاء دفنوا أسان في الأرض وأخذوا يسكبون الفودكا في فمه. لكن الفودكا تقف في فم الضحية المسكين، ويحاول أن يلفظها خارج فمه، لكن تمسك به الأيدي الحديدية لنشطاء الحزب الثمالى.

قانون المراعي

إن الشعب حكيم بالقدر المطلوب

لكتاتس

منذ طفولتي رسخ في ذهني معنى كلمة (أدب) بما تدل عليه من احترام، وأخلاق، وتعفف، وتقدير. كما كنت دائمًا أسمع تعبيرات مثل "طفل مهذب"، "احترام النساء"، الالتزام بالعادات" – هذه الكلمات وغيرها كانت على كل لسان وفي كل بيت.

لكن ما هو النقيض؟ علام يطلقون "عدم احترام الآخرين" و"انعدام الذوق" و"عدم التربية"؟ ما هي المعايير التى تطلق بها هذه الأسماء؟ ماذا يعني مخالفة العادات؟ ولم لا يعاقب القانون على ذلك؟

عندما طرحت هذا السؤال على العجوز بيسين قال:

– يا بني في وقتنا الحالي فقدت كلمة "أدب" المعنى الحقيقي لها، فما بالك بالعادات والتقاليد. في السابق كانت زوجة الابن لا تجرؤ على أن تنادي عمها باسمه، بل كانت تكنيه مثل "ذو اليد البيضاء"، "الكريم".. إلخ". هذا الاحترام كان يعتبر عاديًا غير مبالغ فيه. فما الذي بقي من هذه العادات في وقتنا الحاضر؟

– يا جدي الزمن يتغير، فليس هناك ما هو أبدي في هذا العالم، وكل من يأتي إلى هذا العالم يأتي معه بالجديد.

- نعم وهل أنا ضد ما تقول؟ بالطبع العالم متغير كالثياب التي نرتديها، وتتغير نظرات الناس للأشياء مع الزمان. لكن الاحترام والتقدير أشياء ضرورية للجميع وبنفس القدر وفي كل زمان ومكان، وهذا ما أتحدث عنه.

اقتنعت بكلمات العجوز، وفعلا في الأزمان والأوطان توجد قيم إنسانية ثابتة لا تتغير.

لكن مع حلول الزمن الجديد نحصل على مكتسبات غير موجودة من قبل. وتختفي بعض المفاهيم والقيم وتصبح لنا شيئًا منسيًا، فكيف نحدد الحد الفاصل بين ما نفقده وما يجب علينا الدفاع عنه والمطالبة به؟ وما الذي يناسبنا في الجديد وما الذي يجب علينا الفرار منه والابتعاد عنه؟

فكرت كثيرًا في هذا السؤال، وبشكل منفرد ووردت على ذهنى أجوبة كثيرة. لكنني لم أتمكن من أن أدرك الجوهر الحقيقي للإجابة حتى النهاية.

توجهت إلى الجد العجوز:

- أيها العجوز، أخبرني، كيف ينظر الناس للعادات؟ وما هي القوة التي أجبرتهم على الالتزام بها حتى أصبحت عادة؟

فكر العجوز طويلا وقال: "حسنا سأخبرك. لكن ستكون إجابتي

قصة حزينة. في الأزمان الخالية خالف الناس العادات أيضًا. (وهنا أبطأ العجوز ونظر إلي، وهو في حيرة من أمره هل يتحدث أم لا؟)، ثم سأل:

- "وأنت هل لديك عادات وتقاليد أم أنك سمعت هذه الكلمات من شخص ما"؟

- لدينا الأخلاق الشيوعية، فنحن ندرس حصصا في المدرسة مخصصة لموضوع الأخلاق الشيوعية. يبدو أن إجابتى لم تصل إلى العجوز، أو أننى تحدثت عن شيء آخر غير الذي يقصده.

- ماذا تقصد؟ هل تصرفات وتعاملات الشيوعيين الحالية هي أدب هذه الأيام؟

- نعم يا أبي، إن الشيوعيين هم الدعاة الحقيقيون للأخلاق السوفيتية، وهم أنفسهم يعتبرون مثالاً للجميع في ذلك.

- آه يا ولدي المسكين ! ربما في أماكن أخرى أو في السماء يوجد أولئك الذين تتحدث عنهم، ولكن كل من أعرفهم لا يمكن أن يدخلوا تحت مفهوم الأدب.

بدأت أتذكر نشطاء الحزب في القرية، رئيس المزرعة في قريتنا شيوعي وهو يستطيع أن يشرب لترين فودكا على فم واحد

وعندما يسكر لا يخرج من فمه إلا السباب والشتم لكل من حوله ولكل من يعرف.

مدير المدرسة لدينا أيضًا شيوعي، يعيش مع السيدة ماريا، ويقولون إنه طلق زوجته. آه، من بقي؟ نعم المهندس التقني أسان علي هو أيضًا شيوعي، وسيتم محاكمته لأنه خلط بين جيبه وجيب الحكومة.

إن العجوز على حق فليس لدينا في القرية شيوعيون مثاليون، لحظة، لحظة. المدرس جومارت. نعم هذا هو الإنسان الحقيقي، لكنه ليس شيوعيًا، في الأسبوع المنصرم سكر رئيس المزرعة في عرس ابنة كاوكين، وهجم على المدرس جومارت لكمًا وضربًا وهو يصرخ: "اذهب من أمامي فى هدوء. ولا تلمسني. أنا شيوعي لا تنس ذلك وإلا لن ترى خيرًا. هذه هي الصورة الموجودة لدينا في القرية".

من أكون أنا؟ مجرد طالب في معهد التربية. مطلوب منى كتابة بحث علمي عن "الأدب". أين يمكنني أن أبحث عن معلومات في هذا الموضوع سوى لدى كبار السن.

ها أنا أعذب العجوز بيسين محاولاً الحصول على المعلومات اللازمة لبحثي. كان هذا العجوز من قبل يقف على رأس مزارع القرية، وشارك في الحرب العالمية الثانية وهو أب لثمانية أبناء. خسارة أنه ليس شيوعيًا، لو كان شيوعيا لكان شيوعيا مثاليًا. لكن على الرغم من ذلك يبدو لي أني سأجد عنده بالذات المعلومات الضرورية لي.

جلست إلى جانبه وقلت: "يا جدي ساعدني. أنا أجمع معلومات عن الحياة القديمة".

- أخ، لا أدري هل ستنفع قصتي لتكون المعلومات التي تحتاج إليها أم لا؟ ولكن ليس أمامي خيار فأنت تصر على طلبك. هذه الحكاية رواها لي والدي، وهي عن العادات والتقاليد بالذات.

حدث ذلك عندما كان بوغمباي[1] قد توقف عن الغزو، لم يكن قد هرم في السن بعد، كان في الخمسينيات من عمره، لكن الشيب كان باديًا على شاربه ولحيته.

ظل بوغمباي بالنسبة للشعب هو نفسه بوغمباي، وذات مرة حدثت مشكلة. في فصل الربيع كان الناس يعتزمون الذهاب إلى الرعي الصيفي كعادتهم. لذلك فقد كان الجميع في سعادة وارتياح نفسي، وكان الشباب بالذات يمرح ويلعب في انتظار لقاءات سرية مع محبوباتهم في البراري البعيدة عن أعين أسرهم. كانت الألعاب المسلية المرحة في كل مكان. هذه كانت قوانين المراعي غير المكتوبة، والعادة التي غرست في نفوس وعقول الرعاة.

جلست أنال يك وحيدة وفكرت طويلاً. على الرغم من أن ابنها

(١) اسمه بوغمباي بن كوجيكي. بطل قازاقي من الفرع الأوسط لقبيلة القازاق، ولد سنة ١٧٠٠ وقيل ١٧٠٨ بمنطقة جان كلدي بمحافظة كوستاني، وحد قبائل قرقلبك ونوغاي وقازاق تحت زعامته ضد قبائل جنغار. توفي عام ١٧٥٩، وله مكانة كبيرة في نفوس الشعب القازاقي، وتدور حوله حكايات كثيرة. (نقلاً عن الموسوعة القازاقية).

أصغر من بوغمباي لكنه أعز عليها منه. لكن ربما لن يخطر ببال أحد أن ينازل القائد، أو يبدي له عدم احترام. ذلك سيكون مخالفة بشعة لنظام عاش قروناً ممتدة فى المراعي. وإذا حدث ذلك ستكون كارثة كبيرة، فالقبيلة التي تفقد عاداتها تفقد قوتها.

قال لها عمها: يا بنتي، بوغمباي سيظل بيننا، فتذكري أن مكانة الفارس عالية، فهو يحكم القبيلة وهذا ليس سهلاً، يجب أن يكون لديه قوة كبيرة، وفكر بارد، وحساب دقيق. قوة القبيلة هي صرامة وحنكة قائدها.

يجب أن يكتسب القائد ثقة الناس به ويغرس في نفوسهم احترام وتقدير إنجازاته ويحوز دعمهم، وإذا تم الإخلال بهذه العادات ستكون الكارثة.

قالت أنال يك: "عمي، إن العالم يتكون من النواقض، لكل شيء ما يقابله، الرجل والمرأة، الخيرين والشريرين، الاحترام وعدم الاحترام".

لكن العجوز أوقفها:

"يا بنتي إن ما تقولينه صحيح من الوهلة الأولى، وفي الواقع فإن الرجل والمرأة يكونان متناسبين فقط إذا كانت أرواحهما متقاربة، وإذا كانت المرأة تستطيع فعلاً تقدير الرجل. الخير والشر يمكن أن نقارن بينهما فقط عندما يكون جزء من الخير ذائبًا في الشر، والشر

في الخير، التقدير وعدم التربية لا يدخلان في مجال واحد، فعدم التربية هو نتيجة تخلف العقل، والتقدير هو تضامن العقل والقلب.

شعرت أنال يك بالمصيبة، ولكن ما يعذبها هو أنها لا تعرف كيف تشرح ما تشعر به للآخرين، وهي قلقة جدًا من التغير السريع الذي طرأ على ابنها، ويقلقها الظمأ الشديد لدى الفتاة للحياة. يقولون إن حياة مثل أولئك الناس المتعطشين لمتع الحياة تكون قصيرة. ذات مرة أرادت أن تتحدث عن ذلك مع بوغمباي، لكنها تراجعت عندما أدركت أنها لن تستطيع أن تشرح له شكوكها. وما دام الأمر كذلك، فإنه لا يجب شغل وقت فارس القبيلة دون ضرورة.

فكرت في نفسها ربما أن هذا من خرف السن وأنها قد شاخت وبدأ يعتريها وساوس المسنين. وتوجهت إلى الله بالدعاء، بالرحمة والعطف بها وأولادها، وتذكرت من جديد عمها الذي قال إنه توجد طريقة واحدة لمكافحة الطمع الزائد في الحياة - هو أن تتذكر أنك ضيف على هذه الدنيا، وأن تشكر الله وتحمده في صلاتك ليلاً ونهارًا على نعمة الحياة.

جمعت أنال يك قواها، واستقرت على ما ستفعله من أجل أسرتها. عندما يذهب الفرسان إلى المراعي ويكون ابنها بعيدا عن البيت، ستتصرف هي مع الفتاة.

لكن الإنسان يخطط والله يسير الأمور كما يشاء. الرحيل أمر

ليس بالسهل ويجب الاستعداد له طويلاً، فى العادة يترأس القافلة شخص قادر في حالة الخطر على إزالته وقطع الطريق أمام الأعداء، ظلت أنال يك في القرية، بينما ترأس القافلة بوغمباي، وهذه كانت العادة ولم يفكر أحد فى تغييرها؟ وكانت أنال يك أيضًا ترى أن هذا أمر سليم، فعلى الرغم من أنها كبيرة القوم، فإنها تظل امرأة، وفى العادة فإن حماية حياة القوم مسئولية الرجل.

لكن قبل الرحيل يجب وفقًا للعادة أن يطلب قائد القافلة من الأم أنال يك أن تبارك الرحيل، وبعد مراسم المباركة ومناقشة كل شيء تتحرك القافلة، ويا ويل من يخالف هذه العادات، فقد كان ذلك عملاً سيئا، يتم معاقبة مرتكبيه بصرامة.

جاء اليوم الذي رحل فيه بوغمباي في مقدمة القافلة، وكان البقية يستعدون للرحيل، ويحزمون الأشياء، ويجمعون الماشية، وطال الاستعداد للرحيل لأنه كان يجب انتظار ولادة إحدى إناث الماشية، لذلك تم التوقف ليلة كاملة. لهذا السبب فقد تم تقسيم القافلة إلى قسمين، رحلت مجموعة وأخذ الباقون ينتظرون دورهم في الحصول على المباركة بالرحيل من سيدة القبيلة. فجأة حصل شيء غير متوقع.

– هل سمعت، هذه الفضيحة؟ وما العمل الآن؟ ومن نتبع؟

– لم يخطر على بالي أبدًا أن يحدث مثل هذا.

– قال كبار القبيلة: "كل هذا بسبب هذه الساقطة؟ ليس هناك سبب آخر".

كان الشباب يجلسون على رأس هضبة ويتناقشون فيما بينهم.

- لقد خرف بوغمباي، لم يكن أحد يجرؤ من قبل على مجرد التفكير في مثل هذا.

- لقد خالف سيريكباي عادات الأجداد. وسنقع في مصيبة.

- ما الفائدة من الحديث في هذا الأمر، ولنبحث عن مخرج.

- سنرسل سارِيباي إلى بوغمباي للاعتذار.

- وسنرسل الرسل إلى أنال يك أيضًا، فلابد أن الشائعات قد وصلت إليها.

- ليكن كذلك. سنرسل إلى أمنا سيركباي وساريباي.

كان ساريباي ابن الأخ الأكبر لبوغمباي، وصديقًا حميمًا لسيريكباي، حيث كان يحبه كصديق، بصرف النظر عن العلاقات الأسرية، وكان ساريباي يتنازل عن كل شيء لسيريكباي. ويحترمه مع أنه كان يحظى باحترام الجميع ولديه نفوذه، فقد كان شجاعًا وجريئًا. وعلى الرغم من صغر سنه فإنه كان فارسًا.

هنا ارتكب سيريكباي خطأ كبيرا بحق بوغمباي وأحرجه عندما رحل بنفسه في اتجاه معاكس دون أن يأخذ رأي أحد، أو يعمل قيمة لإنسان.

لهذا السبب فإن نفس ساريباي الآن يكاد يتميز من الغيظ، فهو غاضب جدًا على ذلك الأحمق سيريكباي الذي فقد عقله بسبب العاهرة جولسوم.

كان واضحًا أنها هي من دفعه إلى هذه الخطوة، ولكن المسئولية ستقع عليه هو لأنه الرجل، من الصعب أن يوافق سيريكباي ببساطة على العودة، فهو ليس طفلاً ويدرك تمامًا ما فعل. ويمكن أن تسفك الدماء بين أبناء القبيلة الواحدة وهذا أبشع ما يمكن. أبلغ ساريباي وسيركباي الأم أنال يك عمّا حدث، فأجابت عليهم مباشرة:

على الرغم من أنه ابني، فإنني لا أستطيع أن أسامح بخطأ ارتكب ضد بوغمباي، فابحثوا عنه وعاقبوه كما يجب.

قال سارياي: سيريكباي يعرف أن هذا ذنب كبير، ولابد أنه مستعد لأي شيء. ولن يكون عقابه سهلا.

- افعلوا ما شئتم، ولكن اقضوا على العدو الذي ربيناه، فأرواح الأجداد لن تغفر لنا إذا لم ننتقم لشرف بوغمباي.

أنهت أنال يك كلامها وباركتهم. وقد لاحظت كيف تنفس ساريباي بحسرة وهو يدرك أنه سيضطر لرفع يده على أخيه. قالت أنال يك: "نفذوا واجبكم بأنفسكم ولا تُدخلوا أي شخص آخر فيه".

عندما وصل ساريباي وسيركباي في منتصف النهار إلى القرية

التي رحل إليها سيريكباي، خرجت جولسوم من الخيمة وتبسمت بخبث وقالت: "ترجلوا عن خيولكم وتفضلوا نطعمكم بما رزقنا الله".

فكر سارِيباي: "آه! بسبب مثل هذا الحب الشيطاني يفقد الناس عقولهم" وشعر كيف أنه هو أيضًا تائه فغضب على نفسه. وتقدم على فرسه إليها ورفعها عن الأرض بحركة سريعة قطع شعرها وعلقه على الخيمة وتركها جانبًا. وابتعد مع سيركباي إلى مسافة كافية عن القرية، وكان سيركباي لا يزال يأمل أن يدرك أخوه خطأه وأن ينتهي كل شيء بسلام، وفي أسوأ الأحوال ستعود جولسوم إلى صوابها وكان سارِيباي غاضبًا يكاد ينفجر من الحسرة، فقال سيركباي له: "إني أعرف أخي إذا غضب، لن يرحم أحدًا، وعندما يركب فرسه للقتال لا يستطيع أحد أن يثنيه ولن يقف أمامه شيء".

– فأجاب سارِيباي: "لقد خالف العهد، ومن يخالف العهد لا تنفعه أي أسلحة".

فجأة ظهر غبار من جهة القرية، فإذا بفارس يركب جوادًا أبيض يتجه نحوهم، وقد وجه إليهم القوس، فقام الاثنان بسرعة وركبا فرسيهما وأخرجا قوسيهما.

– صرخ سارِيباي: "انتظر يا سيريكباي ودعنا نتحدث" لكنه لم يسمع لهما وأطلق عليهما سهمًا كاد يصيب أحدهما لولا حنكته في تفاديه، فأخرج الأخوان بحركة واحدة قوسيهما وأطلقا سهمين في آن

واحد فأصابا هدفهما، توفي سيريكباي وهو يحضن فرسه وسقط بصعوبة إلى الأرض، أجلس الأخوان جولسوم على الفرس، وربطاها ووجهها إلى الخلف، وحملا جثة سيريكباي ووصلا إلى بوغمباي.

عرف بوغمباي بما حدث، وتنهد قائلاً:

- "لم يكن هناك داعٍ لهذا الغضب أو للانتقام. لقد كان سيريكباي من أتباعي المخلصين، وأنقذني مرات كثيرة في المعارك، يبدو أن ثقته خانته... ومع ذلك كان يجب إبلاغي بكل شيء".

عندها قالت أنال يك مهدئة من روع بوغمباي:

- "لقد خالف الأدب يا بوغمباي وهذه عادة قبيحة ومعدية كالوباء. إن القوى التي تجمع الناس هي العادات والتقاليد. ويجب علينا أن نفعل كل ما بوسعنا لكي يبقى الناس معًا".

بدأ العجوز يمسح لحيته ملمحًا بأن الحديث قد انتهى. وهو متأثر من قصته بنفس القدر الذي تأثرت أنا به، وكنت لا أزال أفكر ولم تفارق أفكاري المخطئ سيريكباي ولا القائد بوغيمباي القوي، ولا الأم التي بكت ابنها بدموع غزيرة، ولكنها مع ذلك ظلت قوية الروح، ولم يستطع أحد أن يخالف الأدب.

ربما ندم العجوز على أنه قص حكايته السرية على شاب صغير ربما فهم ما قصده حتى النهاية وربما لم يفهم شيئاً.

جلس العجوز فترة طويلة غارقًا في أفكاره يتذكر الأيام المجيدة. لكن فجأة علا صوت زوجته: "أيها الشيخ، الشاي جاهز". فقام العجوز وقال: "هيا إلى الطاولة".

هنا تخيلت وجه رئيس المزرعة الثامل وهو يهاجم المدرس جومارت. فكرت في نفسي وأنا أسير خلف العجوز: "مسكينة أنال يك، الله يحفظ قلب الأم الذي تملكينه".

الجزء الرابع

العقاب

أرخات

الآن.. أصبح جنكيز العجوز ممدًا دون حركة ليلاً ونهارًا، ربما لأن المرض قد تفاقم عليه أو أن التعب حل به. الله أعلم. لكن العجوز لم يعد مهتمًا بشيء ولا يعير اهتماما للأطفال والأقرباء الذين يقفون إلى جانب سريره كالمحنطين والذين طالما تمنوا وانتظروا موته، وقد ظهر الاستعجال واضحًا على وجوههم، وكأنهم يرجون الموت بالاستعجال، وألاّ يتأخر ولو قليلاً، هذا شيء عادي، وهل يمكن أن ننتظر من فصيلة الذئاب شيئًا آخر؟ قانون الذئاب صارم وليس فيه رحمة أو شفقة بالضعاف ولا تنتظر هنا النجاة.

لهذا السبب هم ينتظرون موت جنكيز، فهذه فرصة للسيطرة على السلطة. ولكن أحدًا لم يفكر كم من الدماء ستسفك، ومن منهم سيبقى حيًا ليحتفل بالنصر. لكنهم يفضلون عدم التفكير في هذا الآن، لأن أهم شيء الآن هو رؤية موت الذئب القوي المخيف جنكيزخان، وأن يروا بأعينهم كيف تخرج الروح من الجسد المنهك.

في البداية لم يكن جنكيز يعير اهتمامًا للمرض، ولم يكن حتى يتصور مجرد التصور أنه قد يموت، فقد تعود أن يتحكم بأرواح الناس وحياتهم، ولكنه لم يفكر إطلاقًا في أن ذلك يمكن أن يحدث معه هو

نفسه، ولكن ها هو جاء اليوم الذي يجد فيه جنكيزخان المخيف القوي نفسه وجهًا لوجه مع الموت، وهو الذي نشر الموت والدمار والرعب في نفوس العالم في كل مكان. فجأة شعر بالضعف، والعجز، والغضب فطرد الجميع: الأطباء والممرضين والزوار لأنه خاف منهم لأنه عاجز وضعيف بالمقارنة بهم. ويبدون له وكأنهم قطيع من الذئاب الضارية التي تنتظر الضحية لتشرب دمها، بل إن قطيع الذئاب أقل خطرًا من هؤلاء البشر الذين يقفون حول فراشه.

كان مصير الأطباء المساكين معلقًا على طرف شعرة، ومع مرور كل يوم يصبح خيط حياتهم أدق وأرهف من قبل ويجب أن ينقطع مع موت جنكيز خان العظيم. فعندما يتم إنزال جسد الخان إلى مثواه الأخير، يتم دفن كل الذين خدموه ورأوه ضعيفًا معه أحياء. يتم القيام بذلك من تصور أن الميت سيحتاج إلى من يخدمه في ذلك العالم من جهة، ومن جهة أخرى، لا يجب أن يشوه أي شخص ولو بكلمة واحدة المجد الأبدي لمن سيطر على العالم. ولا يجب أن يكون هناك نقاشات أو حتى مجرد تفكير في هذا. يجب أن يبقى الخان إلى الأزل مثالاً للمجد الخالد.

لهذا السبب فإن الطبيب، والطباخ والحراس – جميعهم يجب أن يدفنوا أحياء إلى جوار جنكيزخان يوم موته.

يجب أن تنتشر قصة موت جنكيزخان من أفواه أبنائه وأحفاده

فقط، وبالطريقة التى يقررونها هم فيما بعد والتى يرون أن فيها تدعيمًا لمجد أسرتهم، أما الآن فإن هم الجميع هو موت جنكيزخان.

يتمدد جنكيز في سكرات الموت. ومع ذلك يفكر بعمق، انتهت الحياة التي حددها الله له على هذه الأرض، وبدأ يرى أمام عينيه صورًا من حياته التي عاشها.

فما الذي لم يفعله ولم يقاسه منذ أن أصبح جنكيز لكي يجذب الفرسان والقادة إلى جانبه، حتى إنه خان شعبه وخان كل شعوب الأرض. ذاق الموت على يده المخلصون والخونة، المذنبون وغير المذنبين. كل من وقع تحت يده من قبيل الصدفة أيضًا ذاق الموت من سيف جنكيز خان. ومع ذلك لم يشبع أبدا من إراقة الدماء سواء الدماء الغريبة أو دماء أتباعه. كما لم يشبع من سلطته على الناس.

كان دومًا يعتقد أن الموت موجود فقط للناس الآخرين، أما الآن فقد وجد نفسه بين فكيه القويتين، لقد كان لدى أقاربه من جهة أمه قبيلة كونرات[1] مثل يقول: "يولد الموت مع الإنسان". لكنه حتى الآن لم يعر هذا المثل أية أهمية مع أنه كثيرًا ما سمع هذا المثل من أمه.

---

(١) تكونت قبيلة كونرات من دمج قبيلتين هما كونتشي وكوكتن أولـي، وجـاورت القبيلـة المغول في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ثم أصبحت القبيلة جـزءا مـن شعب القازاق في عام ١٩١٨ حيث احترفوا الرعي فى المنـاطق الجنوبيـة مـن بـلاد القازاق.

في هذه اللحظة تذكر كيف أن مايكيبي[١] المشهور عند موته رفع رأسه ليحيي جنكيز خان الذي جاء لزيارته، وقال بصوت ضعيف حاد: "يولد الموت مع الإنسان"، وأراد أن يضيف شيئًا ما، لكن لسانه عجز عن النطق، ولم يستطع إكمال فكرته.

ما الذي أراد مايكيي أن يقوله وهو بين الحياة والموت؟

مايكيبي، مايكيبي.. لا، لا إنه لم يخن شعبه. لم يخن أرضه. لكنه جمع في طبعه بين خبث الثعلب وقوة إرادة الذئب. لا، لا يجب تذكر مايكيبي هنا، فليس له دخل فيما جنكيز خان فيه الآن. فجأة تذكر جنكيز أتا[٢] المسماة باسمه. نعم هذا ما كان يبحث عنه.

وقفت أمام عينيه صورة العجوز الهندي النحيل. لم يكن ذلك شبحًا وإنما حقيقة. إنه الهندي القديم. رفع جنكيز خان رأسه لكي يقدم للهندي نفسه، لكن صورة العجوز اختفت. فكر جنكيز خان في نفسه "إنه المرض" وألقى برأسه الثقيل على الوسادة مرة أخرى.

إن العجوز الهندي بالطبع شبح، لأنه مات منذ زمن بعيد، وبليت عظامه في قبره، وهنا تذكر مقطعًا من الحياة كان قد نساه منذ القدم.

---

(١) حكيم وشاعر مشهور ينتمي للفرع الأكبر من قبيلة القازاق. عاش بين ١١٠٥ – ١٢٢٥ عمل مستشارًا لجنكيز خان وكان ذراعه اليمنى في فتوحاته الواسعة. وتتنازع الأعــراق في آسيا الوسطى الانتساب إلى مايكيبي، حيث يدعى كل من التتر، والأزبك، وباث قرت وقرقل بك، والقازاق أنه منهم.

(٢) (مجموعة جبال).

اتحد المغول ورفعوا تيموجين[1] على خيل أبيض وأعلنوه حاكمًا على القبيلة الذهبية، وسميت الجبال التي تم ذلك تحتها جبال جنكيز أتا. حينها أقام الحاكم السعيد حفلاً كبيرًا وفي نفس الوقت أصدر قرارًا:

---

(١) هو اسم جنكيزخان حين ولادته التي تعود إلي ما بين عامي ١١٦٢و ١١٦٧، وقد كان الابن البكر ليسوگيه Yesugei شيخ قبيله كياد Kiyad. وقد عُرف والد تيموجين بالشدة والبأس حيث كانت تخشاه القبائل الأخرى وقد سمي ابنه "تيموجين" بهذا الاسم تيمنًا بمولده في يوم انتصاره علي إحدى القبائل التي كان يتنازع معها، وتمكنه من القضاء على زعيمهم الذي كان يحمل هذا الاسم. ولم تطل الحياة بأبيه، فقد قتل على يد التتار المجاورين لهم في عام ١١٧٥ ميلادية، تاركا حملاً ثقيلاً ومسئولية جسيمة لـ "تيموجين" الابن الأكبر الذي كان غض الإهاب لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وما كان ليقوى على حمل تبعات قبيلة كبيرة مثل "كياد"، فانفض عنه حلفاء أبيه، وانصرف عنه الأنصار والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنه فرفضت الدخول في طاعته، على الرغم من كونه الوريث الشرعي لرئاسة قبيلته، والتفت حول زعيم آخر وفقدت أسرته الجاه والسلطان، وهامت في الأرض تعيش حياة قاسية، وتذوق مرارة الجوع والفقر والحرمان. نجحت أم تيموجين في أن تجمع الأسرة المستضعفة وتلم شعثها، وتحث أبناءها الأربعة على الصبر والكفاح، وتفتح لهم باب الأمل، وتبث فيهم العزم والإصرار، حتى صاروا شبابًا أقوياء، وبخاصة تيموجين الذي ظهرت عليه أمارات القيادة. ودخل في صراع مع الرافضين للانضواء تحت قيادته حسمه لصالحه في آخر الأمر حتى نجح في أن تدين قبيلته "قيات" كلها بالولاء له، وهو دون العشرين من عمره. وواصل تيموجين خطته في التوسع على حساب جيرانه، فبسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا، تمتد حتى صحراء جوبي حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم دخل في صراع مع حليفه رئيس قبيلة الكراييت، وكانت العلاقات قد ساءت بينهما بسبب الدسائس والوشايات، وتوجس "أونك خان" زعيم الكراييت من تنامي قوة تيموجين وازدياد نفوذه؛ فانقلب حلفاء الأمس إلي أعداء وخصوم، واحتكما إلى السيف، وكان الظفر في صالح تيموجين سنة (٦٠٠ هـ = ١٢٠٣م)، فاستولى على عاصمته "قره قورم" وجعلها قاعدة لملكه، وأصبح تيموجين بعد انتصاره أقوى شخصية مغولية، فنودي به خاقانا، وعُرف باسم "جنكيز خان"؛ أي إمبراطور العالم.

- "في اليوم الذي أصبحت فيه حـــاكمًا لا يحق لأحد أن يبكي، أو يجوع، أو يعرى".

تسابق الجميع لتنفيذ قرار تيموجين، ولم يستطع الشعب أن يفهم، هل هذه رحمة عظيمة، أم أنها عقاب صارم، ولكن خدم الحاكم القاسين نفذوا القرار بقسوة ليس لها مثيل.

أجبروا الناس على لبس ملابس كاملة، تم إطعام الناس بالقوة. منع الناس من البكاء. أجبروا على الضحك والقهقهة.

لكن شخصًا واحدًا فقط لم يستعجل تنفيذ قرار جنكيز خان. وعندما كان الخدم يقتربون منه لم يكن يحرك ساكنًا، ولا حتى يرفع رأسه ليرى من القادم. ظل جالسًا كما هو دون حركة.

صرخ فيه أحد الفرسان: "أيها العجوز، إنها رغبة العظيم جنكيز خان، أن يشبع الجائع، ويلبس العاري، ويسعد الحزين". وقذفوا له بملابس وطعام.

لكن العجوز لم يحرك ساكنًا، ولم يمد يده أو حتى عينه إلى ما قذفوا به إليه. كاد الخيالة ينصرفون على خيولهم من حيث جاءوا، لكن يبدو أنهم أرادوا أن يسمعوا كلمات الشكر فعادوا إلى العجوز وأحاطوا به. عندها فقط رفع العجوز رأسه، ورمق أولئك الذين أزعجوه بنظره.

نظر الفرسان من فوق صهوات خيولهم المضطربة إلى العجوز

الوغد الذى لا يحترم فروسيتهم ولا يشكر هدية عظيمهم. فكروا في أنفسهم كيف يعاقبونه. من السهل على أى منهم قتله بضربة واحدة. لكن لا يجوز أن نقتله هنا، فلا يجب إراقة أي دماء لمدة ثلاثة أيام حسب قرار العظيم جنكيز خان.

- أبلغوا جنكيز خان بأنه ليس بإمكانه أن يجعلني سعيدًا أو تعيسًا، ويداه ملطختان بدماء الضحايا الأبرياء، ليس عليه أن يفكر كيف يجعل الجميع سعداء، بل عليه أن يفكر كيف ينقذ روحه.

قال العجوز تلك الكلمات، ثم أغلق عينيه من جديد، وخفض رأسه، مبديًا أنه ليس لديه ما يضيفه.

أخبر الفرسان العظيم جنكيز خان بأمر العجوز وكلماته لهم. استغرب الخان كثيرًا، وقرر أن يقتل العجوز. نعم لابد أن يموت ذلك العجوز عقابا له على جرأته فى نطق هذه الكلمات عن سيد الأرض كلها. لابد أن يموت لكن بعد ثلاثة أيام. ليس فقط العجوز. لابد أن يموت الحراس الذين أبلغوا كلماته لجنكيز خان أيضًا حتى لا ينقلوا هذه الكلمات لأحد فيتجرأ عليه، بل لابد أن يموتوا حتى لا يرددوا هذه الكلمات فى أنفسهم فتقل هيبة الخان في أعينهم. نعم ذلك بعد ثلاثة أيام. أما الآن فلابد أن يرى جنكيز خان هذا العجوز الوقح. وعلى الفور أمر بإحضاره إليه.

حرك العجوز رأسه تحية للحاكم، لكنه لم ينحنِ أمامه كما كان

يفعل الجميع، تأمل جنكيز خان هذا المتجرئ الوقح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. رأى أمامه مجرد شبح إنسان هزيل هرم لا يميزه عن جثث الموتى اليابسة إلا ذلك النفس الواهن الذى يتردد فى صدره، ومع ذلك فقد كان هذا الشبح الهزيل يقف أمام الخان العظيم دون انحناء.

تمالك جنكيز خان نفسه مظهرا الحلم على وقاحة العجوز، ورفع يديه مشيرا للحراس بعدم التعرض له. ظل العجوز منتصبًا أمام الخان معتدل القامة. وأدرك جنكيز خان أن العجوز لن يبدأ بالكلام.

- لماذا ترفض الأكل والملابس التي تعرض عليك؟

- الطعام ضروري للحفاظ على الحياة، ولكي يعيش الإنسان على هذه الأرض فإنه يأكل، أما أنا فأتجه إلى عالم آخر لا أحتاج فيه للطعام. أفضل ما يمكن أن تقدمه لي أن تتركني فى شأني ولا تتعرض لي، لقد طالت سياحتى فى الأرض، وعدت إلى الوطن الأم لكي أموت في ترابه.

- هل يحق للإنسان أن يختار الأرض التي سيموت فيها؟ أعتقد أن الإنسان يموت في المكان الذي ستنتهي فيه حياته، ويلفظ عليه آخر أنفاسه دون اختيار.

- هذه عادة أولئك الذين هم على شاكلتك من الكافرين، أما أنا فقد وصلت إلى نهاية حياتى، وعدت لكي أموت على أرض الوطن. هذه هي عاداتنا، ولا يجوز مخالفتها حتى في الممات.

- عاداتكم؟! ومن تكون أنت أيها المسكين؟" قالها جنكيز خان بصوت بارد لا يعد بأي خير.

- يُسموننا الأزليين والطاهرين والمقدسين. وفي الهند يُسموننا الأراخيين. نحن آلهة. أنا إله.

ضحك جنكيز خان باستغراب وتهكم: "أنت إله؟ كما ضحك خدم جنكيز خان أيضًا باستغراب مجاملة لضحك خانهم العظيم. لكن جنكيز خان قطع ضحكاته الفجة فجأة.

- إذا كنت إلهًا فبرهن على ذلك؟

- نحن لا نبرهن لأحد على أننا آلهة. البرهنة هي اتهام للحقيقة بأنها غير واضحة أو أنها لا تكتفي بنفسها وتحتاج إلى غيرها. هذا تعدٍّ على الحقيقة. الحقيقة لا تحتاج إلى إثبات، فالنهار نهار والليل ليل، وهما لا يحتاجان إلى برهان ليثبتا ذلك.

كل من نضج ووصل إلى الحقيقة، يجب أن يكون أعلى من الإنسان، ولهذا السبب هم يسمون أنفسهم آلهة.

- ما الذي تهذي به أيها الأحمق؟ صرخ تيموجين غاضبًا.

- الإله هو القوة. القوي هو الإله. انظر إلى نفسك.

- أي إله أنت؟

- تخطئ يا تيموجين، فأنا أراقبك منذ زمن بعيد، أنت لم تعد إنسانًا، لقد أصبحت وحشا. الوحوش فقط هي من تريق دماء البشر.

لم يدر جنكيز كيف سحب الخنجر من غمده، وأراد أن يغمده فى صدر هذا الهزيل الوقح. لكنه تذكر أمره بالأمان لكل البشر لمدة ثلاثة أيام. وفقًا لأمره هذا لا يجب أن يبكي أحد في هذا اليوم ولا يجوع ولا يحزن، فأعاد الخنجر إلى مكانه.

- إيه، أيها المسكين، كيف نعرف بأنك إله؟ فأرنا ما تستطيع عمله.

- لا يمكن الحديث معك إلا بلغة واحدة.. لغة قوة الجسد، لأنه لا توجد لديك لغة العقل، لذا أنت لن تفهمني. فنحن مختلفان. ومع ذلك فإني مستعد لأن أبارزك بالقوة الجسمانية، أخرج لي أقوى فرسانك.

نظر جنكيز خان إلى العجوز الهزيل باستغراب. هل العجوز المسكين لديه عقل أم أن السنوات الطويلة التى مرت عليه سلبته عقله حتى يدعى هذا الادعاء، ثم قام جنكيز خان من فوق عرشه ونزل إلى أرض القاعة، واتجه نحو العجوز يصعد فيه النظرات، يريد أن يكتشف فيه أية علامة من علامات الجنون. فلم يجد شيئًا مما يستغرب من أمور الناس إلا إذا كان ضآلة الجسد وهزاله إمارة على الجنون. كان جنكيز خان ينظر إلى العجوز المنتصب أمامه دون وجل وكأنه يتساءل داخل نفسه. هل هذه حقيقة أم ربما أنا الذى أصبت بالجنون حتى أتخيل

أن إنسانا ما يستطيع أن يتحدث معي بهذه اللهجة ويطلب مبارزة أقوى الفرسان؟

قطع العجوز الصمت الذى خيم على القاعة وقال:

– ليخرج أقوى الفرسان، وليترك أسلحته. فأنا عجوز.

أومأ جنكيز خان برأسه إلى أتباعه المحتشدين فى طرف القاعة. وعلى الفور خرج فارس ضخم الجسم فارع الطول إلى وسط قاعة العرش الذهبية. رمي الفارس العجوز النحيل الهزيل بنظرة احتقار، معتبرًا منازلته له إهانة لفروسيته.

التقت عينا الفارس بعيني جنكيز خان، وأدرك أن التأخير في تأديب هذا العجوز الوقح الذى تجرأ على مقام الخان وسيد الأرض قد يكلفه حياته. اقترب الفارس من العجوز بخطوات واسعة واثقة من نفسه، ومد يديه إلى رقبة العجوز النحيل وأمسك بها. في نفس اللحظة وجد نفسه ملقى على الأرض. قام الفارس الغاضب وهجم على العجوز مرة أخرى ولكن بحنق وغيظ، لكنه سقط مرة ثانية، والعجوز واقف بمنظره الواثق والثابت كما كان منذ البداية. فرغ صبر جنكيز خان فصرخ على الفارس المهزوم:

إذا لم تقض عليه الآن ستفقد رأسك.

قال العجوز: قبل نهايتي لا أريد أن أحمل ذنب هذا الفارس

المسكين. هذا ليس من شيمتنا. لا أريد أن يموت المسكين بسببي. أنا سأموت الآن، فدعنى أموت بهدوء دون ذنب. أرجوك.

اشتعل غضب جنكيز خان من كلمات العجوز وكأنها زيت صب على النار المشتعلة فى قلب سيد الأرض. وقد نسي وعده بالأمان أو لم يعد الالتزام بذلك الوعد مجديًا بعد أن أصبحت مهابته مهددة فى قاعة عرشه وأمام أتباعه: فقال جنكيز خان:

لا، إما أن تقتله أو هو...

نظر العجوز الهزيل إلى الفارس الذي كان يقف والعرق يتصبب من كل مكان من جسده فى أسى وقال: "مسكين". وبدأ العجوز يقترب بخطواته الواهنة من الفارس المرتعد. وفي لحظة ارتفع صوت الموت فى القاعة، وسقط الفارس ميتًا على الأرض.

التف العجوز الهندي بنفس خطواته الواهنة الثابتة دون أن يقول كلمة واحدة وانصرف. وقد تصلب أتباع الخان وحراسه وخدمه فى أماكنهم من الدهشة. وتصلب جنكيز خان نفسه مما رأي. لم يوقف أحد العجوز الذى خرج من قاعة العرش.

– "يقولون إن هؤلاء الناس يستجمعون كل قواهم للموت على أرض الوطن. قطعت تلك الكلمات الصمت المطبق على القاعة. نطق بها أحد فرسان جنكيز خان من الذين لديهم معرفة بالتاريخ.

- "وإذا مات. من سيدفنه وهو وحيد؟" تساءل جنكيز خان.

أجابه الفارس نفسه: ليس من الضروري لهم أن يدفنوا في الأرض، فهم يعتبرون الموت فصل بين الروح والجسد. تصعد الروح إلى السماء. أما الجسد فلا قيمة له ولا يأبهون بمصيره.

هذا هو ما تذكره جنكيز خان عند مرضه، وفجأة شعر بخفة غريبة في كل جسمه. الحياة دائرة مغلقة يجب أن تنتهي حيث بدأت. إذن يجب أن ألفظ آخر أنفاسي عند جبال جنكيزتاو. هناك أصبحت حاكمًا. فلماذا لا أذهب إلى هناك؟ ربما ستعيد أرض الوطن إلي قوتي كما حدث مع العجوز الهندي؟

تحركت القافلة الملكية تجاه جبال جنكيزتاو. توقف تيموجين الذى يصارع الموت عند أحد الجبال الصخرية وقد شعر فجأة بالقوة والنشاط يدب فى جسده المحتضر. تساءل الخان: أي الجبال هذه؟ فأجابوه: "إنها جبال أرخات".

- ردد جنكيزخان في نفسه: أرخات، أرخات.

ظهر أمامه من جديد جسد العجوز الهندي الناحل، وعندما وصلت قافلة جنكيز خان أخيرًا إلى أسفل جبال جنكيزتاو لم يعد حينها تيموجين أو جنكيز خان من الأحياء، فقد خرجت الروح من الجسد الذي كان يومًا ما جسد سيد الأرض.

الحفيد الخامس أو العقاب

تذكروا أنني سنوات عديدة أكافح من أجل

تحديد مفهوم دور المرأة في العالم

لوي أرجون

كان كريز آخر قياصرة مملكة الليدي، فقد تحول إلى أسطورة وهو ما يزال حيًا، في عام ٥٤٦ قبل الميلاد دُمر جيشه بالكامل من قبل قوات القيصر الفارسي كير الثاني بينما تم أسره هو حيًا، وبذلك اختفت من على الخارطة مملكة الليدي بموت قيصرها...

لقد كان سفك الدماء والعراك بالنسبة للقيصر كريز أمرًا اعتياديًا فهو من الممارسات اليومية له. لذلك لم يكن لديه أي شك في أنه سينتصر على هذا الفارسي البربري.

لكن الخوف تسلل إلى نفسه لسبب ما، والرؤيا التي رآها حديثًا ضاعفت من هذا الخوف، فعادة كان يرى النصر على العدو قبل أن

يدخل أية معركة. كان يرى نفسه فى الحلم قويًا شجاعًا. لكن الرؤي الأخيرة أقلقته، فقد رأى نفسه وكأنه يمسك رأسه بيده ويديرها في هذا الاتجاه وفي ذلك الاتجاه، وكأنه لا يصدق كيف أن هذه الرأس استطاعت أن تحكم مملكة الليدي كل هذا الوقت.

- هذه ليست رأسك.

قالها فجأة شخص ما. فأخذ ينظر إلى الرأس التى بين يديه. حقًا. إنه لا يمسك برأسه هو، بل برأس رئيس الحرس.

أخذ القيصر كريز ينظر يمينًا وشمالاً محاولاً أن يرى من وضع له الرأس الغريبة في يديه، وهو يصرخ من الغضب. استيقظ كريز على صرخاته المترددة فى حلقه.

كان من عادات القيصر أن يستدعي مفسري الأحلام إليه يفسرون له ما رآه. لكنه في هذه المرة لم يشأ أن يطلع أحدا على رؤياه. فأسرها فى نفسه وفسرها هو كما يشاء.

أرسل القيصر كريز قائد الحرس إلى أماكن مختلفة بعيدا عن القصر لأتفه الأسباب التى لا تستحق أن يرسل إليها قائد الحرس شخصيًا. لكن الخوف والشك ما زالا يعيشان في روح القيصر رغم بعد قائد الحرس عنه. بدأ القيصر يتذكر بعض الأشياء من طفولته، ما الذى جعل هذه الأحداث تطفو إلى ذاكرته من جديد؟ هل لها صلة بما

رأى في المنام؟

لبس كريز ملابس الحرب القيصرية. وأمر الحارس أن يحضر خيلون مفسر الأحلام. عندما نظر الحارس فى وجه القيصر وهو يوجه له الأمر ابيض شعر الحارس من الخوف. كانت عيون القيصر كريز مليئة بالدم ومخيفة وكأنها عين ميتة لا حياة فيها.

دخل خيلون العجوز بقامته الطويلة والنحيلة ولحيته الطويلة البيضاء إلى غرفة القيصر. لم ينحن مفسر الأحلام عند دخوله على القيصر كما يقتضى الأدب فى الدخول على الملوك. لاحظ القيصر كريز ذلك. وقال في نفسه "أيها المجنون لقد انتهت حياتك".

"لم يبق لك أيها القيصر العظيم ولي ولحارسك الأمين في هذه الحياة إلا ساعات معدودة". قال خيلون وكأنه قد فهم ما يفكر به كريز. ثم أكمل: أما في العالم الآخر فإننا سنكون سواسية.

لكن بقي لي عمل واحد يجب أن أنجزه.

لم يكن أحد يجرؤ على أن يخاطب القيصر كريز بهذا الشكل، فاعتقد القيصر أن العجوز قد فقد عقله فمرح القيصر فجأة بعد عبوس، ورفع حاجبيه وأطال في لفظ كلماته:

- أجب عن ثلاثة أسئلة أيها العجوز:

أولاً: لماذا يجب أن نموت في نفس الوقت؟

ثانيًا: ما العمل الذي يجب أن تنهيه؟

وثالثًا: إذا كنا سنموت جميعًا، على الأقل أخبرني من سيموت منا أولاً؟

- اسمح لي أن أبدأ بالإجابة عن السؤال الثالث.

- هو من سيموت أولا. وأشار خيلون إلى الحارس.

- ممكن.

أدار القيصر كريز وجهه نحو الحارس بسرعة ونظر إليه، ووقف الحارس مذهولاً بين الحياة والموت من شدة الخوف.

- لماذا يجب أن يموت؟ ما ذنبه؟

- ليقل هو نفسه ذلك.

في هذه اللحظة قفز الحارس على العجوز بخطوة واحدة وأخذ يخنقه. لم يحاول العجوز الضعيف الهزيل أن يقاوم الحارس الذي أخذ يخنقه بكل قوة. لم يتحمل القيصر كريز وقاحة حارسه الذى يتعدى على إنسان فى غرفة القيصر دون إذنه، فأخرج سيفه وضرب الحارس على ظهره. على جاء الخدم ورشوا الماء على وجه الحكيم العجوز الذي استيقظ، وأشار بيده نحو الحارس متسائلاً: هل ما زال حيًا؟

- نعم أيها العجوز لقد كنت على حق حينما قلت إنه سيموت. يا له من ضعيف جبان.

- ليس ضعيفا يا كريز وإنما خائن. فتشه، فلديه في الجيب الداخلي علامة تدل على أنه من رجال كير.

بمجرد أن ذكر الحكيم خيلون اسم الخصم الفارسي اللدود، حتى قفز القيصر كريز من مكانه وفتش الجسد الملقى على أرض الغرفة القيصرية. فعلاً وجد في الجيب الداخلي للحارس عملة مالية عليها صورة كير.

تم سحب جسد الخائن إلى الخارج.

- حسن أجب الآن على السؤال الثاني. (كان كل شيء يدل على أن كريز تغلب على غضبه من خيلون ولكن بصعوبة بالغة).

- حسنًا، سأجيب. التدمير، القتل، الإفناء طبع القياصرة، وإذا استمر هذا لن تبقى روح حية على وجه الأرض. وليس من تسلط القياصرة والملوك أية منفعة للناس.

- كريز. لم يكن هناك قيصر من قبل على الأرض إلا وفكر في نفسه فقط. لقد مات ولداي في الحرب. كان ولدى الكبير متزوجًا وماتت زوجته أثناء الولادة تاركة بنتين توأمتين. الحمد لله فالبنات ضروريات لمواصلة النسل أكثر من الأولاد. ومن يفكر في المستقبل يجب أن يهتم بالفتيات. هدفي في الحياة تربية حفيدتي، ولكني أغادر هذا العالم دون أن أكمل مهمتي، وأنا خائف جدًا على حياتهما، قلبي يؤلمني لأنه لن يكون هناك من يدافع عنهما.

– لماذا تستعجل الموت قبل موعده أيها العجوز. لقد أنقذت حياتي من الخائن. ومكنتني من الحياة حتى أقضي على عدوي. مقابل هذا تستحق المكافأة، وليس القتل. سوف أعطيك وزن رأس الفرس ذهبًا.

– يبدو لي أنه لن يكون لي حتى ضريح أضع فيه قطعة ذهب. فلا تنس أنه لا تزال هناك إجابة السؤال الأول.

انتعش كريز بلهفة: "نعم، نعم، هيا قل جوابك".

– أنت على حافة الموت، سيهجم الأعداء غدًا كالسيل الهادر على بلادك. لن يبقى في البلاد حجرٌ على حجر. لن يبقى منك أنت شيء. لن يبق أحد من شعبك. محكوم عليك أن تبقى في التاريخ شبحًا. غدًا ستكون أسير الفرس.

– الآن جاءت نهايتك في هذا العالم أيها العجوز المجنون. لكنك ستموت بفخر وسيكون هذا أغلى موت عرفه إنسان. سوف آمر أن يصب الذهب المذاب في حلقك.

أخذ كريز يدور في الغرفة. وهو يردد:

أنا كريز لم ولن ينتصر عليْ أحد فمن يكون الفارسي المتخلف البربري كي ينازلني! ليس في العالم قوة تضاهي قوتي أنا القيصر ابن القياصرة، لا يوجد أحد يستطيع أن يقف في وجهى.

- كيريز سيحطمك. أنت لست من أصل قيصري. جدك الخامس كان رئيسًا لحرس القصر. لهذا فإن قلبك جبان. وأنت نفسك تتجمد أمامي من الخوف. لدى الإسكافيين مثل يقول: "مع أن الحسن يولد من السيئ، لكن لا يتخلص من أصله أبدا". لن تفر من القدر.

نفد صبر القيصر، ولم يستطع أن يسمع أكثر من ذلك، فأمر بأن يصب الذهب المذاب في حلق خيلون. ثم أمر بقطع لسان كل من حضر هذا الموقف حتى لا تنتشر الكلمات التى قالها خيلون.

تمت الجريمة دون رقابة وفي خفية من عيون البشر. بقيت حفيدتا خيلون وحيدتين في هذا العالم. سنتوقف نحن عند الأحداث التي لم يسعف الوقت خيلون أن يذكرها للقيصر الذي أجهز عليه.

أبطال القصة ثلاثة: كندافل القيصر، وزوجته الجميلة، ورئيس حرس القصر جيجس. على الرغم من أن ما حدث يخص ثلاثة فقط فإن الأمر أكثر تعقيدًا مما يبدو عليه. حدث ذلك منذ ألفي عام مضت. حقا مر الكثير من الأحداث منذ ذلك الحين حتى الآن، وحلت أجيال بشرية متلاحقة محل الأجيال السابقة. لكن الجوهر البشري لا يتغير.

تعلمنا فى المدرسة أن الشخصيات المنفردة لا تمنح التاريخ. صانع التاريخ هو الشعب. لكن ما علمنا أحد شيئًا عن دور المرأة في صناعة التاريخ؟

منذ ألفي سنة، قام القيصر كندافل من نومه سعيدا منشرح

النفس، وبعد الإفطار قرر أنْ يقاسم شخصًا ما السعادة التي تمتلئ بها نفسه قبل أن يباشر شؤون الدولة. لقد أرهقته الالتزامات اليومية للحكم، والزيارات غير المنتهية والأعمال الكثيرة. وكان كثيرا ما يفكر دومًا أن يأخذ زوجته الحبيبة وينفرد بها في مكان ما بعيدًا عن كل الناس، وأن يترك التاج والعرش والسلطة، ويعيش حياته لنفسه ولزوجته هانئا.

حصل كندافل على التاج بالوراثة من آبائه وأجداده دون صراع مع أحد، ودون أن يصل إليه بمعارك وسفك دماء ومؤامرات. لذا لم يكن كندافل مشغولاً كثيرا بالتاج والقيصرية أو حريصا على أن يظل في السلطة أبد الآبدين. كان كندافل يسمح لنفسه أحيانًا بتصرفات لا تليق بمركزه القيصري العظيم. وهذا ما حدث له اليوم، فقد خلقت في رأسه فكرة راحت تلح عليه ليرضي بها غروره.

لو أن الإنسان يستطيع أحيانًا أن يتوقع نتائج تصرفاته غير المسئولة، لما كان في هذه الأرض كل هذه الأحزان والمصائب. إن الإنسان عدو نفسه. كم من الحكام المغرورين بملكهم وسلطانهم وثرواتهم يصدرون القرارات دون تفكير، ويعلم الله كم من الناس الأبرياء فقدوا رءوسهم بسبب ذلك. ذلك شأن الحكام دائما في كل مكان وزمان، وذلك شأن كندافل أيضًا. فأثناء فترة حكمه، لم يكن الشعب راضيًا عن التصرفات غير السليمة للقيصر خلال سنوات حكمه الطويلة.

في ذلك الصباح كان الصيني الضعيف المعروف بمهارته كالعادة يدلك جسد كندافل ليسير فيه الدم المتجمد في جسد القيصر من فرط الراحة وكثرة الخدم من حوله الذين يلبون له أية إشارة. كان القيصر ممددًا على قطعة من الصوف الفاخر الناعم، وحوله كل أسباب النعيم والسعادة. فجأة خطرت على باله فكرة جهنمية. قال القيصر للخادم:

- استدعِ جيجس.

قالها بينما يحاول أن يتذكر كل تفاصيل الليلة السابقة وبكل دقة. بالأمس قبل أن يبدأ بالمعاشرة الجنسية، قام بنفسه بخلع ملابس زوجته من الرأس حتى أخمص القدم، فعل ذلك وهو يتأمل جسدها نقطة نقطة، ويمسح بيده على خصرها النحيل ونهديها النافضين. وردفيها المكتنزين أنوثة. أخذت زوجته الشابة الجميلة تتنهد ويداه تمسح جسدها البض، وأخذت تتقرب إليه بكل جسدها. لكنه ما بدأ المعاشرة بعد. تعبت الزوجة من تأخر زوجها عنها. وألقت بجسدها على السرير الوثير البارد كي تبرد من لوعتها وحرارة جسدها. لكن كندافل ظل على حاله يتأمل جسدها الرائع معجبًا بجمال زوجته. شيء واحد كان يقلل من سعادة القيصر. لا أحد من الناس يعرف كم من الجمال يملك القيصر فى غرفة نومه. فما رأى أحد ما يراه هو.

ها هو القيصر يستدعي جيجس لكي يخبره بما يملك من جمال.

كان جيجس خادمًا مخلصًا للقيصر مطيعًا له. وكان كندافل يثق به كثيرًا، فقد تربى جيجس في القصر، وكان يعرفه كل خفايا القصر وأسراره ومخابئه. رغم أنه كثيرًا ما شارك في الكثير من الأعمال السيئة. لقد قتل جيجس أخاه الأكبر بيديه لأنه كان صديقًا مقربا للقيصر أكثر منه. وكان يحظى بثقته المطلقة، وقد أزال أخاه من طريقه بيد ثابتة وقلب ميت حتى يخلو له الجو لكي يتمتع بثقة القيصر ويكون يده اليمنى.

لم تكن زوجة القيصر راضية عن العلاقة الحميمة لزوجها مع الخدم، كانت تعتقد – وربما كانت على حق – أن على الكلب أن يكتفي بالعظم ولا داعي أن تعوده على اللحم. لكنها رأت أن زوجها لا يشاركها وجهة نظرها تلك تجاه الخدم ففضلت الصمت.

جيجس نفسه لم يكن راضيًا تمامًا عن ميول القيصر إليه، فلأنه يعرف كل قوانين القصر فهو في خطر محدق. فمعرفة أسرار كندافل وكل خباياه كان يعني في الواقع وضع الرأس على حد السيف. لذلك كان جيجس يعلم أن حياته وحياة أقاربه في يد كندافل وهي ليست هناك في أمان.

لم يكن يعرف أسرار القيصر إلا القليل من الناس، وكان موت أو اختفاء هؤلاء العارفين أمرا اعتياديًا. لذلك فإن جيجس عندما علم أن القيصر يريد منه أن يحضر إليه في مضجعه ارتعش من الخوف، ولم

يتمكن لفترة طويلة من أن يوقف الرعشة في يديه السمينتين، وأخيرًا تمالك نفسه، واعتدل على قدميه، وتوجه إلى مضجع القيصر.إذا نظرنا إلى الكيفية التي يسير بها جيجس يمكننا الاعتقاد بأنه ثمل من الشراب.

وقف جيجس عند الباب وانحنى تحية للقيصر العظيم. أشار كندافل بيده لجيجس بأن يجلس إلى جواره. وأشار إلى الصيني الذي انحنى وانصرف مغلقًا الباب خلفه.

- جيجس هل تصدق أن زوجتي هي أجمل امراة في العالم؟

لم يفهم جيجس شيئًا لكنه قال:

- بالطبع يا صاحب العظمة، ليس هناك مثيل لمولاتنا الملكة في هذا العالم أجمع.

- لا، أنت تقول هذا كي ترضيني. أنت لم ترها عارية. جيجس هل تريد أن تتأكد من جمالها؟

- يا صاحب العظمة، كيف يمكن ذلك؟ لا يجوز أن يرى الملكة في ذلك الوضع إلا عظمتكم وعظمتكم فقط. قالها وقد قفز من مكانه كالفزع.

- ها أنت تؤكد كلامي فلم ير جمالها الحقيقي أحد غيري. يجب عرض الجمال لآخر وعندها سيكون الحكم صادقا. ليس من سمع كمن رأى. يجب أن تراها عارية حتى يكون حكمك على جمالها صادقا.

فقد جيجس وعيه من الرعب، وتصبب جسده عرقًا باردًا، وأخذ قلبه يدق في صدره كالأرنب المذعور يشم رائحة موته. إن رؤية الملكة عارية هو أمر بالإعدام.

كان جيجس يدرك أنه سيموت عاجلاً أم آجلاً، ويبدو أن ساعة موته قد حانت الآن، وهذا يعني أن القيصر قرر أن يلعب معه لعبة القط مع الفأر. ما الذي يمكن أن يكون أكثر رعبًا لخادم من أن يرى ملكته عارية. بالطبع لن يستطيع أن يكفر عن ذنبه هذا إلا بدمه. هذه هي نهاية الصداقة مع القيصر.

لم يكن أحد يتصور أن رغبة القيصر الغريبة هذه ستكون بداية لتغيير الأحداث التي ذكرناها سابقًا.

قال جيجس بصوت يرتعش: "يا صاحب الفخامة، لم يكن لأذني المخلصة لعظمتكم أن تسمع مثل هذا الحديث، تفضلوا بالتراجع عن كلامكم. وإذا أردتم جلالتكم أن يعاقبني، فليختر مولاي نوعا آخر من العقاب!

– أيها الجبان، لم أفكر في عقابك، على العكس أريد أن أريك الملكة وهي عارية، لكي تعرف أيها الغبي كيف يجب أن يكون الجمال الحقيقي.

– يا صاحب العظمة ليس هناك من يشك ولو للحظة في أن ملكتنا المبجلة أجمل امرأة في العالم على الإطلاق. ارحموني فأنا لا

أستطيع أن أخالف عادات الآباء والأجداد. لا يجوز أن يرى جسم المرأة غير زوجها. فارحموني وأنقذوني من الجريمة والخطأ.

نزل جيجس إلى قدمي كندافل يتوسل إليه، لكن كل توسلاته ذهبت هباء، فقد أصر القيصر على رأيه الشاذ، ولم يكن أمام جيجس سوى الخضوع له، شرح كندافل لخادمه خطته بتمعن ولفترة طويلة. لكن لم يدخل منها إلى ذهن جيجس سوى عبارات متقطعة؛ لقد فهم منها ما يأتي:

يجب أن يدخل جيجس غرفة النوم ويختبئ، ستدخل المرأة ستبدأ بخلع ملابسها أمام المرآة ووضعها على الكرسي، عندها سيراها جيجس عارية من رأسها حتى أخمص القدم. عندما تتجه الملكة العارية نحو السرير كان على جيجس أن يخرج من غرفة النوم بهدوء، ودون أن يشعر به أحد.

ربت القيصر السعيد بخطته المحكمة على ظهر جيجس، وودعه حتى يحل موعد تنفيذها في المساء. انحنى رئيس الحرس وانصرف.

في المساء وقبل دخول الزوجة اختفى جيجس خلف باب غرفة النوم، وبعد فترة قصيرة دخلت الملكة بخطواتها الهادئة إلى غرفة النوم. بدأت الملكة تخلع ثيابها ببطء. عندما انتهت جلالتها من خلع ملابسها أخذت تلعب بنهديها بتلذذ، كانت ترفعهما وتخفضهما.

هذا المنظر جعل نفس جيجس يتوقف، وقد اندفع الدم في

عروقه، وارتعش جسده من الرغبة في الأنثى العارية المتحرقة أمامه. لكنه سرعان ما تذكر أن حياته معلقة على حد السيف، فهدأت رغبته في ذات اللحظة.

كانت المرأة قد لاحظت رئيس الحرس عند دخولها الغرفة مباشرة، فقد لفتت انتباهها الروائح الغريبة في غرفة نومها. وبنظرة سريعة خاطفة رأت الرجل الذي يقف خلف الباب وعرفته. أدركت الزوجة اللعبة الغبية التي يقوم بها زوجها المغرور الغبي. وانتعشت في نفسها رغبة الانتقام من ذلك الزوج الشاذ. كان في داخلها غضب جم لتصرف زوجها الأحمق، لم تظهر له أنها رأت شيئًا في هذه الليلة جامعت الملكة زوجها بكل ما أوتيت من قوة وكما لم تفعل من قبل.

في الصباح استعدت الملكة عبر خدمها المخلصين رئيس الحرس جيجس. عندما دخل رئيس الحرس وانحنى أمام الملكة قالت له:

- "أمامك خياران، فاختر منهما ما تراه لنفسك. إما أن تقتل القيصر وتتزوجني، وتصبح أنت القيصر الحاكم على كل البلاد. أو آمر بأن يُقطع جسدك إربًا وأنت تعرف ذنبك. يجب أن يموت أحدكما؛ القيصر الشاذ الذي أجبرك على القيام بذلك، أو أنت لأنك اعتديت على عادات وتقاليد شعبنا وبلادنا".

وقف جيجس بين الموت والحياة. هو يعلم أن للملكة سلطة

جبارة في القصر، وأن كلمتها لا تردّ كائنًا ما كانت. ويعلم أنها غاضبة مما حدث. ويعلم أن ما حدث ليلة البارحة كانت القشة التي قسمت ظهر البعير والقطرة التي ملأت كوب الصبر الأنثوي على الزوج الأحمق. وغير ذلك أيضًا. كان الجميع في القصر يعرف أن الملكة تقترب شيئًا فشيئًا من تاج الحكم، وأن كلمتها تنفذ ككلمة القيصر أو ربما أكثر. فقد ترك القيصر لزوجته مقاليد الحكم وشئون الدولة. وكلماتها هذه تأتي لتؤكد لجيجس ذلك. لم يكن جيجس مستعدًا لأن يهب حياته لكندافل. قال وهو مرعوب:

- سمعًا وطاعة لما تريدين. مريني وسأنفذ.

عندما نام القيصر، أعطت الملكة لجيجس خنجر القيصر ذا المقبض الذهبي فاقترب من القيصر النائم، ووقف يفكر بعمق. ربما تذكر كيف أنه من قبل وبنفس الطريقة قطع عنق أخيه من أجل صداقة هذا الأحمق. وربما فكر بالحماقة التي تقود قيصرًا يملك الدنيا إلى مثل هذه النهاية. لكن في هذه اللحظة لاحظت المرأة التردد في وجهه، فأخرجت خنجرها الصغير وأشارت به على صدره هو.

ارتعب رئيس الحرس من إشارة الملكة. وفي نفس اللحظة غرس خنجره في قلب القيصر الغافل. لكن هذا لم يكفه، ففصل رأسه عن جسده بحركة سريعة حاذقة، ووضع الرأس المقطوع تحت قدم المرأة. عندها فقط أزالت الملكة خنجرها.

نظرت الملكة إلى رأس القيصر باحتقار، وانحنت محييةً زوجها وقيصرها الجديد.

- لدي أيضًا هدية لك بمناسبة الزواج. ومدت يدها إلى الحقيبة المعلقة على الحائط، وأخذت تخرج منها لسانًا وآذانًا مقطعة وفي الأذنين قرط.

عرف جيجس اللسان والأذنين. أدرك أن زوجته لم تعد على قيد الحياة، وفهم أن الملكة قررت أن تكون زوجته الوحيدة. شعر جيجس بأنه قشة في تيار الحياة الهادر. لم يدر كيف يتخلص من شعور العجز الذي أحس به حينما رأى أشلاء زوجته. رفع الملكة بحركة واحدة، وقذف بها على السرير، وركل برجليه رأس القيصر المقتول بعيدًا وهي ما زالت تنز دمًا.

أرادت الملكة أن تقول لزوجها الجديد شيئًا. لكن جيجس هجم عليها، وأخذ يقطع ملابسها بدلا من أن يخلعها عنها. وشد الملكة تحته، ولم يسمع منها سوى "يا صاحب العظمة". بعدها لم تستطع الملكة أن تقول شيئًا آخر.

تحققت رؤيا خيلون، وها هو القيصر كريز معلق فوق شجرة يحترق تحتها الحطب المتراكم، هذه هي أوامر كير الثاني.... أن يحرق قيصر الليدي حيًا.

تجمع جميع الشعب كي يشاهد المنظر. كان المتجمعون من

الفرس ومن شعب الليدي.

لم يكف كريز عن توسلاته. كان يتوسل من أجل شيء واحد فقط: أن ينتهي كل شيء بسرعة، وأن يموت قبل أن يظهر ضعفه أمام الجموع. هذا هو الشيء الوحيد الذي في سلطته الآن.

تذكر كريز العجوز خيلون. نعم لقد كان المنجم العجوز على حق. فقد كان كريز آخر الحكام من أصله، حيث سيقضي الفرس على جميع الأسرة؛ فهذه هي عادتهم. لن يكون هناك من ينتقم لي وتذكر... لقد حكمت البلاد ٥٧ عامًا، وحكم أبي ساديت ١٢ عامًا وحكم جدي أرديس ٤٩ عامًا، وحكم جدي جيجس ٣٨ عامًا.

كان كريز يعلم أن جيجس كان أول القياصرة من أصله، فقد أخبره المنجم بذلك. وجاء عقاب جيجس في كريز.

يجب على جيجس أن يدفع ثمن إراقة الدماء من دم أحفاده في الجيل الخامس. هذه هي النبوءة. وإلا كيف يمكن شرح هزيمة الليديين أمام الفرس. لقد كانت قوى الفريقين متساوية، إلا أن كريز لم تكفه الشجاعة لكي يتخذ القرار. فهو ليس من أصل قيصري، وإنما هو من نسل خادم وضيع، والخوف الذي يملأ نفسه قبل المعركة هو خوف العبد الذي ورثه عن جده الأكبر. أخذ كريز يكرر في نفسه: القدر، القدر.

بدأت النيران تشتعل تحت الشجرة، وتلف جسد كريز. جمع كل

قواه المتبقية، ورفع رأسه، ونظر إلى أعدائه.

فاحت على الجموع المتجمعة لمشاهدة نهاية القيصر رائحة اللحم المشوي. وفي تلك اللحظة تغطى جسد كريز بالنار الملتهبة.

علم الانتقام

اشتياقًا للصديق ورغبة في تزويده بمياه بحيرة آلاكول الطبية، وصل في يوم ما كل من تورسونباي وبولات وميرغين دون سابق إنذار إلى زميلهم السابق في الجامعة حسن خان. احتار حسن خان من سعادته أين يجلس ضيوفه الأعزاء، وكيف يرحب بهم، بدأت الأسئلة والتذكار "هل تذكر، هل تعرف..."

لكن حسن خان لاحظ أن شيئًا غريبًا يحدث بين الزملاء، فهم يتحدثون عن شيء ما فجأة، يتناقشون بحدة، ويقنع بعضهم بعضًا، لكنهم لا يصلون إلى اتفاق. في البداية لم يعر اهتمامًا لنقاشاتهم، لكنه بالتدريج بدأ يدخل في هذا النقاش. فمثلاً استمر النقاش الآن لمدة ساعتين، كم من الكلمات والأفكار الرائعة التى خرجت من أعماق قلوب الأصدقاء، وكان الحديث الذي يبدأ من ملاحظة بسيطة يمتد بين الأصدقاء ويتحول إلى نقاش طويل.

صب حسن خان الزيت في النار، فبمجرد أن بدأ الضيوف يتحدثون عن ستالين حتى قال صاحب البيت: "اتركوا ستالين في حاله، فما الذنب الذي ارتكبه بحقكم؟ فلولاه لكنا الآن جميعًا تحت أقدام الفاشيين".

هكذا كان حسن خان يصمت طويلاً ثم ينطق بشيء لا يتصور أحد أن يسمعه. قال تورسنباي بغضب: "كيف ذلك؟ إذن كل ما قلناه حتى الآن بالنسبة لك لا يعني شيئًا؟"

فقال بولات محتجًا: "إدراك الكثيرين لم يستيقظ بعد، فلا زال الكثيرون في أحلام وأوهام الماضي".

قال ميرغين: "عندما كان يحكم القائد العظيم، أصبح آلاف ضحايا له. كم من الدماء سكبت، وكم من الأقارب والأهل أعدموا، وكم من أبناء العباقرة تيتموا دون مبرر. كيف لهذا يا حسن خان؟

صمت حسن خان، ربما يفكر في ذلك بعمق، وربما يبحث عن كلمات مناسبة يرد بها عليهم، أو ربما يحاول حجز المشاعر المندفعة من داخله. أخيرًا لاحظ أن عيون أصدقائه ترنو إليه تنتظر الجواب. قرر حسن تغيير الحديث:

"حسنًا لنترك ستالين، ليس نحن من نحكم عليه، ولكن هل يجوز أن نمسك كبار الكتاب المبجلين من أعناقهم، وهم مؤلفو الكتب المدرسية الحالية، وأن نتهمهم بكل الذنوب؟ ألا يجوز تركهم وشأنهم؟ على الأقل حتى يموتوا بشرف؟".

سيطر الصمت على الغرفة.

منذ أن جاءت حرية التعبير بعد سقوط دولة الحزب الواحد،

بدأت تظهر على صفحات الصحف براهين قاطعة على الأعمال المخزية التي كان يقوم بها بعض كبار العلماء والمثقفين وكيف شاركوا قيادات الحزب الواحد في خداع الشعب واستغلاله. لكن كان الجميع يدرك كم من الصعب توجيه التهم إليهم. هم ناس محترمون، لا يزالون على قيد الحياة. توجيه التهم إليهم أصعب من توجيهها لبقايا عظام ستالين الذي مات منذ زمن بعيد.

تورسونباي: "حينها كان الزمن بهذا الشكل. لن يستطيع أحد أن يقاوم القوة مهما كانت ثقافته وعلمه".

بولات: "ذلك الوقت بالذات كان من صنع بعض الناس، الخواص الشخصية للإنسان لا تعتبر قانوناً في عهد الاشتراكية المتطورة.

ميرغين: "لا تذكر الاشتراكية بسوء. نحن لم نشم رائحة الاشتراكية الحقيقية. فقد كانت لدينا تصورات خاطئة وقلنا هذه هي الاشتراكية. لكن الحديث ليس عن هذا الأمر، وليس عن الإنسانية عمومًا، وإنما عن كيف كان يمكن أن تعيش في حالة منفصلة عن المجتمع مستقلاً بشخصيتك، وتحافظ على سمعتك الحسنة".

بولات: "الإنسانية؟ عن أي إنسانية تتحدث ؟ لم يكن هناك أي خلق أو إنسانية. إنما إيديولوجية عارية. لم يكن في كل العالم ما كان لدينا من ظلم. ألم تكن عبارات "ابن عدو الشعب لا يمكن أن يدرس في

مدرسة سوفيتية، ولا يستطيع أن يكون من الطلائع" هل هذا من الإنسانية"؟!

تورسونباي: الأخلاق تنتج من إدراك الجماعة، والصعوبة في أنه من الصعب جدًا تعريف الإدراك الجماعي ومصالح الجماعة.

بولات: الأخلاق البشرية العامة أعلى من إدراك الجماعة، وفوق مصالحها هذا هو بالذات ما لم نفهمه في وقته.

حسن خان: يا إخوان، لا تخرجوا عن الحديث. أنا أنتظر جوابًا عن سؤالي.

بولات: حسنًا، ما هو الجواب الذي يمكن أن يكون هنا. أن نقطع ونسمي الأسود أسود والأبيض أبيض، ويجب أن نوجه التهمة للمذنبين الذين حتى الآن ما زالوا محاطين بالحراسة والأبهة. ولديهم صلاحيات ونفوذ رغم ما صنعوه في عصر الحزب الواحد. لقد كانوا يجلسون في كراسيهم الدافئة يمجدون السلطة ويبنون مستقبلهم في الوقت الذي يُقتل فيه المخلصون والعباقرة وتتعفن جثثهم من الرطوبة.

تورسونباي: اهدأ يا بولات. فماذا عن الإنسانية التي تحدثت عنها؟ هل نحاكم من لم يستطع تحمل الضغوط وسار مع التيار؟ أعتقد أن هذا لا داعي له. لماذا ننبش فى الماضي. هم أيضًا بشر، وبالتأكيد لم يتعمدوا فعل ذلك.

بولات: فكيف العمل مع من يعتبر جزأ من السلطة ؟ أولئك الذين وشوا بالآخرين ومثلوا بهم وأبلغوا عنهم، بدلاً من أن يصمتوا على الأقل ويكفوا عن الناس شرهم؟

ميرغين: هذا سؤال صعب. فمثلاً أنت تقول "وشى"، وربما كانوا هم يؤمنون فعلاً بما يكتبون، كما تعلم يمكن أن يخطئ الإنسان وهو مخلص، كما يكون الإيمان ضعيفًا لديه.

تورسونباي: أعتقد أن ضمير هؤلاء هو القاضي الذي سيحاكم، وهو أعلى وأنزه قاضٍ، ثم ربما سيقبل الشعب توبتهم. تذكروا كيف نصدق بريجنيف. نحن أيضًا محتاجون للتوبة والتطهر من تصديقنا الأحلام والأوهام الماضية.

بولات: إذا لم يتم اجتثاث الحقارة والقساوة من جذورها، فإنها يمكن أن تنمو من جديد، وهنا يكمن الخطر الحقيقي في وقتنا الحاضر، نحن نريد أن نعرف الحقيقة كي لا يعود الظلم.

ميرغين: موافق، نبحث عن الحقيقة من أجل مستقبل أفضل، ولكي لا تتكرر فجائع تلك الأيام. إدراك التاريخ يولد في الشعوب كما يولد الطفل الرضيع، وكما تتعذب الأم بآلام الولادة لكي تهدي للعالم طفلاً جميلاً فإن التاريخ أيضًا يظل محتضنًا في رحمه للحقائق حتى يأتي موعد الولادة، ويضع التاريخ طفله. المولود الجديد يحتاج إلى رعاية ومراقبة، وكما حدث في الخمسينيات فإن طفلنا يمكن أن

يجهض. وننتظر عامًا وآخر، ونظل من جديد نرنو إلى الأم العظيمة ونتساءل: متى ستضع مولودها بسلام؟

بولات: أوافقك الرأي يا ميرغين. ولكن لا يجب أن نضع أحمال خطئنا على عاتق الأدباء. ليس هناك ذنب لا يغفر، عندما يكون لدينا القدرة على المغفرة سنحصل على الطهارة والنقاء. لا يمكن أن يقسو القلب ويعيش القلب ويعيش في سعادة. الشباب ينظرون إلينا ولا يفهمون. وعندهم حق في ذلك. هم يتهامسون عنا فيما بينهم ويغمزوننا: بالأمس كانوا يقولون شيئًا، واليوم يقولون شيئًا آخر. فأين الحقيقة؟ لذلك فإن على جيل الكبار أن يراجع نفسه وقلبه. وكلنا محتاج إلى التوبة والندم الحقيقي، وعندما نفعل لن يخدعنا القلب.

تورسونباي: القسوة والحقارة أسوأ ما في التاريخ. والخير أفضل ما فيه. الحقارة شيء ينتهي، أما الخير فإنه شيء ثابت.

ميرغين: إن الحقارة والقسوة تشابهت على الناس. ويقوم بها عادة ناس محتاطون لأنفسهم.

لذلك يصعب أن تجد برهانًا يدينهم، فدائمًا لديهم مبرر لما يفعلون.

بولات: في كل الأحوال عاجلاً أم آجلاً سيُكتشف كل شيء، فالحقارة تنتج عن الجبن، والجبن أعمى، يمر الوقت وتبرز الحقارة كالأثر على الثلج الأبيض.

حسن خان: الخير والشر مترافقان، فإذا لم يكن هناك شر، ما كنا وجدنا الخير وعرفناه. وجود الشر هو مُسلمة ضرورية من مسلمات التاريخ. تاريخ البشرية كله تاريخ للشر.

تورسونباي: لكن هل يجب أن نتذكر دومًا المآسي؟ وأن ننبش في الماضي؟ وأن نؤجج في أنفسنا الغضب والرغبة في الانتقام؟ ماذا عن عمل الخير؟

بولات: ولكن إذا لم نقض على الشر، فإنه سيغرس جذوره في المجتمع الجديد، وستجد رجال السلطة في الأمس يعودون إلى السلطة اليوم بأقنعة جديدة وشعارات جديدة والهدف واحد. السلطة واكتناز الخيرات لأنفسهم، والتحكم في الشعب.

تورسونباي: هذا موضوع أزلي ليس له نهاية، دعوني أقص رواية شيشانية عن الشر والانتقام:

في قديم الزمان التقى صديقان في الطريق، وأثناء سيرهما اختلفا على شيء تافه، كلمة تتبعها كلمة، هجم الصديقان أحدهما على الآخر بالخناجر. تبارزا طويلاً وأخيرًا جلس أحدهما على الآخر ووضع الخنجر على قلبه. أخذ المغلوب يتوسل ويطلب العفو ويقول إنه الابن الوحيد لوالديه، وأنه لم يتزوج بعد، ولم يترك خليفة له يحفظ نسل أجداده. عندها برد غيظ صاحبه وأخذ يعاتب نفسه على الغضب الزائد وأنه كاد يقتل صديقه من أجل شيء تافه. قام الصديق عن صدر

صديقه، وساعده على النهوض، وحضنه إلى صدره وطلب منه العفو.

صديق الماضي وخصم الحاضر كان خبيثًا وجبانًا وكاذبًا، فأخفى في نفسه الشر، وقرر أن ينتقم من خصمه على ما فعله به مهما كان الثمن. قرر الصديقان أن يرتاحا بعد أن تعبا من المبارزة الطويلة، فوضعا سراج الخيل تحت رأسيهما وناما. نام الصديق المنتصر في المبارزة نومًا عميقًا، وكان الحقد يعصر قلب الآخر ولم تقر عينه بالنوم. عند الصباح الباكر نفذ عمله الأسود. غرس الخنجر في قلب رفيقه النائم الذي قام عنه وساعده رحمة به وبأسرته. لم يستطع صديق الأمس أن يحرك ساكنًا من الخنجر الذي غرس في صدره، وأخذت روحه تخرج ببطء من جسده، وركب القاتل فرسه، وأخذ يراقب من فوق صهوة جواده كيف تخرج روح القتيل.

أدرك القتيل أنه سيموت في الصحراء دون أن يدفنه أحد أو يعرف قصة قتله أحد، وعرف أن جثته ستترك للصحراء ليأكلها الوحوش والطيور دون أن يقوم أحد بدفنها كما يجب الصلاة عليها والدعاء للمغدور. جمع القتيل ما تبقى لديه من قوة وخاطب الأزهار والأعشاب المنتشرة في المكان:

يا جمال وعزة الصحراء الواسعة

أيتها الأعشاب والأزهار التي غطت المكان بقطيفة ناعمة

منذ أن هبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض الفانية

أيتها الأزهار التي روتها حواء بدموعها على ابنها المغدور

إني أتقدم إليكم بآخر طلب

فإنني سأموت الآن

وليس هناك من سيحدث ابني ووريثي عما حدث

أنتم الشاهد الوحيد على الجريمة التي تمت هنا

عندما يمر ابني من هذه الطريق

أوقفوه وأخبروه بما حدث

هذا كل ما أرجوه منكم

قال الصديق المغدور هذه الكلمات ولفظ أنفاسه الأخيرة.

ضحك القاتل: ما هذا الغباء! ما الذي تستطيعه الأزهار والأعشاب؟ وضرب فرسه بالسّوط وواصل سيره. مرت سنوات كثيرة، وفي الطريق الصحراوي ذاته التقى اثنان من جديد: أحدهما شاب والثاني عجوز كبير السن. كانا الاثنان يسيران ويتحدثان عن أمور كثيرة مختلفة. تذكر العجوز القتال الدموي القديم وابتسم ناظرًا إلى الأرض. تساءل الشاب الذي بدا له رفيقًا غريب الأطوار منذ بداية الطريق عن سبب ابتسامته كلما رأى الأزهار والأعشاب حتى ظن الشاب بالعجوز ضربًا من الجنون والخبل. هدأ العجوز من روع الشاب، وقال له ليس

هناك شيء. انشغل ذهن الشاب بالأمر واستغل أقرب فرصة، وسقى العجوز خمرًا، وطلب منه أن يحكي له سبب ابتسامته. بدأ العجوز الذي لعب الشراب بعقله يسرد على الشاب ما حدث:

– كان هذا منذ زمن بعيد، ذات مرة قتلت شيشانيًا على هذه الطريق بخنجري، عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة توجه للأزهار والأعشاب لكي يكونوا شهودًا على موته، فهل تستطيع الأزهار أن تتحدث؟ كان ذلك مضحكًا حينها فضحكت، وفعلاً مرت ثلاثون سنة والأزهار والأعشاب كما هي خضراء يانعة ترتفع إلى السماء كما كانت في ذلك الوقت وكأن شيئًا لم يحدث.

نظر الشاب إلى العجوز بغضب شديد وعيونه تلمع بالشرر، وأخذ خنجره بيده، خاف العجوز، وطارت الخمر من رأسه وهو يرى وهج لمعان الخنجر في يد الشاب، وسأله ما الخبر ؟ ولم يفعل به ذلك ويرفع الخنجر في وجهه وهو قد أحسن صحبته طول الطريق ولم يبد منه ما يسيء إليه.

قال الشاب للعجوز: أنا ابن الشيشاني المغدور الذي قتل في هذا الطريق منذ ثلاثين عامًا.

سقط العجوز عند قدمي الشاب يرجو رحمته وعفوه، ويشكو إليه من مصيره وحياته التعيسة، وقد فقد كل أمل له في النجاة. وأدرك أنه لم تبقَ إلا ثوان معدودات ويصل الانتقام السماوي إلى العجوز على ما قدمته

يداه منذ ثلاثين عامًا.

كان الخنجر قد خرج من غمده. وكاد أن يغرس في صدر العجوز الذي ليس لديه حيلة يدفع بها عن نفسه. لكن فجأة خطر للشاب خاطرة لم يكن قد فكر فيها من قبل، لقد تحقق الانتقام من العجوز حتى وإن لم يقتله، لقد أصبح السر مكشوفًا وعرف سر الغدر الذي تم في الصحراء من عقود مضت، ولم يعد هناك داع لسفك الدماء.

قال الابن: "يا أبي لقد انتقمت لك، فنم بهدوء". وأعاد الشاب خنجره إلى غمده وواصل طريقه. أنهى تورسونباي قصته، ودعا حسن خان صديقيه الجالسين في تفكير عميق إلى طاولة الطعام.

عبرة عن آدم وحواء

صنعه الخالق من الحب

لم يكن هناك ضوء ولا ظلام، ولم يكن ثمة مخلوق أو خلق. شعر الخالق العظيم بالملل. أنا القادر على كل شيء، لماذا يجب أن أكون وحيدًا ؟ سوف أخلق كائنات أتسلى بمراقبة حياتها، وإذا لم يعجبني حالها سأقضي عليها.

هكذا خلق الخالق الأرض، وأنزل إليها البذور. وخلق طيرًا وأمره أن يأكل في كل يوم حبة واحدة. لم يأكل الطير حبة واحدة في اليوم بل حبتين وثلاثًا، ورأى الخالق ذلك لكنه لم يمنعه، لكنه استغرب من غباء الطير، فبأكله أكثر من حصته المعلومة سيقصر عمره ولن يعيش طويلاً كما قدر له الخالق.

هذا المخلوق الغبي يعيش مئات السنين على ما يجده جاهزًا. لكنه لم يفكر مرة واحدة فى الخالق الذي أوجده وأوجد له الطعام. هل يعتقد أنه قد وجد من تلقاء نفسه؟ إنه لا يفكر في شيء وكأنه لا يوجد غيره في الكون، ليس لديه مشاعر شكر المخلوق تجاه الخالق، ولا يعرف حدوده. يأكل ويبلع فقط، ولا يفكر أن كل هذا قد ينتهي غدًا. هذا ما حدث.

مرت آلاف السنين. أكل فيها الطير كل البذور، ومات بعد ذلك من الجوع.

خاب أمل الخالق، فلم يكن أن يظل وحيدًا. لذلك قرر مرة أخرى خلق كائن جديد. كون الخالق من الطين جسمًا، ولصق في الجسم الطيني رأسًا ويدين ورجلين، وأمر الدم أن يسير في الجسم، ونفخ الروح في كل الأعضاء. عندها نطق المخلوق ذو القدمين.

- نعم أيها الخالق أشكرك وأنحني أمام عظمتك.

أُعجب الخالق بالمخلوق ذى القدمين، ولكنه لاحظ نبرة حزن في صوته، ولمح نظرة ألم في عينه، ذات يوم دار بينهما الحوار التالي:

الخالق: يا عبدي، ما الحزن الذي تحمله في نفسك ؟ صارحني.

- آدم: يا صاحب العلو، إنني قلق لأنكم وحيدون في هذا الكون كله. وهذا يجلب الحزن.

- الخالق: كيف ؟ وأين أنت؟ ألم أخلقك لكي نمرح معًا.

- آدم: ما أنا إلا انعكاس لكم، ولهذا فأنتم وحيدون.

هنا فكر الخالق، هذا الكائن ليس إلا تكرارًا لي فقط، بل انتقل إليه مللي، والآن هو يشعر بالملل بدلاً مني.

عندما كان آدم في الجنة شق الخالق صدره، وجذب أحد أضلعه، وخلق منه مخلوقًا آخر ذا قدمين. بمجرد أن ناداها حواء قامت هذه المخلوقة مباشرة إلى آدم، وأخذت تغطي جسده بأوراق الشجر لتحميه من البرد. بعد ذلك لم تبتعد عنه ولو خطوة واحدة.

لم تتذكر المخلوقة خالقها مطلقًا. أذهل نسيانها الخالق. لم تحبه حواء التي خلقها. وإنما أحبت آدم.

كان الخالق في نفسه يريد أن يقتل حواء، لأنها إذا لم تشعر بالحب تجاه الخالق، فإن العالم سيتحول إلى فوضى. لا بد من وضع حد لهذا.

قرر الخالق تصغير عقل حواء وجعل شعرها طويلاً كي لا ترى ما يراه آدم.

- سأجعلها قصيرة. سأقصر طولها، وسأجعلها تشعر بالألم مع اللذة. سآمرها بإنجاب الأطفال بألم.

استيقظ آدم في حالة نفسية جيدة، ولم يفاجأ بظهور حواء، لأن الخالق جاء إليه في المنام وحدثه بذلك. إلا أن مكان الضلع كان يؤلمه كثيرًا، وسمعت حواء دقات قلب آدم واقتربت منه ووضعت رأسها على صدره واستمعت طويلاً لدقات قلب آدم التي بدت لها وكأنها لحن رائع يملأ كل ما يحيط بها. ضعفت قدما حواء عن حمل جسدها، فثنتهما إلى صدرها، وهنا ضمها آدم إليه بقوة، وذاب الاثنان في لذة أبدية.

عاش الاثنان في الجنة دون أن يهتما أو يفكرا بشيء. كل شيء متوفر حيث يظهر الأكل والشراب أمامهما في كل مرة بمجرد أن يرغبا في الأكل، كاد آدم أن ينسى خالقه، وأصبح يتذكره نادرًا.

أصبح مدح الخالق وشكره أمرًا شاقًا على آدم. وما الذي يمكنه أن يطلبه من الخالق، وهو يعيش برفاهية ونعيم، لا ينقصه شيء.

نظر إليهما الخالق وفكر: كيف استطاع هذان الكائنان اللذان خلقتهما بيدي أن ينسياني تمامًا؟ يجب أن ألقنهما درسًا، سأرسلهما من الجنة إلى الأرض الفانية.

بمجرد أن فكر الخالق في الأمر حدث كل شيء تلقائيًا، ويرجع السبب في ذلك إلى فُضول حواء التي تذوقت الثمرة المحرمة.. التفاح، مما استدعى غضب الخالق.

فقد آدم وحواء للأبد عالم التمتع والسعادة، العالم الرائع، وفي لحظة واحدة وجدا أنفسهما في عالم المشقات.

منذ ذلك الوقت الذي لا يُنسى، عاش آدم وحواء الكثير من الصعوبات الكبيرة: تعرضا للبرد والجوع، وتذوقا كل ما يقع في أيديهما، وما يبدو لهما مستساغا يمضغانه ويأكلانه، وظهر لهما أن كل ما يحيط بهما عدواني، غير معروف، وغير مفهوم، ومخيف. وكان أكثر ما أذهل آدم أنه لا يوجد هنا أي شيء دائم، فالأنهار التي كانت بالأمس مليئة بالماء، أصبحت اليوم جافة، ذبلت الزهور الرائعة في

الأفق، وخفت الحرارة بالتدريج وجاء البرد، مثل هذه التغيرات كثيرة ويصعب حصرها.

في الجنة كان كل شيء ثابتًا ورائعًا. هناك لم يلاحظ آدم وحواء أي تغيرات، فالزهور يانعة طوال العام، والماء يسير في النهر باردًا وشفافًا مترقرقًا إلى ما نهاية.

بدأ آدم يعاني آلام المعرفة، وتوجه إلى الخالق بدعاء، سمع الخالق دعاءه وقال:

- أنت تريد المعرفة؟ حسنًا، استمع إلى واحفظ، صديقتك التى بجوارك، خلقتها من ضلعك واسمها حواء، حواء، حواء ! أهذا ما أردت أن تعرفه؟

- ما أعظم رحمتك بعبدك يا خالقي، ولكن ليس هذا ما أردت أن أعرف.

- بعصيانك لي مرة واحدة واقترافك الذنب أُخرجت من الجنة إلى عالم العذاب حيث تمتلئ الحياة بالمتاعب.

- نعم إن الحياة بالنسبة لي على الأرض تجربة قاسية. لكن ما يعذبني عليها شيء واحد، لماذا العالم الذي أعيش فيه متغير وغير ثابت بهذا الشكل؟ وما سبب ذبول الزهور، وجفاف الأنهار؟ كيف يمكنني اكتشاف هذا السر، يا علي يا قدير؟

- (بغضب): أيها الأحمق بدلاً من أن تهتم بنفسك، تحاول السيطرة على أسراري. من الأفضل لك أن تطلب ثيابًا لجسدك وغطاء لرأسك وغذاء لبطنك. تقف على الأرض وترفع يديك إلى السماء، لتقول هذه الأشياء. أنا ظننت أنك عدت إلى رشدك.

- يا إلهي لو كنت قد أذنبت، وأخطأت بحقك فعاقبني، أنا مستعد للعذاب.

- منذ البداية أعطيتك الحرية، أسكنتك الجنة، لم يكن ينقصك شيء، لم تكن تهتم بشيء، لكن ذلك لم يكفك، أردت أن تعرف كل شيء، أردت أن تكتشف كل الأسرار، لقد ارتكبت المحرم، لذلك فقد حُكم عليك بالعذاب الأبدي، ما الذي تريد غير ذلك؟.

- يا إلهي، إن عذابي على الأرض ما هو إلا إرادتكم ورغبتكم، فلو أنكم أردتم لمنعتموني من أن آكل الثمرة المحرمة، وكان يكفي أن تضربني على يدي، ولكنكم فكرتم: وماذا سيحدث، إذا كان يريد أن يأكل المَحرمات فليأكل.

- لنفترض ذلك.

- في هذه الحالة، يا إلهي فقد قمتم بذلك لمجرد الفضول، لتروا كيف سيعيش الإنسان الذي نزل من السماء إلى الأرض،

وكيف سيتحمل العذاب والألم الذي قسم له.

- لم أتوقع أن أسمع هذه الكلمات منك، بل من أحفادك، وأنا مندهش أن أسمعها منك أنت.

- لا تستغرب، يا إلهي. فأحفادي سيقولون إن الكون بدأ من اللحظة التي خلق فيها أول إنسان من النور، وتحدث إليكم.

- هذا ليس تاريخ الكون، وإنما تاريخك أنت. لقد أوجدت قبلك مخلوقات أخرى في الكون، لكني لم أمنحهم من نوري كما منحتك، لم أنفخ فيهم من روحي كما نفخت فيك، لقد خلقتك بالحب، ونفخت في جسمك الحياة ولكن هذه الروح قسمتها بينك وبين حواء، وسميتكما رجلاً وامرأة، وأضفت إليكما الإدراك والمشاعر، ووهبتكما العقل، حتى تعرفاني خالقاً فوق كل شيء. يا آدم، أن تدرك يعني أن تخضع، وأن تعترف بوجودي وبقدرتي، يجب أن تحبني دون حدود.

- يا إلهي، ألن يكون حبي لحواء عائقاً؟

- هذه الأفكار غير موجودة إلا في إدراكك.

- وإذا ظهر هذا لدى أحفادي؟

- عندها ستأتي نهاية الكون، سيحترق العالم، وسيخاف الناس بعضهم من بعض. وسيبدأ حساب من على الأرض.

- أستغفر الله ! اللهم جنبهم ذلك.

- كل شيء بإرادة الله.

- يا إلهي، لم تجبني عن سؤالي. لماذا تتغير الحياة بهذا الشكل؟ لماذا يجف النهر؟.

- يبدو أنني سأضطر للإجابة عليك: إن العالم والكون بكامله لا يقف في مكانه، وكل شيء يحدث بإرادة الله، ولذلك فإنني أنا فقط الدائم. وكل ما سواي منتهٍ متغير وغير ثابت.

- إذن أنا، حبي لك وخضوعي أمام عظمتك أيضًا غير أبدي؟

- أنت ستذبل كالورود وستجف كالنهر، وسيسمي نسلك هذا الموت. الحياة هي الوقت الذي تعيشه حتى الموت. الحياة والموت يسيران يدًا بيد.

- أين سأذهب بعد الموت ؟ فالماء يختفي في باطن الأرض، وكيف أنا؟

- إن الإنسان أرقى مخلوقاتي، أحفادك أبناء البشر سيتحدثون بلغات مختلفة وسيحملون أسماء مختلفة، ولكن لو حافظوا على إنسانيتهم الحقة فإنه ينتظرهم بعد الموت دخول الجنة.

- وهل لديهم طريق آخر؟

- نعم.

- ما هو هذا الطريق؟

- إنه العالم الذي سيختاره أحفادك بأنفسهم. إذا لم يقفوا ضد الإرادة العُليا، فإن الجنة تنتظرهم، وإذا عصوا فإن لهم العذاب المقيم.

- إذن هذا يعني تعذيب ذريتي للأبد ؟ خذ روحي الآن!

- أنا فقط الذي أخلق وأُحدد المصير وساعة الموت. عندما يأتي قدرك ستسلم روحك لي.

- متى سيكون ذلك ؟ أعندما تأتي أنت لقبض روحي؟

- لكل شيء أوانه.

- ولكن هذا لا يجب أن يكون فجأة، يجب على أن أهتم بذريتي حتى أطمئن عليهم، وأن أنقل لهم نور حبي لك.

- بمجرد أن تظهر فيك تغيرات محددة اعلم أن هذه علامتي لك باقتراب الأجل المحتوم.

مرت الأيام والشهور، وعبرت السنون، وكان كل عام لا يشبه العام الذي سبقه ويختلف العام القادم عن الحالي، حدث في هذه السنوات كل شيء: برد في الشتاء، حر في الصيف. وبني آدم وحواء

أول بيت لهم، وتعلموا الكثير، وتعودوا على حياتهم الجديدة، وأنجبوا أطفالاً، وتعرض آدم وأبناؤه للجوع، واختبؤوا من أظافر الوحوش، ومن أسنانهم القاطعة.

في البداية خُلق لآدم ولد قوي، صحيح البنية، بعد ذلك خُلقت ابنة جميلة. مرت حقبة من الزمان اخترع فيها أحفادهم القوس والرمح، وبدأوا يصطادون الحيوانات الوحشية، ولكي يحتموا من أشعة الشمس الحارقة ومن البرد القارس لبسوا جلود الوحوش التي اصطادوها، وتحولوا بعد فترة إلى ما يشبه الوحوش يتناحرون فيما بينهم.

ذات مرة عندما كان آدم يجلس تحت شجرة مفرعة ظهر أمامه ملاك الموت. شعر آدم بالقلق وقال "طريق السلامة لك أيها الغريب".

- إن طريقي إليك، لقد جئت من أجلك، قل آخر كلامك.

- تنحنح آدم محاولاً إخفاء الرعشة التي ملأت جسده.

- كيف يحدث هذا ؟ فقد وعدني الخالق أن يعطيني علامة قبل أن ينتهي وجودي أظن أنك قد استعجلت. أبلغ العلي القدير، أني أريد أن أتحدث إليه".

وافق ملاك الموت. على الرغم من أن آدم كان يعلم بأن الحياة في الجنة تنتظره بعد الموت، لكن يبدو أنه وجد الكثير من السعادة حتى على الأرض الفانية، ولديه رغبة في التأخر فيها، كما أنه يصعب

مفارقة حواء التي عاشت معه كل هذه السنين، كما يقلقه الخلاف الذي بدأ يظهر بين ابنيه هابيل وقابيل. لا، يجب التحدث مع الخالق لكي يؤجل الموت قليلاً.

أجاب الخالق ولكنه لم يظهر.

اظهر يا خالقي أريد أن أتقدم إليك برجاء.

- أنت لن تراني فاقنع بسماع صوتي. إن الناس لم يكتفوا بما قُسم لهم وهم غير شاكرين للنعمة، لقد تأكدت من ذلك. تحدث إنني أستمع إليك.

- أريد أن أعرض عليك شكواي، فقد وعدتني يا إلهي أن تُعطيني علامة عندما تنتهي حياتي على الأرض، لكن – وبدون أن تُعطيني علامة – ترسل ملاك الموت! فأين وعدك؟

- نعم لقد تحدثنا عن ذلك.

- لقد استعجل ملاك الموت. فلم أحصل منك على علامة.

- إذن هذا ما أردت أن تقوله، فأجب عن أسئلتي.

- سمعًا وطاعة.

- متى ظهر لديك الشعر الأبيض؟

- منذ زمن بعيد.

- هل تذكر حين دفعتك زوجتك حواء فجأة عندما أردت أن تضمها إليك؟

- نعم أذكر.

- كم مر من الوقت منذ ذلك الحين؟

- عندما خلق لقابيل أول حفيد. وقد كبر هذا الحفيد الآن وتزوج يا إلهي.

- متى ابيض شعر لحيتك؟

- منذ أن خُلق لقابيل حفيد، وقد أصبح الآن كبيرًا يا ربي.

- إذن هذه هي العلامات التي بعثت بها إليك، وكان يجب عليك أن تلاحظ ذلك، أولم أحذرك من ذلك؟

- نعم يا علي يا قدير، لقد أبلغتني.

- قديمًا كنت تكرر اسم حواء كثيرًا، أما الآن فإنك تكرر "ارحمني يا رب" فمتى بدأ ذلك؟

- منذ وقت قريب.

- بهذه الكلمات كنت تدعو ملاك الموت إليك، بعد ان اقتنعت بحياتك.

- يا إلهي ما الذي حدث لي ؟ لم أدرك علاماتك لي؟

- هناك سبب لذلك، وهو ليس فيك فقط. فعلى هذه الأرض الفانية المليئة بالألم والعذاب يوجد أغلى شيء إنها.. الحياة.. لقد كنت في الجنة وتعرف كيف هي الحياة هناك، ولكنك تفضل الحياة على الأرض، لا يحق لأحد أن يموت قبل أجله المحدد من أعلى. ومن يخالف ذلك فإنه سيذهب إلى النار.

- يا إلهي، وما هي النار؟

- هذا هو ما اخترعته ذريتك. ابنك قابيل سيكون أول من يدخل أبواب النار. والنار هي عذاب أزلي.

- كل شيء بيدك يا إلهي، فاجعل ذريتي تشعر باقتراب الموت، وألاّ يأتيهم فجأة، وهم غافلون.

- إذن أبلغ حديثي معك لابنك هابيل، فيجب على هابيل أن يتقبل منك التعاليم وأن ينقلها لأحفاده.

- سأفعل يا إلهي.

- إن النساء حساسات جدًا، فلتكن كلماتي تعاليم للرجال الذين تخطوا سن الأربعين، ولا تفعل شيئًا دون أن تشاور نصفك الآخر.

استدعى آدم ابنه هابيل، وحدثه بكل شيء لكنه لم يذكر له شيئًا

عن أن قابيل سيدخل النار لأن ذلك بيد العلي القدير. ودّع آدم أهله في انتظار ملاك الموت، وتحدث معهم ومع زوجته عن الحياة وأعطاهم آخر التوجيهات والنصائح. في الصباح خرجت روح آدم من البيت بيضاء نقية، وسلمت زوجته حواء ونصفه الآخر جثته للأرض.

المؤلف في سطور

عارف الله يسيم

مفكر جامعي ورجل دولة قازاقى ، درس فى جامعات الاتحاد السوفيتى ونال درجات علمية فى تخصص الفلسفة وشغل وظائف رفيعة فى جامعة الفاربى منها عميد كلية الفلسفة والسياسة ، وهو حاليًا عضو مجلس الشورى (Senate) لجمهورية كازاخستان . له مؤلفات كثيرة بالروسية والقازاقية فى تاريخ اللسفة وفى تاريخ القازاقى وعن المفكر الرائد آباى ، وترجمت بعض كتبه إلى الإنجليزية.

المقدم فى سطور:

محمود فهمى جحازى

عالم اللغة والمفكر المصرى، درس فى جامعة القاهرة وجامعة أرلانجن ثم جامعة ميونيخ حصل منها على الدكتوراه. عمل فى جامعة القاهرة ، وكان رئيسًا لدار كتب كثيرة بالعربية والألمانية فى علم اللغة والفكر العربى وحوار الثقافات. نال جائزة الدولة التقديرية (١٩٩٨)، ووسام الاستحقاق الألمانى، والدكتوراه الفخرية من جامعة اللغات العالمية فى كازخستان (٢٠٠٤) . وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وبدمشق وعضو المجمع العلمى المصرى ، وله مدرسة متميزة فى علم اللغة ومستشار لجامعات ومنظمات دولية ودوريات علمية.

الترجمة والمراجعة والصياغة العربية:

د . على رءف المحمدوف:

مفكر جامعى قازاقى، ولد فى منطقة من كازاخستان على حدودها مع الصين، درس فى وطنه وفى الجامعات الروسية، تخصص فى التربية، ثم تعلم اللغة العربية، وحصل على درجة الكانديداتمن جامعة الفارابى، له دراسات فى جوانب تربوية واجتماعية فى الحضارة الإسلامية والواقع المعاصر. يعمل حاليًا بجامعة نور مبارك.

الترجمة والمراجعة والصياغة العربية:

د . شمس الدين كريم

جامعى قازاقى، ولد فى منطقة من كازاخستان قرب روسيا. درس فى جامعات كازخستان وأزبكستان، وتخصص ى التراث الشعبى القازاقى والعربى. له دراسات عن الأمثال والألغاز واللغة العربية فى كازاخستان، وعلم البلدان، وشارك فى كتب تعليمية جامعية وفى كتاب مصر كازاخستان: التراث الثقافى المشترك وآفاق المستقبل، شارك ببحوث فى مؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

د . محمود فؤاد أبو العينين:

متخصص مصرى فى أدب مصر الإسلامية وثقافتها ، تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وحصل منها على درجة الماجستير ثم الدكتوراه . له دراسات فى الأدب الجاهلى وفى الأدب فى عصر الظاهر بيبرس ، وعن المصادر العربية لدراسات كازاخستان ، وعن المكتبة الرقمية فى الدراسات العربية ، عمل بجامعة نور مبارك وشارك فى كتب تعليمية جامعية وفى كتاب مصر كازاخستان : التراث الثاقى المشترك وآفاق المستقبل ، وكان مديرًا لتحرير سلسلة الذخائر بالقاهرة.

التصحيح اللغوى: **أحمد عبده**

الإشــراف الفنى: **حسن كامل**



هذا كتاب قازاقى مترجم إلى العربية فى إطار جهود جديدة ومشكورة لتعريف المثقف العربى بآداب الشعوب الشرقية. وهو كتاب لمؤلف معروف فى جمهورية كازاخستان بأنه أستاذ كبير فى الفلسفة، إنه عارف الله يسيم عميد كلية الفلسفة والعلوم السياسية بالجامعة الوطنية القازاقية المعروفة باسم جامعة الفارابى منذ سنة **2001**، وهو شخصية علمية مرموقة نشر كتبًا قيمة ومئات المقالات والمقابلات الإعلامية.

أما هذه المجموعة القصصية فقد نشرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، حوادثها تمثل تلك البدايات الصعبة لتكوّن تلك الدولة الكبيرة، وفيها أيضًا بذور الضعف. نجد فيها إشارات إلى الصراع بين القوى السياسية المتنافسة: الحمر والبيض، وصراع القوى المعارضة لهم من القوميين والإقطاعيين.

تصميم الغلاف: أمين الصيرفى

الإبداع القصصى